مِنْ هَدْيِ اَلْقُرْآن

مُشْكِلَات حَيَاتنَا اَللُّغَوِيَّة

تأليف

أَمِين اَلْخُولِيّ

الكتاب: مِنْ هَدْيِ اَلْقُرْآن .. مُشْكِلَات حَيَاتنَا اَللُّغَوِيَّة
الكاتب: أَمِين اَلْخُولِيّ
الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
APA
http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر
اَلْخُولِيّ ، أَمِين
مِنْ هَدْيِ اَلْقُرْآن .. مُشْكِلَات حَيَاتنَا اَللُّغَوِيَّة / أَمِين اَلْخُولِيّ
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٢١ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٨ – ٤٥٥ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٥٤١٧ / ٢٠٢٢

مِنْ هَدْيِ اَلْقُرْآن

مُشْكِلَات حَيَاتنَا اَللُّغَوِيَّة



فَاتِحَة

هَذِهِ مُحَاضَرَات عَنْ مُشْكِلَات اَلْحَيَاة اَللُّغَوِيَّة لِمُتَكَلِّمِي اَلْعَرَبِيَّة..

وَإِنَّهُ لِلْحَدِيثِ اَلَّذِي تَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَة تُجْرَى أَلْسِنَتهمْ بِهَذِهِ اَلْعَرَبِيَّة فِي صُورَة مَا.. وَهُوَ عِنْد اَلَّذِينَ تُجْرَى فِي عُرُوقهمْ دِمَاء اَلْعَرَبِيَّة بِلَوْن مَا، حَدِيث اَلْحَيَاة وَالْأَمَل.

* * *

إِنَّمَا اَلْحَيَاة اَللُّغَوِيَّة فَاصِلَة مَا بَيْن حَيَاة اَلنَّاس وَالْحَيَاة فِي سَائِر صُنُوف اَلْأَحْيَاء.. لِأَنَّهَا الناطقية، عَلَى أَيّ مَعْنَى أَرَدْتَهَا... مَنْ لَسْنَ قَائِل.. أَوْ ذِهْن فَاهِم.. فَاللُّغَة اَلَّتِي هِيَ نَشَاط اَللِّسَان لَيْسَتْ - فِي اَلتَّقْدِير اَلْحَقّ – إِلَّا تَفْكِيرًا.

وَإِذَا مَا كَانَتْ حَيَاتنَا اَللُّغَوِيَّة فَاصِلَة مَا بَيْن حَيَاتنَا أَنَاسِيّ وَحَيَاة سَائِر أَجْنَاس اَلْأَحْيَاء فَإِنَّهَا لكذلك مَظْهَر لِكَافَّة حيواتنا اَلْأُخْرَى فِي دُنْيَا اَلْبَشَرِيَّة وَمَادَّة تَشْكِيل كُلّ نَشَاط وَنتَاج لِقُوَى تِلْكَ الحيوات فَنِّيًّا، وَهِيَ اَلْوَصْلَة بَيْن اَلْوَحْدَة بَيْننَا لِلْإِفَادَةِ مِنْ نَتَائج كُلّ نِضَال فِي هَذِهِ اَلدُّنْيَا.

وَاعْتَبَرَ بِمَا شِئْت مِنْ عِلْم أَوْ عَمَل أَوْ فَنّ.. أَوْ.. أَوْ.. فَلَنْ تَرَاهُ إِلَّا تَعْبِيرًا وَتَعْلِيمًا وَتَفَاعُلًا وَتَعَاوُنًا.. وَوَسِيلَته كُلّه، وَأَدَّتْهُ كُلّه هِيَ اَلْإِفْهَام وَالتَّفَاهُم بِأَقْرَب طَرَائِقهَا وَهُوَ اَلْكَلَام.

وَلَيْسَ بِالْكَثِيرِ وَلَا اَلْمَبَالِغ أَبَدًا أَنْ تَقُول: إِنَّ آفَات حَيَاتنَا فِي جَمْرَقَا تَعُود إِلَى عِلَل لُغَوِيَّة تَصَدُّع اَلْوَحْدَة.. وَتَحْرِم اَلدِّقَّة وَتُبَدِّد اَلْجُهْد وَتَوْق تَسَامَى اَلرُّوح وَالْجِسْم، وَالْعَقْل وَالْقَلْب.

وَمِنْ كُلّ أُولَئِكَ تَكُون كُلّ مُحَاوَلَة إِيجَابِيَّة فِي سَبِيل إِصْلَاح اَلْحَيَاة اَللُّغَوِيَّة وَإِزَاحَة عِلَلهَا هِيَ اَلْمُحَاوَلَة اَلْأُولَى وَالْكُبْرَى فِي سَبِيل سَلَامَة اَلْكِيَان اَلْجَمَاعِيّ.. وَالشُّعُور اَلذَّاتِيّ.. وَالْجَدّ اَلْحَيَوِيّ.. وَالسُّمُوّ اَلْعَقْلِيّ اَلْوِجْدَانِيّ.

وَبَعْد.. فَهَذَا اَلْقَلَم يُؤْمِن بِأَنَّ هَذَا اَلْعَهْد مِنْ حَيَاتنَا إِنَّمَا هُوَ عَهْد اَلتَّأْسِيس وَالتَّصْحِيح، لِمَنَاهِج اَلتَّفْكِير تَصْحِيحًا يَجْعَل اَلنَّهْضَة اَلْفِكْرِيَّة وَتَقُوم عَلَى أَسَاس مَتِين مِنْ إِدْرَاك طَبَائِع اَلْمَوَادّ اَلَّتِي نَدْرُسهَا وَكَيْفَ نَنْفِي فِيهَا وَتُثْبِت وَكَيْفَ نُصَحِّح مَا فِي قَدِيمهَا مِنْ اَلْأَخْطَاء وَكَيْفَ نَنْتَفِع بِالتَّقَدُّمِ اَلْعَقْلِيّ اَلَّذِي بَلَغَتْهُ اَلثَّقَافَة اَلْإِنْسَانِيَّة.. وَالْأَبْدَع مَعَ هَذَا اَلْإِيمَان اَلْقَوِيّ - أَنْ يَكُون تَصْحِيح اَلْمَنْهَج اَللُّغَوِيّ هُوَ أَوَّل وَأَهَمّ مَا يَعْنِي بِهِ هَذَا اَلْقَلَم. فَيُحَاوِل أَنْ يَبْلُغ فِي هَذِهِ اَلْمُحَاضَرَات شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ اَلتَّصْحِيح اَلْمَنْهَجِيّ، يَرُدّ اَلطُّلَّاب وَالْبَاحِثِينَ إِلَى أُصُول سَلِيمَة يَلْتَقِي عِنْدهَا اَلْبَاحِثُونَ وَدُعَاة اَلْإِصْلَاح اَللُّغَوِيّ فَتَتَوَفَّر جُهُود كَثِيرَة، تَضِيع فِي جَدَل لَا يَنْشَأ إِلَّا مِنْ اِخْتِلَاط اَلِاعْتِبَارَات الوهيمة وَالتَّقَالِيد اَلْوِرَاثِيَّة، نَنْسَى مَعَهُ اَلْحَقَائِق اَلْمَنْهَجِيَّة وَيَحُول دُون اَلْمُضِيّ فِي إِصْلَاحَات طَالَ تَأَخُّرهَا وَلَمْ يَعُدْ اَلْوَقْت يَحْتَمِل تَأْخِيرهَا.. وَلَا اَلْحَيَاة تَتَحَمَّل تَعْطِيلهَا.

وَكَذَلِكَ نَرْجُو وَنَأْمُل أَنْ يَكُون اَلْحَدِيث عَنْ مُشْكِلَاتنَا اَللُّغَوِيَّة صَحِيح اَلْمَنْهَج حَيَوِيّ المنزع قَوِيّ اَلْإِيحَاء إِيجَابِيّ اَلْأَثَر.. جَرِيء اَلْعَزْم وَاضِح اَلْقَوْل فِي تَصْحِيح اَلْمَنْهَج غَيْر مُتَأَثِّر بِمَا شَعَرَتْ بِهِ مُنْذُ اَللَّحْظَة اَلْأُولَى مِنْ خَلْط طُلَّاب هَذَا اَلْمَعْهَد بَيْن اَلْعَاطِفَة وَالْحَقِيقَة وَكِيل إِلَى سَتْر اَلْحَقَائِق أَوْ تَلْوِينهَا بِمَا يَرْضَى وَيُسَايِر أَهْوَاء يَحْسَبُونَ أَنَّ فِي إِشَاعَتهَا شَيْئًا مِنْ اَلْأَثَر فِي تَشْجِيع أَوْضَاع عَمَلِيَّة أَوْ سِيَاسِيَّة يَظُنُّونَ أَنَّهَا تَخْدِم بِهَذِهِ اَلْعَاطِفِيَّات وَيَنْسَوْنَ أَنَّ شَرّ مَا يَجْنِي عَلَى اَلْحَقِيقَة أَنْ تَكُون خَادِمَة لِهَوَى أَوْ جَالِبَة لِنَفْع مَهْمَا يَكُنْ فِي تَقْدِيرهمْ فَإِنَّهُ لَا بَقَاء لَهُ وَلَا حَيَاة مَادَامَ لَا يَقُوم عَلَى حَقِيقَة عِلْمِيَّة، صَحِيحَة اَلْأَصْل سَلِيمَة اَلْمَنْهَج وَحِسْبِيّ هَذِهِ اَلْإِشَارَة اَلْمُجْمَلَة دُون تَفْصِيل وَلَا تَفْسِير.

وَبِالْحَقِيقَةِ - لَا بِأَيّ شَيْء سِوَاهَا تُحِلّ مُشْكِلَاتنَا اَللُّغَوِيَّة فِي حَيَاة اَلْمُجْتَمَعَات اَلْعَرَبِيَّة..

أَمِين اَلْخُولِيّ

تَشْخِيص تَحِيَّة وَشُعُور

سَلَام عَلَيْكُمْ.. تَحِيَّة اَلْعَرَبِيَّة.. وَعَلَيْهَا قَصْرهَا اَلْإِسْلَام..

مُنْذُ أَلْقَى كِتَاب اَلْمَعْهَد، مِنْ بِضْعَة أَشْهُر: أَنْ أَتَحَدَّث عَنْ قَضَايَا اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة اَلْحَدِيثَة اَلْيَوْم وَجَّهَتْ نَفْسِي إِلَى اَلْمَوْضُوع، وَمَضَتْ فَتْرَة لَيْسَتْ بِالْقَصِيرَةِ فَإِذَا عُنْوَان اَلْمَوْضُوع فِي رَأْسِي حِين أُفَكِّر فِيهِ أَوْ أَقْرَأ حَوْله هُوَ: مُشْكِلَات حَيَاتنَا اَللُّغَوِيَّة أَوْ مُشْكِلَات اَلْعَرَبِيَّة اَلْيَوْم وَلَيْسَ هَذَا مَعْنَى بِبَعِيد عَنْ عُنْوَان اَلْمَعْهَد لَهُ قَضَايَا اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة لِأَنَّ اَلْقَضَايَا تَحْتَاج إِلَى تَقَاضٍ وَتُحَاكِم وَتَكُون حَوْل مُشْكِلَات لَيْسَتْ سَهْلَة اَلْحَلّ.. وَلُكْنَ كَلِمَة اَلْمُشْكِلَة أَبْعَد إِيحَاء - وَأَنْسَب لِأَهَمِّيَّة اَلْحَيَاة اَللُّغَوِيَّة.

أَهَمِّيَّة: مُشْكِلَات اَلْحَيَاة اَللُّغَوِيَّة فِي اَلْمُجْتَمَعَات اَلَّتِي تَتَكَلَّم اَلْعَرَبِيَّة هِيَ – فِي تَقْدِيرِي أَبْعَد مُشْكِلَاتهَا غَوْرًا وَأَعْنَفهَا أَثَرًا.. فَإِنَّهَا تُصِيب هَذِهِ اَلْأُمَم اَلْعَرَبِيَّة جَمِيعًا بِظَاهِرَة اَلِازْدِوَاج اَللُّغَوِيّ اَلَّتِي تَجْعَلهَا تَحْيَا وَتَشْعُر وَتَتَعَامَل وَتَتَوَاصَل بِلُغَة يَوْمِيَّة مَرِنَة نَامِيَة مُتَطَوِّرَة مُطَاوَعَة.. ثُمَّ هِيَ تَتَعَلَّم وَتَتَدَيَّن بِلُغَة مَكْتُوبَة مَحْدُودَة غَيْر نَامِيَة لَا تُطَوِّع بِهَا اَلْأَلْسِنَة وَتَتَعَثَّر فِيهَا اَلْأَقْلَام.

وَهَذَا "اَلِازْدِوَاج اَلْقَهْرِيّ" يُصَدِّع وَحِدَّتَهَا اَلِاجْتِمَاعِيَّة وَيُفَرِّقهَا طَبَقَات ثَقَافِيَّة وَعَقْلِيَّة وَبِهَذِهِ اَلْوَحْدَة المرضوضة اَلْوَاهِنَة تُمَارِس اَلْحَيَاة

اَلْعِلْمِيَّة وَهِيَ خَائِرَة اَلتَّمَاسُك فَاتِرَة اَلتَّعَاوُن إِنْ لَمْ تَكُنْ فَاقِدَته فَإِذَا هِيَ مَا عَضَّهَا اَلْوَاقِع بِأَنْيَاب اَلْمُنَافِسَة وَقِسْت عَلَيْهَا اَلْأَحْدَاث فَشَعَرَتْ بِالْهَوْلِ وَفَزِعَتْ إِلَى شَيْء مِنْ إِصْلَاح أَمْرِهَا بِالْإِغْوَاءِ اَلتَّعْلِيم، وتعسرت عَلَيْهَا وَسِيلَته اَلْعُظْمَى وَهِيَ اَللُّغَة. فَإِذَا هِيَ تَبْذُل اَلْجُهْد اَلْمُضَاعَف مِنْ مَالهَا النرز وَوَقْتهَا اَلنَّفِيس، وَلَا تَعُود إِلَّا بِأَيْسَر اَلْفَائِدَة، وَقَدْر تَلَاحُق اَلْخَسَائِر وَتَتَابُع اَلْأَضْرَار حِين تَكُون اَللُّغَة هِيَ وَسِيلَة كَسْب اَلْمَعْرِفَة، قَدْ صَارَتْ هِيَ نَفْسهَا مَادَّة صَعْبَة اَلتَّعَلُّم سَيِّئَة اَلنَّتَائِج يُؤَثِّر لَهَا كُلّ حِين وَيَلْتَمِس لَهَا اَلْعِلَاج كُلّ مَوْسِم فَإِذَا اَلْمَرْحَلَة اَلْأَوْلَى مِنْ إِنْسَانِيَّة اَلْجَمَاعَة وَهِيَ اَلتَّعْلِيم اَلْإِلْزَامِيّ مَرْحَلَة غَيْر مُوَفَّقَة، بِسَبَب صُعُوبَة تَعْلِيم اَللُّغَة وَإِذَا مُكَافِحَة اَلْأُمِّيَّة صَعْب طَوِيل سَلَّمَهُ وَإِذَا كَثْرَة اَلنَّاس همل غَفَلَ لَا يُهَيِّئُونَ للمارسة نَشَاط عَامِل يَسِير اَلْخَطَر ثُمَّ هُمْ لايعينون عَلَى أَنْفُسهمْ فِي تَقَبُّل إِصْلَاح اِجْتِمَاعِيّ أَوْ صِحِّيّ أَوْ خِلْقِيّ أَوْ عَمَلِيّ.. لِأَنَّهُمْ لَا يَقْرَءُونَ فَيَسْتَنِيرُونَ وَيَسْتَجِيبُونَ لِمَا يُرَاد بِهِمْ مِنْ خَيْر وَإِذَا اَلْكَثْرَة الكاثرة تَحْيَا حَيَاة تئود كُلّ تَقَدُّم وَتَعُوق كُلّ نُهُوض .. بِسَبَب مِنْ اَللُّغَة.

وَانْسَ هَؤُلَاءِ وَأُمْضِ قُدُمًا فِي مَرَاحِل اَلتَّعَلُّم لِمَنْ تَهَيَّأَ لَهُمْ اَلسَّيْر فِيهَا فَإِذَا تَعْلِيم اَللُّغَة اَلْقَوْمِيَّة غَيْر مُوَفَّق وَإِذَا أَدَّبَهَا غَيْر مُحَبَّب وَإِذَا اَلنَّشْء يَذْهَب هَوَاهُ بَدَّدَا فِي آدَاب لُغَات أُخْرَى إِنْ قَرَأَهَا.. أَوْ إِذَا هُوَ لَا يَرْقَى لَهُ وِجْدَان إِذَا مَا أعوزته اَلْمُلْهَمَات اَلْفَنِّيَّة. وَمِنْ هَذَا يَكُون

اَلرُّكُود اَلْأَدَبِيّ وَتَكُون أَزْمَة اَلْفَنّ القولي فِي نَوَاحِيه اَلْفَنِّيَّة وَالْعَمَلِيَّة بِالْإِغْوَاءِ أَزْمَة وَلِلصِّحَافَةِ أَزْمَة بِالْإِغْوَاءِ أَزْمَة وَلِكَذَا وَكَيْت أَزَمَات لُغَوِيَّة كُلّهَا لَا غَيْر وَلِهَذَا وَمَا إِلَيْهِ أَشَدّ اَلْأَثَر فِي عَجْز اَلْأُمَّة عَنْ أَنْ تُرَكِّز عَوَاطِف أَفْرَادهَا وَتَجْمَع قُلُوب أَبْنَائِهَا وَتُوَجِّه هَوَاهُمْ إِلَى اَلْأَمَل اَلْمُوَحِّد وَالْمِثْل اَلْمُشْتَرَك وَالْغَد اَلْكَرِيم فَلَنْ تَسْتَطِيع شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا مَلَكَتْ زِمَام حَيَاتهمْ اَلْوِجْدَانِيَّة اَلْفَنِّيَّة.. "وَازْدِوَاج اَللُّغَة" أَشَدّ مَا يَكُون تَعْوِيقًا لَهَا عَنْ اَلظَّفَر بِشَيْء مِنْ ذَلِكَ.

وَتَنَاسَ اَلْفَنّ وَمَا تَكْبُر مِنْ أَمْره فَفِي اَلنَّاس مَنْ لَمْ يَسْتَبِين ذَلِكَ بَعْد وَحَدَّقَ فِي اَلْمَدَارِس وَالتَّعْلِيم فِيهَا أُولَئِكَ اَلْمُدَرِّسُونَ لِلْمَوَادِّ اَلْمُخْتَلِفَة لَا يُحْسِنُونَ لُغَتهمْ وَلَا يُحْسِنُونَ اَلْإِبَانَة فَهُمْ عَوَامّ فِي شَرْحهمْ وَتَلْقِينهمْ وَهُمْ أَشْبَاه عَوَامّ فِي تَأْلِيفهمْ وَعَرْضهمْ وَهُمْ لَا يُلْقُونَ لِتَلَامِيذِهِمْ وَطُلَّابهمْ حَقَائِق نَيِّرَة بَيِّنَة و لَيْسَ ذَلِكَ فَحَسْب بَلْ هُمْ يُبْرِمُونَ بِاللُّغَةِ وَيَتَأَفَّفُونَ مِمَّنْ يَرْجُو لَدَيْهِمْ بَيَانًا بِهَا أَوْ صِحَّة تَعْبِير فَإِذَا هُمْ يُرَكِّزُونَ فِي نُفُوس اَلتَّلَامِيذ كَرَاهِيَة اَللُّغَة اَلْقَوْمِيَّة. إِنْ لَمْ أَقُلْ اِحْتِقَارهَا وَهُمْ يَمْلَئُونَ اَلصُّدُور بِمَا يُخَلِّيهَا مِنْ اَلشُّعُور اَلذَّاتِيّ وَالْإِحْسَاس اَلْقَوْمِيّ وَإِذَا اَلْحَلْقَة اَلْمُفَرَّغَة تَزِيد ضَيِّقًا وَتُعَنِّف خَنْقًا وَإِذَا اَلْوَحْدَة اَلِاجْتِمَاعِيَّة تَزْدَاد تَصَدُّعًا كَلِمَات اِزْدَادَتْ اَلْأَهْوَاء تُفَرِّقًا وَالْأَمْزِجَة تَبَايُنًا - وَكُلَّمَا وَهَنَ المساك اَلْمُشْتَرَك مِنْ اَللُّغَة تَصِل اَلنُّفُوس وَتَرْبُط اَلْقُلُوب حِين نَشْكُو أَلَمهَا وَتَعْشَق أَمَلهَا وَتُوَحِّد مِثْلهَا لِإِنْ بِالْإِغْوَاءِ

اَللُّغَوِيّ أَشَدّ مَا يَكُون حَائِلًا دُون ذَلِكَ كُلّه.

وَبِحَسْبك هَذَا طَرَفًا مِنْ بَيَان. لَا يَتَّسِع اَلْمَدَى سَائِره وَهُوَ جَدّ كَافٍ لِلْقَوْلِ بِأَنَّ اَلْأَزْمَة اَللِّسَانِيَّة لَيْسَتْ إِلَّا أَزْمَة اِجْتِمَاعِيَّة وَعِلْمِيَّة تَعْلِيمِيَّة وَفَنِّيَّة حَيَوِيَّة وَهِيَ بِبَعْض ذَلِكَ خَلِيفَة بِأَنْ تَكُون ازة وَطَنِيَّة سِيَاسِيَّة تَهُزّ اَلْكِيَان اَلِاجْتِمَاعِيّ كُلّه وَهَكَذَا تَكُون قَضَايَا اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة اَلْحَدِيثَة فِي حَيَاة اَلْأُمَم اَلْعَرَبِيَّة مُشْكِلَات وَأَكْبَر مِنْ مُشْكِلَات لَوْ ساعف اَلتَّعْبِير فِي غَيْر سرف وَمَا بَذَلَتْهُ وَمَا تَبْذُلهُ تِلْكَ اَلْأُمَم فِي سَبِيلهَا وَاسْتِشْفَاء يُؤَكِّد ذَلِكَ وَيُجْلِيه كَمَا سَنَرَى.

وَتَقْدِيرنَا لِذَلِكَ كُلّه هُوَ مَا نَرْجُو أَنْ يَدْفَعنَا فِي هَذِهِ اَلْمُحَاضَرَات إِلَى المنزع اَلْعِلْمِيّ اَلْإِيجَابِيّ بَعْد اَلْمَنْهَج اَللُّغَوِيّ اَلسَّلِيم اَلْمُحَرِّر فَلْنَتَقَدَّمْ عَلَى ذِكْر مِنْ هَذِهِ اَلْأَهَمِّيَّة لِنَتَحَدَّث عَنْ مُشْكِلَات حَيَاتنَا اَللُّغَوِيَّة أَوْ قَضَايَا اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة اَلْحَدِيثَة.

خُطَّة

وَلَقَدْ يَظُنّ أَنْ أَبْدَأ بِسَرْد هَذِهِ اَلْمُشْكِلَات وَتَرْتِيبهَا. ثُمَّ تَنَاوَلَهَا وَاحِدَة وَاحِدَة فَأَقُول مَثَلًا: إِنَّ مِنْ تِلْكَ اَلْمُشْكِلَات جُمُود هَذِهِ اَللُّغَة اَلَّذِي يَحُول بَيْنهَا وَبَيْن اَلْوَفَاء بِمَطَالِب اَلْحَيَاة اَلْمُتَجَدِّدَة فَكَيْفَ تَرُدّ إِلَى اَلنَّمَاء وَمَا وَسِيلَة ذَلِكَ ثُمَّ إِنَّ مِنْ تِلْكَ اَلْمُشْكِلَات فِي طَرَائِق اِسْتِعْمَالهَا: أَنَّ أَصْوَاتهَا اَلَّتِي تُطْلِقهَا حَنَاجِر أَهْلهَا تَنْقُص بَعْض أَصْوَات لِأَصْحَاب لُغَات أُخْرَى كَالْبَاء اَلثَّقِيلَة وإلفاء اَلثَّقِيلَة وَحَرْف اَلْعِلَّة بَيْن اَلْوَاو وَالْيَاء وَالْجِيم اَلْمِصْرِيَّة وَغَيْرهَا وَهِيَ بِحَاجَة إِلَى تَلَافِي هَذَا اَلنَّقْص لِتَتَّصِل بِغَيْرِهَا مِنْ اَللُّغَات وَتَأْخُذ عَنْهَا خَيْرًا يَكُون عِنْدهَا فَكَيْفَ تَفِي بِهَذِهِ اَلْحَاجَة كَمَا أَنَّ مِنْ تِلْكَ اَلْمُشْكِلَات أَنَّ أَصْوَاتهَا قَدْ صَوَّرَتْ بِنُقُوش كِتَابِيَّة اِسْتَقَرَّتْ عَلَى طَرِيقَة صَعْبَة تَتَعَدَّد فِيهِ صُوَر اَلْحُرُوف وَتَخْتَلِف بِاخْتِلَاف مَكَانهَا مِنْ اَلْكَلِمَة فَهِيَ فِي اَلْأَوَّل بِصُورَة وَهِيَ فِي اَلْوَسَط بِأُخْرَى وَهِيَ فِي اَلْآخَر بِثَالِثَة وَهِيَ مُتَوَاصِلَة يَأْخُذ بَعْضهَا بِيَد بَعْض حِينًا وَهِيَ مُتَنَافِرَة قَدْ أَزُور بَعْضهَا عَنْ بَعْض حِينًا مِمَّا أُجْهِد اَلصَّغِير وَعُسْر اَلْقِرَاءَة وَأَمْضِ اَلطَّابَع وَكَثُرَ صَنَادِيقه فَزَادَتْ كُلْفَة اَلْكِتَاب إِلَخْ فَكَيْفَ تَصْلُح صُوَر حَرْفهَا وَهَلْ تُبْقَى هَذِهِ اَلْحُرُوف أَوْ نَسْتَعِير صُوَر حُرُوف أُخْرَى أَقَلّ تُكْثِرَا وَأَيْسَرَ تَنَاوُلًا!!

ثُمَّ إِنَّ مِنْ مُشْكِلَات هَذِهِ اَلْعَرَبِيَّة اَلْيَوْم أَنَّهَا حِين تَرْسُم كَلِمَاتهَا

اَلْمُؤَلَّفَة مِنْ تِلْكَ اَلْحُرُوف لَا يُجْرَى رَسْمِهَا عَلَى نِظَام نُطْقهَا بَلْ تُخَالِف صُورَهَا صَوْتهَا فَمِنْ ماضى اَلصَّوْت إِلَى أَعْلَى مَا يُمْضِيه اَلرَّسْم إِلَى أَسْفَل مَثَل يَسْعَى وَهُدَى وَمِنْهُ يَذْهَب مَعَ صَوْته مَثَل دَعَا وَعَصَا وَمِنْهُ مَا يَرْكَب فِيهِ حَرْف حَرْفًا كَالْهَمْزَةِ وَتَخْتَلِف رُكُوبَتهَا فَهِيَ أَلْف أَوْ وَاو أَوْ يَاء أَوْ حِينًا نَسْعَى مَاشِيَة وَحْدهَا وَغَيْر ذَلِكَ مِمَّا أُجْهِد اَلصَّغِير وَسَدّ اَلطَّرِيق أَوْ أَضْجَر اَلْكَبِير فَكَيْفَ تَعْلَم ذَلِكَ كُلّه أَوْ كَيْفَ اَلسَّبِيل إِلَى شَيْء مِنْ تَصَرُّف فِيهِ؟

ثُمَّ هَذِهِ جُمَلهَا إِذَا اِئْتَلَفَتْ مِنْ كَلِمَاتهَا تَتَغَيَّر اَلْكَلِم فِيهَا وَيُخَالِف بَعْضهَا بَعْضًا أَوْ تَخْتَلِف هِيَ عَلَى نَفْسهَا وَتَتَغَيَّر مَلَامِحهَا - فَمِنْ اَلْكَلِم ثَابِتَة لَا يُظْهِر عَلَى سِيمَاهَا شَيْء وَمِنْهَا مُتَغَيِّرَة بَلْ متواثبة تمضى صُعُودًا إِلَى أَعْلَى مَرَّة وَهُبُوطًا إِلَى أَسْفَل مَرَّة أَوْ تَذْهَب إِلَى أَمَام مُمَدَّدَة أَقْدَامهَا وَلِتِلْكَ اَلْأَوْضَاع أَوْصَاف تلقينية فِي صِيَغ تَقْلِيدِيَّة وَتَعْلِيلَات مُنْتَحِلَة أَجْهَدَتْ اَلصَّغِير وآدت اَلْكَبِير وَعَاقَتْ اَلْفَهْم فَهَلْ فِي اَلْمُسْتَطَاع أَنْ يُغَيِّر شَيْء مِنْ ذَلِكَ!! أَوَّلًا فَهَلْ يُخَفِّف حَتَّى يُوَفِّر اَلْعُمْر وَالْجُهْد وَيَبْلُغ اَلْغَايَة وَيَمُدّ اَلْحَيَاة! وَكَيْفَ؟!

وَلَا يَقِف اَلْأَمْر عِنْد هَذَا بَلْ يَلِيه مِنْ اَلْقَضَايَا أَوْ اَلْمُشْكِلَات مَا يَتَّصِل بِمِزَاج اَللُّغَة اَلْفَنِّيّ وَذَوْقهَا اَلْجَمَالِيّ وَكَيْفَ نَكْسِبهُ بَنِينَا وَكَيْفَ نُدْرِكهُ فِي أَسْلَافنَا وَهُوَ لَا يَجْرِي مَعَ مَا بِالْإِغْوَاءِ بِهِ مِنْ رُوح اَلْعَصْر فِي تِلْكَ اَلْأَرْجَاء اَلْفَنِّيَّة؟ فَكَيْفَ اَلسَّبِيل إِلَى وَصْلَة بِالْوَاقِعِ وَجَعَلَهُ شَيْئًا

يَتَمَثَّلهُ نَاشِئُونَا وَيُوَائِمُونَ بَيْنه وَبَيْن اَلذَّوْق اَلْعَامّ وَالْحِسّ اَلسَّائِد وَيُغَذُّونَ بِهِ ذَلِكَ كُلّه وَيَنِمُّونَ وَيُعَبِّرُونَ عَمَّا يَجِدُونَ مِنْهُ؟

فَهَلْ تَكُون اَلْخُطَّة أَنْ نُعِدّ اَلْمُشْكِلَات عَلَى سَبِيل اَلْإِحْصَاء وَالتَّقَصِّي - تَلَقِّيْنَا وَإِخْبَارًا ثُمَّ نَخْتَار لَهَا تَرْتِيبًا كَهَذَا اَلتَّرْتِيب اَلسَّابِق أَوْ كُسْوَة لِنَتَقَدَّم فَنَتَنَاوَلهَا بِالْقَوْلِ وَاحِدَة وَاحِدَة مُحَاوِلِينَ أَنْ نَبْلُغ مِنْ ذَلِكَ عِلَاجًا عَامِلًا فِيهِ وِقَاء وَفِيهِ شِفَاء كَانَ يُظَنّ أَنْ يُجْرَى اَلْأَمْر عَلَى هَذَا وَأَنْ تَكُون تِلْكَ هِيَ اَلْخُطَّة فِي هاتيك اَلْمُحَاضَرَات لَكِنِّي أَحْسَب أَنِّي لَوْ فَعَلْت ذَلِكَ أَكُون كَطَبِيب اَلْمُسْتَشْفَى اَلْأَمِيرِيّ فَهُوَ لَا يَتَكَلَّف فَحْصًا وَلَا اِخْتِيَارًا فَلَا يَكْشِف عِلَّة وَلَا يُحْسِن تَشْخِيصًا فَهُوَ لَا يَهْتَدِي فِي دَوَاء.

وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ وَاجِب اَلْفَحْص وَالتَّحْلِيل وَالتَّصْوِير وَالْأَشِعَّة لِنَعْرِف مَنْشَأ اَلْمُشْكِلَة وَمَكَان اَلْعُقْدَة فَيَصِحّ اَلتَّشْخِيص وَيُفِيد اَلدَّوَاء.

عَلَى مِثَال هَذَا نُرِيد أَنْ نَفْرَغ إِلَى "تَارِيخ مَرْضَى لِهَذِهِ اَلْعَرَبِيَّة "نَعْرِف فِيهِ كَيْفَ نَشَّأَهَا أَهْلهَا وَعَلَى أَيّ مَنْهَج أَقَامُوا دَرْسهَا؟ وَعَلَى أُسّ أَسَاس بَنُو قَوَاعِد عُلُومهَا وَهَلْ كَانُوا فِيمَا أَخَذُوا أَنْفُسهمْ أَسْوِيَاء رَاشِدِينَ جَارَيْنِ عَلَى مَا هَدَى اَلْبَحْث إِلَى صَوَابه؟ أَوْ : أ : وَأ عَلَى غَيْر هَذَا اَلسَّبِيل وَمَاذَا خَلَّفَتْ تِلْكَ اَلتَّرْبِيَة غَيْر اَلرَّاشِدَة مِنْ آثَار فِي بِنَاء اَللُّغَة؟ ..ثُمَّ مَا وَجْه اَلرَّأْي اَلتَّجْرِيبِيّ اَلصَّائِب فِي إِصْلَاحه؟

وَلَاشْك أَنْ هَذَا اَلتَّشْخِيص اَلْفَاحِص غَيْر اَلتَّقْلِيدِيّ وَلَا اَلتِّقْنِيّ أَهْدَى وَأَرْشَدَ فَلْنَفْزَعْ إِلَى تَحْلِيل وَتَصْوِير يُكْشَف مَعَالِمِ حَيَاة اَلْعَرَبِيَّة وَكُبْرَيَات اَلْخُطُوط فِي سَيْرِهَا وَأُمَّهَات اَلْأُصُول فِي عُلُومهَا وَمَا اَلَّذِي تُشَهِّر بِهِ مَعَارِف اَلْيَوْم وَمَنَاهِجه اَللُّغَوِيَّة حِين تَعْرِض عَلَيْهَا هَذِهِ اَلْأُسُس وَتَسْتَشِفّ تِلْكَ اَلْمَعَالِمِ وَإِذَا مَا كَشَفَتْ عَنْ نَقْص فِي ذَلِكَ أَوْ خَطَأ فَبِأَيّ شَيْء نَطِبْ لَهُ؟ وَكَيْفَ نَنْتَفِع بِمَعَارِف اَلدُّنْيَا حَوْلنَا وَتَجَارِب اَلْأُمَم قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَنَتَائِج اَلدَّرْس اَلْقَدِيم اَلْجَادّ فِي هَذَا اَلْعِلَاج.. وَإِلَيْكُمْ بَيَانًا يُمَهِّد لِهَذَا كُلّه..

عَرَضَ هَذِهِ اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة لَمْ نَتَلَقَّهَا اَلتَّلَقِّي اَلْمُبَاشِر المشافه اَلْمُمَارِس كَمَا يَتَلَقَّى اَلْوَارِث اَلرَّشِيد أَوْ اَلْكَبِير اَلسِّنّ تَرِكَة مِنْ سَلَفه كَانَ قَدْ شَارَكَهَا فِي اَلتَّدْبِير لَهَا وَالْخِبْرَة بِهَا فَإِذًا يُصْبِح صَاحِب اَلْيَد عَلَيْهَا وَالْكَلِمَة فِي تَصْرِيفهَا يُصْبِح مُطْلَق اَلْيَد بَصِيرًا بِالْأَمْرِ يَأْخُذ وَيَدَع عَنْ خِبْرَة وَيَتَصَرَّف فِي حُرِّيَّة وَطَلَاقَة وَبِنَظَر رَشِيد كُلَّا لَمْ نَتَلَقَّهَا هَذَا اَلتَّلَقِّي بَلْ تَلَقَّيْنَاهَا تِلْقَائِيًّا عِير مُبَاشِر وَلَا مشافه وَلَا مُمَارِس كَمَا يَتَلَقَّى اَلْوَارِث اَلْمَحْجُور اَلصَّغِير اَلسِّنّ تَرَكَهُ مِنْ سَلَف لَهُ مَا شَارَكَهُ قَبْل فِي أَمْرهَا وَلَا أَكْتَسِب شَيْئًا مِنْ اَلْخِبْرَة بِهَا قَبْل هَذَا اَلِانْفِرَاد فَأَصْبَحَ وَلَيْسَ هُوَ صَاحِب اَلْيَد عَلَيْهَا وَلَا اَلْكَلِمَة فِيهَا بَلْ اَلْأَمْر فِي ذَلِكَ لَوَصَّى أُقِيمَ وَوَلَّى أُنِيب فَهُوَ اَلَّذِي يُدَبِّر أَمْرهَا يُؤَجِّر وَيَبِيع وَيَشْتَرِي وَيَرْهَن وَلَنْ تَخْلُص تِلْكَ اَلتَّرِكَة إِلَى وراثها يَوْم يُرْشِد إِلَّا عَلَى

حَال عَمَل لَهُ فِيهَا وَلَا ذَنْب عَلَيْهِ فِي سُوئِهَا ثُمَّ لايد لَهُ بِإِصْلَاح أَمْرهَا فِي يُسْر وَسُهُولَة إِنَّ إِنْ حَاوَلَ تَخْلِيصهَا مِمَّا قُيِّدَتْ بِهِ أَوْ أُدِينَتْ أَوْ عُطِّلَتْ.

وَسَبَب هَذَا اَلَّذِي وَصَفْنَا مِنْ حَالنَا وَحَال هَذِهِ اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة اَلَّتِي تَلَقَّيْنَاهَا بِهَا وَتَلَقَّاهَا كَذَلِكَ عَشَرَات مِنْ اَلْأَجْيَال قَبلْنَا إِنَّمَا هُوَ سَبَب تَارِيخِيّ اِجْتِمَاعِيّ تُلَخِّصهُ سِيرَة سَابِقَة وَحَدِيث قَدِيم.

ذَلِكَ هُوَ:

أَنَّ هَذِهِ اَللُّغَة قَدْ عَاشَتْ فِي مَهْدهَا مِنْ اَلْجَزِيرَة اَلْعَرَبِيَّة مَا عَاشَتْ مِنْ اَلزَّمَن وَشَمَلَهَا جَمِيع فِي عِزَّة مِنْ أَهْلهَا حَتَّى كَانَتْ الخرجة اَلْكُبْرَى وَالْهِجْرَة اَلْبَعِيدَة اَلْمَدَى اَلَّتِي دفَعَهُمْ إِلَيْهَا اَلْإِسْلَام إِذَا دَعَاهُمْ إِلَى نَشْر دَعْوَته وَنَدْبهمْ لِإِقَامَة دَوْلَته فَخَرَجَتْ اَللُّغَة مَعَ آلَاف أَهْلهَا اَلَّذِينَ خَرَجُوا إِلَى اَلْمَشْرِق اَلْقَدِيم وَأَقْصَى اَلْمغْرِب اَلْمَعْرُوف فَتفَرَّقَتْ مَعَهُمْ اَللُّغَة أوزاعا وَمَزَّقَا فَمَا كَانُوا وَكَانَتْ حَيْثُ هُمْ وَهِيَ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ أَوْ اَلشَّعَرَات اَلْبَيْضَاء فِي اَلثَّوْر اَلْأَسْوَد وَكَأَنَّمَا ذَوَّبُوا فِي هَذِهِ اَلدِّمَاء وَالْأَلْسِنَة وَالْأَجْنَاس اَلَّتِي خَالَطُوهَا مِنْ أَسْوَد وَأَحْمَر وَأَصْفَر.. وَجَعَلَتْ هَذِهِ اَلْعَرَبِيَّة تَتَفَاعَل مَعَ مَا خَالَطَتْ مِنْ لُغَات فَلَا تُعْطِي فَقَطْ بَلْ كَانَتْ تَأْخُذ كَذَلِكَ سِنَة اَلْحَيَاة فِي اَللُّغَات وَالْحَضَارَات اَلْغَالِبَة وَالْمَغْلُوبَة.

وَكَانَ يُسَانِدهَا فِي ذَلِكَ اَلصِّرَاع حِينًا مِنْ اَلدَّهْر سُلْطَان دُون

دَوْلَة قَوِيَّة وَإِمْبِرَاطُورِيَّة وَاسِعَة مُوَحَّدَة أَوْ كَالْوَحْدَةِ دَهْرًا فَلَمَّا اِنْحَلَّتْ عُقْدَة اِتِّحَادهَا وَتَوَزَّعَتْهَا دولات مُخْتَلِفَة اَلْمَنَعَة مِنْهَا عَرَبِيَّة وَمِنْهَا غَيْر عَرَبِيَّة ظَلَّ يُسَانِدهَا اَلْإِسْلَام بِقُوَّتِهِ اَلْمَعْنَوِيَّة دَهْرًا طَوِيلًا فِي كُلّ مَكَان حَتَّى اَلْيَوْم لِأَنَّهَا لُغَة كِتَابِيَّة وَلِسَان ثَقَافَته وَالسَّبِيل اَلْوَحِيد لِمَعْرِفَتِهِ.

وَغَالَبَتْ اَلْعَرَبِيَّة هُنَا وَهُنَاكَ وَهُنَا لَك وَفِي هَذَا الغلاب اَلطَّوِيل وَالصِّرَاع اَلْمَرِير اِنْتَهَى بِهَا اَلْأَمْر حِينًا إِلَى ظَفَر وَاسْتِقْرَار هُنَا وَهُنَاكَ وَحِينًا اِنْتَهَى أَمْرهَا إِلَى هَزِيمَة وَتَقَهْقُر هُنَا وَهُنَالِكَ فَخَرَجَتْ مِنْ أَسْبَانْيَا مَثَلًا وَكَادَتْ تَخْرُج مِنْ إِيرَان وَتُرْكِيَا وَمَا اِحْتَلَّتْهُ مِنْ أَقَاصِي اَلشَّرْق فِي آسْيَا مِمَّا صَارَ اَلْآن مِنْ اَلْجُمْهُورِيَّات اَلسُّوفْيِتِيَّة..

وَهَذَا اَلتَّذْوِيب فِي اَلْمَزْج اَلَّذِي صَادَفَهُ أَهْلهَا فِي اَلْوَاسِع اَلْفَسِيح مِنْ أَقْطَار اَلْأَرْض وَبَيْن اَلْمَلَايِين مِنْ اَلدِّمَاء اَلْمُخْتَلِفَة حَرًّى بِأَنْ يُخَفِّف مِنْ كَثَافَة مَادَّتهَا وَقُوَّة تَمَاسُكهَا وَيُخَلْخِل نَسِيجهَا مُنْذُ اَللَّحْظَة اَلْأُولَى اَلَّتِي بَدَأَ فِيهَا فَيَدْخُل عَلَيْهَا اَلضَّعْف وَالْوَهْن فِي صَوْغهَا وَتَرْكِيبهَا وَبَيَانهَا إِذَا تَفْعَل بِهَا اَلْأَلْسُن مَا تَفْعَل دَائِمًا بِاللُّغَةِ وَلَا مَفرّ مِنْ وُقُوعه عَلَى مَا تَقَرَّرَ سَنَة اَلْوُجُود فَبَدَأَ فِيهَا مُنْذُ أَوَّل اَلدَّهْر وَبَدْء اَلْجَوْلَة اَلْإِسْلَامِيَّة اَلْمُهَاجِرَة تَغَيُّر عَاجِل وَاضِح وَكَانَ تَطَوُّر مُسْتَقِرّ مُتَّصِل.

وَلَمْ يَغْفُل أَهْلهَا مُنْذُ أَوَّل اَلْأَمْر عَنْ هَذَا اَلْأَثَر بَلْ هَالَهُمْ أَمْره وَلِعِنَايَة بِعَقِيدَتهمْ أَوْ عِنَايَة بِقَوْمِيَّتِهِمْ أَوْ لِشَيْء مِنْ اَلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا هَبُّوا يُحَاوِلُونَ أَنْ يَحْفَظُوا عَلَى اَلْعَرَبِيَّة تَمَاسُكهَا ويوقوها اَلتَّخَلْخُل وَالتَّحَلُّل

لِيَظَلّ لَهَا مِنْ اَلْقِوَام مَا تُهْدَى بِهِ إِلَى مُرَاد اَلدَّيْن وَغَرَض اَلْقُرْآن وَمَقْصِد اَلْمُشَرّعِ وكا إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَهْدَاف تِلْكَ اَلرّسَالَة اَلَّتِي اِضْطَلَعَ أُولَئِكَ اَلْعَرَب بِإِبْلَاغِهَا وَنَشْرِهَا.

جَدُّوا لِيَخْلُصُوا جَوْهَر اَلْعَرَبِيَّة وَيَصِفُوا مَعْدِنَهَا وَرَأَوْا أَنَّ اِلْتِمَاس ذَلِكَ لَا يَكُون إِلَّا عِنْد مَنْ بَقِيَ مِنْ أَهْلهَا بِمَوْطِنِهَا فَلَا سَبِيل إِلَى شَيْء مِنْ هَذِهِ اَلسَّلَامَة عِنْد مَنْ ديف بِالْعُجْمَةِ وَذَوَّبَ فِي اَلِاخْتِلَاط إِلَّا أَنْ يَكُون شَيْء يَسِير لَا يُقَاس بِمَا عِنْد اَلْخُلَّص اَلَّذِينَ عَلَى فِطْرَتهمْ فَبَذَلُوا اَلْجُهْد فِي طَلَب اَلْمَحْفُوظ مِنْ اَلْعَرَبِيَّة فِي جَزِيرَتهَا.

وَجَمَعُوا مَا شَاءَ اَللَّه وَشَاءَ لَهُمْ اَلنَّشَاط اَلْجَادّ أَنْ يَجْمَعُوا وَأَيْقَنُوا فِي اَلْوَقْت نَفْسه أَنَّ مَا ضَاعَ عَلَيْهِمْ وَأَفْلَتَ مِنْ يَدهمْ كَثِير بَعْد مَا أَمْسَكُوا وَحَفِظُوا وَلَكِنْ لَا حِيلَة.

خَرَجُوا إِلَى اَلْبَادِيَة حَيْثُ اَلْبَقِيَّة اَلْبَاقِيَة مِنْ خَالِص اَلْعَرَبِيَّة أَوْ قَدَّمَ عَلَيْهِمْ مِنْ تِلْكَ اَلْبَادِيَة أَوْ اِسْتَقْدَمُوا هُمْ إِلَى حواضرهم مِنْ أَهْلهَا مَنْ اِسْتَقْدَمُوا لِيُقَدِّمُوا لَهُمْ مَا عِنْدهمْ وَلِيَتَلَقَّوْا مِنْهُمْ بِالْمُمَارَسَةِ اَلْمُشَافَهَة اَلَّتِي هِيَ طَبِيعَة اَلْأَمْر فِي تَلْقِين اَللُّغَات وَأَقْرَب اَلطُّرُق وَأُسَلِّمهَا فِي كَسْب اَللُّغَة اَلْحَيَّة.

وَمَا كَانَ ذَلِكَ اَلتَّلَقِّي بِالْمُمَارَسَةِ لِيَدُومَ أَجْيَالًا طِوَالًا فَمَا لَبِثَ اَلْبَاقُونَ بِالْبَادِيَةِ أَنَّ تَغَيُّر حَالهمْ وَمَا لَبِثَ اَلْقَادِمُونَ إِلَى اَلْحَاضِرَة أَنْ لِأَنَّ جِلْدهمْ كَمَا قَالُوا مَا يَحْكُونَ مِنْ نَادِر لَاحَكَم لَهُ عَنْ أَهْل حَيَّيْنِ بِالْيَمَنِ

ظَلُّوا بَاقِينَ عَلَى اَللُّغَة اَلْفُصْحَى مِنْ اَلجَاهِلِيَّة حَتَّى مَطْلَع اَلْقَرْن اَلثَّالِث عَشَر اَلهِجْرِيّ لَمْ يَخْتَلِطُوا بِغَيْرِهِمْ مِنْ اَلحَاضِرَة فِي مُصَاهَرَة وَلَا يَسْمَحُونَ لِغَيْرِهِمْ أَنْ يُقِيم عِنْدهمْ أَكْثَر مِنْ ثَلَاث لَيَالٍ خَوْفًا عَلَى لِسَانهمْ وَهُمْ أَهْل قَرَار لَا بِالْإِغْوَاءِ عَنْ مَنَازِلهمْ وَلَا يَخْرُجُونَ مِنْهُ وَمَنْ يَدْرِي!

وَلِمَا عَزَتْ اَلْمُمَارَسَة اَللُّغَوِيَّة وَالتَّلَقِّي اَلْمُبَاشِر عَنْ مُشَافَهَة فَزِعُوا إِلَى اَلطَّرِيقَة اَلثَّانِيَة وَهِيَ اَلْمُدَارَسَة وَكَسْب اَللُّغَة بِالتَّعَلُّمِ وَهِيَ طَرِيقَة تَحْتَاج إِلَى اَلْقَوَاعِد وَالْأُصُول وَالضَّوَابِط وَالْأُسُس اَلَّتِي يُرَاض بِهَا مُتَعَلِّم اَللُّغَة فَذَهَبُوا يَلْتَمِسُونَ هَذِهِ اَلخَصَائِص وَالْمَعَالِمِ اَللُّغَوِيَّة وَالْقَوَانِين اَلتَّعْلِيمِيَّة بِالْإِغْوَاءِ مِنْ مَجْمُوعهمْ فِي اَللُّغَة مَا اِسْتَقْرَءُوا وَاقْتَبَسُوا مِمَّا حَوْلهمْ مَا اِقْتَبَسُوا حَتَّى قَرَّرُوا مِنْ أُصُولهَا مَا قَرَّرُوا وَأَلَّفُوا فِي ذَلِكَ وَتَدَرُّج اَلتَّأْلِيف وَتَطَوُّر وَاتَّسَعَ وَنَضِجَ بَلْ اِحْتَرَقَ بَعْضه بَعْد اَلنُّضْج كَالنَّحْوِ فَكَانَ لَهُمْ اَلْمَتْن وَشَرْحه وَالحَاشِيَة عَلَى اَلشَّرْح وَالتَّقْرِير وَكَانَ عِلْم اَلْعَرَبِيَّة أَوْ عُلُومهَا اَلْمُخْتَلِفَة اَلْعَدَد عَلَى اَلزَّمَن..

وَفِي هَذِهِ اَلْمُقَرَّرَات وَمِنْ تِلْكَ اَلْقَوَاعِد نَلْتَمِس مَوَاطِن اَلدَّاء وَمَوَاضِع اَلْوَهَن إِذَا مَا فَحَصْنَا تِلْكَ اَلْعُلُوم وَاخْتَبَرْنَا تِلْكَ اَلْمُقَرَّرَات لِأَنَّهَا هِيَ سِجِلَّات اَلِالْتِزَامَات وَالتَّصَرُّفَات اَلَّتِي أُحْدِثهَا ذَلِكَ اَلْقَيِّم خِلَال اَلدَّهْر اَلطَّوِيل فَقَيْد اَلتَّرِكَة وَأُسَلِّمهَا إِلَى الخالفين مُثْقَلَة بِمَا تَمَّ وَتَنَاقَلُوهَا جِيلًا بَعْد جِيل عَلَى هَذِهِ اَلحَال وَمَعَ تِلْكَ اَلْمُقَرَّرَات لِأَنَّهَا هِيَ سِجِلَّات اَلِالْتِزَامَات وَالتَّصَرُّفَات اَلَّتِي أُحْدِثهَا ذَلِكَ اَلْقَيِّم خِلَال

اَلدَّهْر اَلطَّوِيل فَقَيْد اَلتَّرِكَة وَأُسَلِّمهَا إِلَى الخالفين مُثْقَلَة بِمَا تَمَّ وَتَنَاقَلُوهَا جِيلًا بَعْد جِيل عَلَى هَذِهِ اَلْحَال وَمَعَ تِلْكَ اَلْقُيُود وَالِارْتِبَاطَات اَلَّتِي مَهْمَا تَفْتَرِض فِيهَا حَسَن اَلنِّيَّة وَطَلَب اَلْمَنْفَعَة فَإِنَّك لَنْ تَضْمَن تَحَقُّق ذَلِكَ دَائِمًا لِأَنَّ اَلْمُسْتَوَى اَلْعَقْلِيّ وَالْحَيَاة اَلْفِكْرِيَّة وَالْخِبْرَة اَلْعِلْمِيَّة لِأُولَئِكَ اَلْقِوَام اَلْمُتَصَرِّفِينَ لَمْ تَكُنْ لِتَسْبِق زَمَنهمْ وَتَتَقَدَّم دَهْرهمْ بِالْإِغْوَاءِ وَحْده لَا يَكْفِي فِي هَذَا وَلَا يُغْنِي وَلَمْ يَكُنْ فِي اَلْإِمْكَان أَبْدَع مِمَّا كَانَ.

فِي هَذِهِ اَلتَّصَرُّفَات وَمِنْ تِلْكَ اَلسِّجِلَّات اَلَّتِي هِيَ مُقَرَّرَات عُلُوم اَلْعَرَبِيَّة مِنْ لُغَة وَوَضْع وَاشْتِقَاق وَصَرْف وَنَحْو... إِلَخْ يَتَلَخَّص التاريه اَلْحَيَوِيّ والواقه مِنْ صُمُود وَجُمُود فِي هَيْكَل اَللُّغَة أَوْ نَقْص ومالم نَذْكُر فِي أَصْوَاتهَا أَوْ عَنَاء يُحْدِثهُ تَصْوِير تِلْكَ اَلْأَصْوَات أَوْ.. الخ مَا ذَكَرْنَا وَمَا لَمْ نَذْكُر اَلْآن.. مِنْ نَقْص يَحْتَاج إِلَى اِسْتِكْمَال أَوْ زَوَائِد تَحْتَاج إِلَى اِسْتِئْصَال أَوْ ضَعْف تَعُوزهُ مُقَوِّيَات.

فَلْنُعَرِّضْ هَذِهِ اَلْمُقَرَّرَات لِلتَّحْلِيلِ فِي مخابر اَلْمَنَاهِج اَللُّغَوِيَّة اَلْمُحْدَثَة اَلْمُدَعَّمَة بِمَا بَلَّغَ اَلْإِنْسَان مِنْ ثَقَافَة عِلْمِيَّة تَجْرِيبِيَّة بِعَامَّة وَثَقَافِيَّة لُغَوِيَّة بِخَاصَّة وَفِي ضَوْء اَلْأَشِعَّة اَلنَّافِذَة مِنْ هَذِهِ اَلْمَعْرِفَة اَلْإِنْسَانِيَّة اَلطَّلِيقَة نَسْتَطِيع تَشْخِيص مُشْكِلَات حَيَاتنَا اَللُّغَوِيَّة.

وَلَكِنْ مِنْ هَلْ تَتَقَدَّم لِلْقِيَامِ بِمَا يُسْتَطَاع مِنْ ذَلِكَ اَلتَّحْلِيل وَالْكَشْف لِنَتَبَيَّن مَا اِسْتَطَعْنَا شَوَاهِد اَلتَّغَيُّر وَظَوَاهِر اَلِانْحِرَاف؟ هَلْ مَا

يَنْبَغِي بِلَا شَكّ وَالْخُطَّة اَلرَّشِيدَة عَلَى مَا قَدَّمْنَا تُمْلِيه وَتَلْزَم بِهِ؟ فَمَا هَذَا اَلسُّؤَال وَفِيهِمْ اَلِاسْتِفْهَام؟

أَلَّا أَنَّمَا أَجْرَيْت اَلْأُسْلُوب هَكَذَا أَلَّا لَفْتك إِلَى أَنَّ هُنَاكَ تَشْخِيصًا سَابِقًا وَتَذَاكِر أُخْرَى مُحَرَّرَة وَفِي مِثْل هَذَا تَقْضِي اَلْخُطَّة اَلْحَازِمَة أَنْ نَسْتَفِيد مَا أَمْكَنَتْ اَلِاسْتِفَادَة مِنْ اَلتَّشْخِيص اَلسَّابِق وَالتَّقَارِير اَلْأَوْلَى وَالرُّسُوم اَلسَّابِقَة وَإِلَّا كُنَّا بِالْإِغْوَاءِ غَيْر مُنْصِفِينَ وَهُوَ مَا لَا نُرِيدهُ لِأَنْفُسِنَا وَلَا نَرْضَاهُ فَلْنَنْظُرْ فِيمَا بَيْن يَدَيْنَا مِنْ: تَشْخِيص سَابِق قَامَ بِهِ بِالْإِغْوَاءِ كِبَار مُتَفَرِّدُونَ لِذَلِكَ قَدْ مَنَحَتْهُمْ اَلدَّوْلَة سُلْطَانًا وَتَأْيِيدًا حِين قَوِيَ شُعُورهَا بِحَاجَة هَذِهِ اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة إِلَى اَلْمُحَافَظَة عَلَى سَلَامَتهَا وَجَعْلهَا وَافِيَة بِمَطَالِب اَلْعُلُوم وَالْفُنُون فِي تَقْدِيمهَا وَمُلَائِمَة لِحَاجَات اَلْحَيَاة فِي اَلْعَصْر اَلْحَاضِر فَأَنْشَأَتْ مُنْذُ أَكْثَر مِنْ عِشْرِينَ عَامًا اَلْمَجْمَع اَللُّغَوِيّ وَكَمَا يَقُول أَحَد أَعْضَائِهِ هُوَ وَحْدَة اَلسُّلْطَة اَلتَّشْرِيعِيَّة اَلْعُلْيَا لِلُّغَةِ اَلْعَرَبِيَّة فَلَابُدَّ فِي أَنْ نَعْتَبِرهُ مَعْهَد اَلْبَحْث اَلدَّقِيق وَيُحَاوِل اَلِانْتِفَاع بِتَقَارِيرِهِ فِي حَال تِلْكَ اَلْعَرَبِيَّة وَعُقَد حَيَاتهَا.

وَقَدْ نَظَرَ أَعْضَاؤُهُ فِي شَيْء مِنْ خُطُوَات ذَلِكَ اَلتَّارِيخ اَلَّذِي أَجْمَلْنَاهُ سَابِقًا وَتَبَيَّنُوا مَوَاضِع اَلْوَهَن فِيهَا وَأَلْقَوْا بِآرَائِهِمْ إِلَى سَائِر زُمَلَائِهِمْ فَقَبِلُوا مَا قَبِلُوا مِنْهَا وَنَاقَشُوا أَحْيَانًا بَعْضهَا وَبِمَا صَارَتْ هَذِهِ اَلْحَقَائِق مَوْضِع اَلِاتِّفَاق بَيْن اَلْهَيْئَة اَلتَّشْرِيعِيَّة فِي اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة سَأَعْرِضُ عَلَيْكُمْ هَذِهِ اَلتَّقَارِير إِلَى مَكَانهَا فِي مَجَلَّة مَجْمَع اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة غَيْر معزو فِيهَا اَلْقَوْل إِلَى شَخْص، لِأَنَّهُ مَقُول اَلْجَمِيع.

وَإِلَيْك بَعْض هَذِهِ اَلتَّقَارِير قَبْل قَوْلنَا نَحْنُ فِي شَيْء وَنَبْدَأ بِعَرْض فَحْصهمْ لِعَمَلِيَّة جَمْع اَللُّغَة قَدِيمًا لِأَنَّ هَذَا اَلْجَمْع أَسَاس لِكُلّ دِرَاسَة وَقَدْ قِيلَ فِي نَقْد هَذَا اَلْجَمْع أَكْثَر مِنْ مَرَّة قَصْدًا عَلَى نَحْو مَا نَرَاهُ فِي مَجَلَّة اَلْمُجَمَّع - اَلْعَدَد اَلسَّادِس ص ٧٨ وَمَا بَعْدهَا وَالْعَدَد اَلتَّاسِع ص٧٣ وَمَا بَعْدهَا عَدَا مُتَفَرِّقَات مَسُّوا فِيهَا مَوْضُوع جَمْع اَللُّغَة عَرْضًا وَتَبَعًا.. وَكَانَ نَقْدهمْ لِجَمْع اَلْأَوَّلِينَ لِلُّغَةِ بِأَشْيَاء مِثْل:

١ - بُدَائِيَّة عَمَلهمْ فِي اَلْجَمْع وَنَصّ اَلْعِبَارَة فِيهِ "إِنَّمَا كَانَ عَمَلهمْ فِي اَلْجَمْع بُدَائِيًّا غَيْر مُنَظَّم مِنْهُمْ مَنْ يَلْتَقِطُونَ مَا يَسْمَعُونَ مِنْ اَلْأَلْفَاظ وَيُدَوِّنُونَهَا وَعَيْب هَذِهِ اَلطَّرِيقَة أَنَّهُمْ لَمْ يَنُصُّوا فِي اَلْأَعَمّ عَلَى اَلْقَبِيلَة اَلْوَاحِدَة اَلَّتِي جَمَعُوا مِنْهَا أَلْفَاظهمْ بَلْ يَهْتَمُّونَ بِالْكَلِمَةِ اَلَّتِي سَمِعُوهَا وَيُدَوِّنُونَهَا حَيْثُمَا اِتَّفَقَ وَلِذَلِكَ نَرَى نَقْصًا كَبِيرًا فِي هَذَا اَلْجَمْع فَأَحْيَانًا نَجِد مَصْدَرًا وَلَا نَجْد فِعْلًا وَأَحْيَانًا نَجِد مُفْرَدًا وَلَا نَجِد مثناه وَلَا جَمْعه وَأَحْيَانًا نَجِد اَلْجَمْع وَلَا نَجِد اَلْمُفْرَد وَهَكَذَا.

وَيُقَابِلُونَ بَيْن جَمْع أَسْلَافنَا وَمَا يَفْعَلهُ اَلْعَصْرِيُّونَ اَلْآن فَيَقُولُونَ: "وَالْمَدَنِيُّونَ اَلْآن يُؤَلِّفُونَ اَلْجَمْعِيَّات وَيُعِدُّونَ اَلْخَرَائِط وَالِاسْتِمَارَات وَيُحَدِّدُونَ اَلْأَسْئِلَة اَلَّتِي يُرِيدُونَهَا .. فَيَسْأَلُونَ مَثَلًا: مَا تَقُول بِلَادكُمْ فِي كَيْفَ حَالك وَيَسْتَخْرِجُونَ مِنْ ذَلِكَ اَلدَّلَائِل اَللُّغَوِيَّة وَالِاجْتِمَاعِيَّة وَيَرْسُمُونَ اَلْخَرَائِط وَفْقًا لِهَذِهِ اَلِاسْتِنْتَاجَات فَتَكُون هَذِهِ اَلْعَمَلِيَّة عَمَلِيَّة عِلْمِيَّة.

وَلَعَلَّك تَقُول فِي اَلتَّعْقِيب عَلَى هَذَا اَلنَّقْد لِعَمَل اَلْأَوَّلِينَ: إِنَّهُ تَعُوزهُ رُوح اَلْجِدّ لِأَنَّ طَبِيعَة اَلْحَيَاة لَمْ تَكُنْ تَحْتَمِل ظُهُور هَذِهِ اَلطَّرِيقَة اَلْعَمَلِيَّة اَلْعِلْمِيَّة إِلَّا فِي هَذَا اَلْعَصْر بَعْد أَنْ تَهَيَّأَتْ لَهَا اَلْأَسْبَاب وَلَا ذَنْب لِهَؤُلَاءِ اَلْأَوَّلِينَ فِي أَنَّهُمْ عَاشُوا مُنْذُ بِضْعَة عَشَر قَرْنًا وَعَاشُوا فِي أَزْمَة اِجْتِمَاعِيَّة لُغَوِيَّة هَدَّدَتْ اَلْعَرَبِيَّة فَسَارَعُوا إِلَى جَمْعهَا كَمَا أَمْكَنَ وَكَمَا لَمْ يَكُنْ يُمْكِن سِوَاهُ - بِجُهْد مَشْكُور وَقَدْره اَلنَّاقِدُونَ قَبْل تَقَدُّمهم بِهَذَا اَلنَّقْد المتبغدد. وَمَنْ نَقْدهُمْ اَلْيَوْم لِلْجَمِيعِ أَيْضًا:

٢ - نَقْد بَرْنَامَجِهِمْ فِي اَلْجَمْع.. وَقَدْ هَذَا يَقُولُونَ "وَكَانَ بَرْنَامَجهمْ أَلَّا يَأْخُذُوا عَنْ حَضَرِيّ قَطُّ.. وَلَا مِمَّنْ خَالَطَ الحطر، وَمِنْ أَهْل اَلتُّخُوم، وَكُلَّمَا أَمْعَنَتْ اَلْقَبِيلَة فِي اَلْبَدَاوَة كَانَتْ أَوْلَى بِالنَّقْلِ عَنْهَا كَقَيْس وَتَمِيم وَأَسَد، ثُمَّ هذيل وَبَعْض كِنَانَة وَبَعْض اَلطَّائِيِّينَ" وَلَكِنْ مَوْضِع اَلْخَطَأ فِيهِمْ أَنَّهُمْ قَرَّرُوا أَنَّ اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة لَيْسَتْ إِلَّا هَذَا اَلَّذِي جَمَعُوهُ وَكَانَتْ اَلنَّتِيجَة اَلطَّبِيعِيَّة لِهَذِهِ اَلنَّظْرَة أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَلَّا يَسْتَعْمِل اَلنَّاس أَيَّام اَلدَّوْلَة اَلْعَبَّاسِيَّة اَلْبَالِغَة مَبْلَغًا عَظِيمًا مِنْ اَلْحَضَارَة إِلَّا مَا كَانَ يَسْتَعْمِلهُ هَؤُلَاءِ اَلْبَدْو فِي مَعِيشَتهمْ اَلْبَدَوِيَّة، وَمُحَال ذَلِكَ لِهَذَا رَأَيْنَا اَللُّغَة غَنِيَّة عَنَى مُفْرِطًا فِي أَدَوَات اَلْبَدْو، وَمَعِيشَة اَلْبَدْو وَفَقِيرَة جِدًّا فِي حَاجَات اَلْمَدِينَة، وَلِهَذَا اِضْطَرُّوهُمْ أَوْ غَيْرهمْ بِجَانِب عَمَلهمْ هَذَا إِلَى اَلتَّعْرِيب بَعْد أَنْ أَعْرَضُوا نُزُولًا عَلَى حُكْم اَلطَّبِيعَة وَتَطَوُّر اَلْعُمْرَان وَخَلَطُوا مَا أَخَذُوا عَنْ اَلْقَبَائِل بِمَا عَرَّبُوهُ عَنْ اَلْأُمَم اَلْمُتَمَدِّنَة فَأَضَاعُوا بِذَلِكَ

اَلْقَاعِدَة اَلْأُولَى اَلَّتِي رَسَمُوهَا لِأَنْفُسِهِمْ وَهِيَ اَلْأَخْذ عَنْ اَلْعَرَب اَلْخُلَّص فَقَطْ وَلَوْ كَانُوا أَدْرَكُوا هَذِهِ اَلنَّتِيجَة لسمحوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ أَوَّل اَلْأَمْر بِالْأَخْذِ عَنْ اَلْقَبَائِل اَلَّتِي اِخْتَلَطَتْ بِالْعَجَمِ فَهُمْ عَلَى اَلْأَقَلّ أَوْلَى مِنْ اَلْعَجَم اَلصَّرْف اَلَّذِينَ عَرَّبُوا عَنْهُمْ.

وَقَدْ يُورِدُونَ هَذَا اَلنَّقْد فِي عِبَارَة أُخْرَى مُلَخَّصَة لَا بَأْس بِأَنْ تَسْمَعهَا وَهِيَ:

"وَتَحَرَّجُوا - أَيْ اَلْجَامِعُونَ لِلُّغَةِ - مِنْ أَنْ يَأْخُذُوا اَللُّغَة عَمَّنْ جَاوَرَ اَلْحَضَر مِنْ قَبَائِل اَلْعَرَب سذا كَانَتْ وُجْهَة نَظَرهمْ أَنْ يَأْخُذُوا اَللُّغَة مِمَّنْ صَفَّتْ لُغَتهمْ وَبَعُدَتْ عَنْ اَلدَّخِيل وَكَانَتْ أَمَامهمْ وُجْهَة نَظَر أُخْرَى مُحْتَرَمَة أَيْضًا وَهِيَ أَنْ يَأْخُذُوا مِمَّنْ اِخْتَلَطَ بِالْحَضَرِ فَإِنَّ لُغَتهمْ أَوْسَع وَأَلْفَاظهَا قَدْ رَقَّقَتْهَا اَلْحَضَارَة.

فَهَلْ حَقًّا تَرَى هَاتَيْنِ اَلْوُجْهَتَيْنِ للنظد مُحْتَرَمَتَيْنِ فِي سَبِيل اَلْغَرَض اَلَّذِي مِنْ أَجْله كَانَ هَؤُلَاءِ اَلْأَوَّلُونَ يَجْمَعُونَ اَلْعَرَبِيَّة وَهُوَ تَدَارُكهَا فِي أَلْسِنَة اَلْخُلَّص قَبْل أَنْ تُغَيِّرهَا اَلْحَضَارَة بِتَرْقِيق وَسِعَة! !إِنَّهُمْ كَانُوا يَجْمَعُونَهَا لِيُجَنِّبُوهَا هَذَا اَلتَّرْقِيق وَالتَّوْسِيع ثُمَّ لَا عَلَيْهِمْ بَعْد ذَلِكَ أَنْ يُعْرِبُوا هُمْ أَوْ غَيْرهمْ فَيُقَدِّمُوا لِلْحَيَاةِ حَاجَاتهَا وَيَضِيقُوا إِلَى جَانِب اَلْفَصِيح اَلْأَصِيل اَلَّذِي حَفِظَ جَوْهَر اَلْعَرَبِيَّة وَرُوحهَا مَا عَرَّبُوهُ هُمْ فَأَكْسَبُوا تِلْكَ اَلرُّوح اَلْعَرَبِيَّة وَأَعْطَوْهُ اَلصُّورَة اَلْعَرَبِيَّة بَعْد مَا عَرَفُوا هَذَا كُلّهمْ وَاسْتَشَفُّوهُ مِمَّا جَمَعُوا مِنْ خَالِص اَلْعَرَبِيَّة فِي لِسَان خُلَّص أَهْلهَا!!

وَهُمْ لَمْ يُضَيّعُوا بِهَذَا اَلتَّعْرِيب وَلَا يَجْمَع اَلْأَلْفَاظ اَلْجدِيدَة قَاعِدَتَهمْ اَلْأُولَى اَلَّتِي رَسَمُوهَا لِأَنْفُسِهِمْ قَطُّ بَلْ لَوْ أَخَذُوا مِنْ أَوَّل اَلْأَمْر عَنْ اَلْقَبَائِل اَلَّتِي اِخْتَلَطَتْ بِالْعَجَمِ لِأَنَّهُمْ عَلَى اَلْأَقَلّ أُولَى مِنْ اَلْعَجَم اَلصَّرْف اَلَّذِينَ عَرَّبُوا عَنْهُمْ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لأضاعوا جَوْهَر اَلْعَرَبِيَّة وَطَابَعهَا اَلَّذِي يَبْغُونَ اَلِاحْتِفَاظ بِهِ لِاعْتِبَارَات دِينِيَّة وَاجْتِمَاعِيَّة!!

إِذَا سَيَكُونُ مَا جَمَعُوهُ مِنْ هَذَا اَلْخَلِيط لَيْسَ هُوَ اَلْعَرَبِيَّة اَلَّتِي عَرَّفَهَا شِعْرهمْ اَلْمَأْثُور وَفَنّهمْ اَلْمُوحِي.

وَشَيْء أَقْرَب مِنْ هَذَا هُوَ أَنَّ اَلتَّعْرِيب عَنْ اَلْعَجَم اَلصَّرْف إِنَّمَا يَقُوم عَلَى أَسَاس هُوَ إِكْسَاب كَلَمّ اَلْعَجَم رُوح اَلْعَرَبِيَّة وَحِسّهَا اَللُّغَوِيّ وَصُورَتهَا اَللَّفْظِيَّة وَهَذَا اَلتَّعْرِيب لَا يُخْلَط بَيْن عَرَبِيّ وَغَيْر عَرَبِيّ بَلْ يَصْبُغ غَيْر اَلْعَرَبِيّ بِصِبْغَة اَلْعَرَبِيّ اَلَّذِي تَمَيَّزَ وَصِين فِيمَا جَمَعَ وَحَفِظَ بِفَضْل اَلْقَاعِدَة اَلْأُولَى وَهِيَ اَلْأَخْذ عَنْ اَلْعَرَب اَلْخُلَّص فَقَطْ وَأَيْنَ وَضْع المرب عَلَى هُدَى هَذِهِ اَلْقَاعِدَة مِنْ اَلْعَمَل اَلْخَلِيط اَلْمُشَوَّه مِنْ عَرَبِيّ وَغَيْر عَرَبِيّ! !وَهَلْ كَانُوا يُعْرِبُونَ قَبْل أَنْ يُعَرِّفُوا طَابَع اَلْعَرَبِيَّة اَلصَّمِيم اَلَّذِي يُرِيدُونَ إِضْفَاءَهُ عَلَى اَلْكَلِم اَلْأَجْنَبِيَّة!

لَقَدْ كَانَ اَلْقَوْم أَيْقَاظًا لِمَا يَفْعَلُونَ وَقَدْ بَيَّنُوهُ وَأَوْضَحُوا بِمِثْل مَا قَالَ "اِبْن جِنِّيّ" فِي اَلْخَصَائِص عَنْ تَرْك اَلْأَخْذ عَنْ أَهْل المدركا كَمَا أَخَذَ عَنْ أَهْل اَلْوَبَر وَزَادَهُ إِيضَاحًا بِقَوْلِهِ فِي مَوْضِع آخَر مِنْ كِتَابه هَذَا إِنَّ أَهْل اَلْحَضَر يَتَظَاهَرُونَ بَيْنهمْ بِأَنَّهُمْ تَرَكُوا وَخَالَفُوا كَلَام مَنْ يَنْتَسِب

إِلَى اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة اَلْفَصِيحَة فَهُمْ يَخْلُونَ بِالْفَصِيحَةِ عَنْ قَصْد وَعَمْد وَمَعَ مِثْل هَذِهِ اَلْحَال لَا يَعْمِد اَلْقَاصِدُونَ لِلظَّفَرِ بِجَوْهَر اَلْعَرَبِيَّة إِلَى مَوَاطِن اَلْحَضَارَة اَلْوَاسِعَة لِلُّغَةِ اَلرَّقِيقَة اَلْعِبَارَة لِيَأْخُذُوا عَنْهَا اَلْعَرَبِيَّة!!

وَسَوَاء أَسْلَمَتْ بِهَذَا اَلتَّعْقِيب عَلَى هَذَيْنِ النقدين أَمْ لَمْ تُسَلِّم فَإِنَّ فَرْض اِتِّجَاه هَذَيْنِ النقدين لِجَمْع اَلْأَوَّلِينَ وُرُودهمَا بِكُلّ قُوَّة لَا يَنْتَهِي إِلَّا إِلَى نَتَائِج يُسَيِّرهُ اَلْأَهَمِّيَّة هَيِّنَة اَلْأَثَر كَتَضَخُّم المعجمات اَلْقَدِيمَة، وَاشْتِمَالهَا عَلَى اَلْحُوشِيّ اَلْمَتْرُوك وَالْمُتَرَادِف اَلَّذِي لَا ضَرُورَة لَهُ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِشَيْء فِي جُمُود اَللُّغَة وَعَجْزهَا عَنْ اَلْوَفَاة بِحَاجَة اَلْحَيَاة اَلْيَوْم وَجَهْل اَلطَّرِيق إِلَى نَمَائِهَا وَمُحَاوِلَة رَدّ مَاء اَلْحَيَاة إِلَيْهَا وَهُوَ مَا تَفْقِدهُ وَنَوَدّ اَلْوُصُول إِلَيْهِ بِأَيّ طَرِيق وَأَيّ جُهْد!! وَمِنْ أَجْله لَا مِنْ أَجْل سَلَامَة المعجمات نَبْتَغِي هَذَا اَلْفَصْل وَالتَّحْلِيل.

وَمَنْ نَقْدهُمْ اَلْيَوْم لِجَمْع اَلْأَقْدَمِينَ: -

٣ - عَدَم تَوَافُر اَلثِّقَة بِالرَّاوِيَةِ اَللُّغَوِيَّة ثِقَة تَشَابُه مَا تَوَافَرَ لِرَاوِيَة اَلْحَدِيث وَأَقْوَالهمْ فِي هَذَا اَلنَّقْد لَيْسَتْ إِلَّا تَرْدِيدًا لِشَيْء قَالَهُ اَلْأَقْدَمُونَ أَنْفُسهمْ فِي غَيْر مَوْضِع مِنْ عُلُومهمْ اَلْإِسْلَامِيَّة كَأُصُول اَلْفِقْه مَثَلًا.

وَالْمَجْمَعِيُّونَ اَلْيَوْم يُورِدُونَ بَعْض هَذَا كَاسْتِشْكَال الوازي فِي تَفْسِيره " كَذَا" عَلَى وُجُود اَلتَّوَاتُر فِي اَللُّغَة لِأَنَّا نَجِد اَلنَّاس مُخْتَلِفِينَ فِي مَعَانِي اَلْأَلْفَاظ اَلَّتِي هِيَ أَكْثَر اَلْأَلْفَاظ تَدَاوُلًا وَدَوَرَانًا عَلَى أَلْسِنَة اَلْمُسْلِمِينَ اِخْتِلَافًا لَا يُمْكِن فِيهِ اَلْقَطْع بِمَا هُوَ اَلْحَقّ كَلَفْظ اَللَّه وكلفظ

اَلْإِيمَان وَالْكُفْر وَالصَّلَاة وَالزَّكَاة فَإِذَا كَانَ هَذَا اَلْحَال فِي هَذِهِ اَلْأَلْفَاظ اَلَّتِي هِيَ أَشْهَر اَلْأَلْفَاظ وَالْحَاجَة إِلَيْهَا مَاسَّة فَمَا ظَنَّك بِسَائِر اَلْأَلْفَاظ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ظَهَرَ أَنَّ دَعْوَى اَلتَّوَاتُر فِي اَللُّغَة مُتَعَذِّرَة.

وَالْإِشْكَال اَلثَّانِي: أَنَّ مِنْ شَرْط اَلتَّوَاتُر اِسْتِوَاء اَلطَّرَفَيْنِ وَالْوَاسِطَة فَهَبَّ أَنَّنَا عَلِمْنَا حُصُول شَرْط اَلتَّوَاتُر فِي حِفَاظ اَللُّغَة فِي زَمَاننا فَكَيْفَ نَعْلَم حُصُوله فِي سَائِر اَلْأَزْمِنَة!

وَالثَّالِث أَنَّهُ اُشْتُهِرَ - بَلْ بَلَغَ مَبْلَغ اَلتَّوَاتُر أَنَّ هَذِهِ اَللُّغَات إِنَّمَا جُمِعَتْ عَنْ جَمْع مَخْصُوص كَالْخَلِيلِ وَلَاشْك أَنْ هَؤُلَاءِ مَا كَانُوا مَعْصُومِينَ وَلَا بَالِغِينَ حَدّ اَلتَّوَاتُر وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَحْصُل اَلْقَطْع وَالْيَقِين بِقَوْلِهِمْ.

وَأَمَّا أَخْبَار اَلْآحَاد فَمَا اِنْفَرَدَ بِرِوَايَتِهِ وَاحِد مِنْ أَهْل اَللُّغَة وَلَمْ يَنْقُلهُ أَحَد غَيْره قَالُوا: حِكْمَة اَلْقَبُول إِنْ كَانَ اَلْمُنْفَرِد بِهِ مِنْ أَهْل الطبط وَالْإِتْقَان وَشَرْطه أَلَّا يُخَالِفهُ فِيهِ مَنْ هُوَ أَكْثَر عَدَدًا مِنْهُ وَكَانَ بَعْض اَللُّغَوِيِّينَ غَيْر مَوْثُوق بِهِ كَأَنْ يَكُون غَيْر عَدْل أَوْ يُرْوَى عَنْ صِبْيَان، أَوْ عَنْ مَجَانِين أَوْ كَانَ رَاوِيَة مِنْ أَهْل اَلْأَهْوَاء وَلَمْ يَكُنْ بَعْض اَلْجَامِعِينَ يَتَحَرَّى اَلصِّدْق بَلْ كَانَ يُتِيح لِنَفْسِهِ أَنْ يَضَع.. إِلَخْ وأكتفى بِهَذَا اَلتَّلْخِيص لِنَقْدِهِمْ لِأَقْوَال:

إِنَّ مَا يُسَاق مِنْ هَذَا اَلْوَجْه اَلْأَخِير قَدْ أَوْرَدَ اَلْأَقْدَمُونَ أَنْفُسهمْ بِأَحْسَن مَا أَوْرَدَهُ اَلْعَصْرِيُّونَ اَلْيَوْم وُضُوحًا وَدِقَّة وَمَا لَخَّصْنَاهُ هُنَا

وَالْأَصْل اَلْمُطَوَّل لَهُ فِي مَطْبُوعَات اَلْمُجَمَّع مَأْخُوذ كُلّه عَنْ اَلْمُزْهِر لِلسُّيُوطِيّ - ج: ١ ص ٨٦ وَمَا بَعْدهَا اَلْأَزْهَرِيَّة سَنَة ٥٢٣١ وَهُوَ هُنَاكَ مَنْسُوب للراذي فِي اَلْأُصُول لَا فِي اَلتَّفْسِير - كَمَا أَنَّهُ هُنَاكَ أَتَمّ وَأَوْفَى وَأَصَحّ!

ثَمَّ فِي اَلْمُزْهِر تَجِد اَلْإِجَابَة عَنْ هَذِهِ اَلْإِشْكَالَات كَمَا تَجِد نقولا مِنْ مَرَاجِع أُصُولِيَّة أُخْرَى فَوْق أَنَّك تَجِد اَلْفُصُول اَلَّتِي عَقَدَهَا اَلسُّيُوطِيّ فِي اَلْمُزْهِر نَقْلًا عَنْ مُؤَلِّفِينَ سَابِقِينَ وَفِيهَا اَلْوَفَاء بِمُنَاقَشَة هَذِهِ اَلْإِشْكَالَات كُلّهَا كَفَصْل مَعْرِفَة مَا رَوَى مِنْ اَللُّغَة وَلَمْ يَصْحُ وَلَمْ يُثْبِت وَفَصْل مُعَرَّفَة اَلْمَصْنُوع وَفَصْل مَعْرِفَة اَلضَّعِيف وَالْمُنْكِر وَالْمَتْرُوك مِنْ اَللُّغَات وَكُلّهَا فِي اَلْجُزْء اَلْأَوَّل ثُمَّ فَصَلَ مُعَرَّفَة آدَاب اَللُّغَوِيّ وَفَصْل مَنْ سُئِلَ مِنْ عُلَمَاء اَلْعَرَبِيَّة عَنْ شَيْء فَقَالَ لَا أَدْرَى وَفَصْل اَلتَّحَرِّي فِي اَلرِّوَايَة وَالْفَرْق بَيْن مِثْله وَنَحْوه وَفَصْل كَيْفِيَّة اَلْعَمَل عِنْد اِخْتِلَاف اَلرُّوَاة وَفُصُول أُخْرَى تَتَّصِل بِالرَّاوِيَةِ اَللُّغَوِيَّة وَضَبْطهَا تَقْرَؤُهَا فِي اَلْجُزْء اَلثَّانِي مِنْ اَلْمُزْهِر أَيْضًا.

وَفِي كُلّ حَال فَإِنَّ هَذَا اَلنَّقْد لِلرَّاوِيَةِ قَدْ أَوْرَدَ اَلْأَقْدَمُونَ وَأَفَاضُوا فِيهِ مَعَ دِقَّة وَضَبْط فِي اَلْإِيرَاد ثُمَّ تَوَلَّوْا اَلْإِجَابَة عَنْهُ بِمِثْل هَذِهِ اَلْإِفَاضَة اَلدَّقِيقَة فَلَا مَعْنَى بَعْد ذَلِكَ لِإِيرَادِهِ مَبْتُورًا وَالِاحْتِجَاج بِهِ إِيرَادًا وَاسْتِشْكَالًا مَعَ تَجَاهُل نَقْصه وَإِبْطَاله وَالتَّغَافُل عَمَّا هُنَاكَ مِنْ اَلدَّلَالَة المهبة عَلَى اَلتَّحَرِّي اَلْمُمْكِن فِي اَلرِّوَايَة.

وَبَعْد كُلّ هَذَا مِنْ عَمَل اَلْأَقْدَمِينَ تَجِد اَللُّغَوِيِّينَ اَلْيَوْم لَا يُقِيمُونَ وَزْنًا لِهَذِهِ اَلثِّقَة بَعْدَمَا عَرَفُوا عَنْ اَلطَّبِيعَة اَلِاجْتِمَاعِيَّة لِلُّغَةِ وَهُوَ مَالًا نَجِد اَلْفُرْصَة لِلْإِفَاضَةِ فِيهِ هُنَا فَنَخْرُج عَنْ اَلْعَمَل اَلْأَوَّل فِي بَحْث اَلْمُشْكِلَات اَللُّغَوِيَّة.

وَهَبَ هَذَا اَلنَّقْد صَحِيحًا وَالْإِشْكَال وَارِدًا غَيْر مَرْدُود فَإِنَّا لَا تَتَكَلَّف هُنَا اَلْخَوْض فِي شَيْء مِنْهُ لِأَنَّهُ:

أَوَّلًا: لَا يَمَسّ اَلْعُقَد اَللُّغَوِيَّة وَالْمُشْكِلَات اَلَّتِي نَطْمَع فِي حَلّهَا كَمَا أَشَرْنَا إِذَا قَضَى مَا فِيهِ هُوَ تَحَرُّج أَصْحَاب اَلدَّيْن مِنْ تَحْكِيم هَذِهِ اَللُّغَة غَيْر اَلْمَوْثُوق بِهَا فِي فَهْم اَلْقُرْآن، وَأَخْذ اَلْعَقَائِد وَالشَّرَائِع مِنْهُ وَلَيْسَتْ هَذِهِ مَسْأَلَتنَا فِي شَيْء وَلَا هِيَ مِنْ مُشْكِلَات حَيَاتنَا اَللُّغَوِيَّة فِي قُرْب أَوْ بَعْد..

ثَانِيًا: إِنَّ اَلْحَيَاة اَللُّغَوِيَّة لَمْ تَتَوَقَّف اَلشَّيْء مِنْ هَذَا مِئَات اَلسِّنِينَ كَمَا أَنَّ اَلْحَيَاة اَلدِّينِيَّة لَمْ تُرَتِّب عَلَى هَذَا شَيْئًا فَأَصْبَحَ اَلْوُقُوف عِنْده وَالِاشْتِغَال بِهِ لَغْوًا لَا طَائِل تَحْته وَلَا مُبَرِّر لِتَنَاوُلِهِ اَلْيَوْم.

ثَالِثًا: وَهُوَ اَلْأَهَمّ أَنَّ هَذِهِ اَلْإِشْكَالَات اَلْقَدِيمَة إِذَا أُرِيدَ اَلِاشْتِغَال بِدَفْعِهَا اَلْيَوْم فَإِنَّمَا تَدْفَعهَا مَنْهَجِيَّة وَمَعَارِف اِجْتِمَاعِيَّة فِي اَلْحَيَاة اَللُّغَوِيَّة تَجْعَل مِثْل هَذِهِ اَلِاسْتِشْكَالَات تَتَدَاعَى وَقَدْ تَقِف عِنْد شَيْء مِنْ ذَلِكَ فِيمَا يَلِي حِين نَتَحَدَّث عَنْ اَلْعُقَد اَللُّغَوِيَّة اَلَّتِي فِي مُقَرَّرَات اَلْأَقْدَمِينَ اَلْمُخَالَفَة لِمَا عَرَفَ اَلْيَوْم عَنْ صَحِيح اَلْمَنَاهِج.

وَهَكَذَا لَا يُقَدِّم لَنَا حَتَّى اَلْآن ذَلِكَ اَلتَّشْخِيص اَلسَّابِق مَا يُفِيد فَائِدَة جِدِّيَّة فِي عِلَاج مُشْكِلَات حَيَاتنَا اَللُّغَوِيَّة وَحَلّ قَضَايَا اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة اَلْحَدِيثَة.

فَحَص

فِيمَا رَأَيْنَا مِنْ تَقَارِير اَلْفَحْص اَلسَّابِقَة لَمْ نَظْفَر بِنَتِيجَة إِيجَابِيَّة فِي تَشْخِيص حَال اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة إِذَا كَانَ جَوّ اَلْمُلَاحَظَة عَلَى حَرَكَة اَلْجَمْع اَلْقَدِيمَة لِلُّغَةِ جَوًّا مُعْجَمِيًّا لَا يَعْنِي إِلَّا بِتَقْدِير مَا كَانَ لِهَذَا اَلْجَمْع مِنْ أَثَر فِي حَال اَلْمَعَاجِم اَلْعَرَبِيَّة مِنْ وَجْه نَظَر عَمَلِيَّة خَاصَّة لَيْسَ لَهَا أَهَمِّيَّة كُبْرَى فَكَانَتْ زَاوِيَة اَلنَّظَر فِي اَلْمُلَاحَظَة عَلَى هَذَا اَلْجَمْع هِيَ اَلزَّاوِيَة اَلْمَيِّتَة فِي اَلنِّهَايَة لِأَنَّهَا عُيِّنَتْ بَلْ قُصِرَتْ عَلَى عَمَل لِلرُّوَاةِ فَاتَ زَمَانه وَلَا سَبِيل إِلَى إِعَادَة شَيْء مِنْهُ مُطْلَقًا لِيُؤَدِّيَ عَلَى وَجْه آخَر أَتَمّ وَأَكْمَل فَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى فَائِدَة فِي حَيَاتنَا اَللُّغَوِيَّة اَلْآن وَبَعْد اَلْآن!!

وَبِذَلِكَ لَمْ يَتَبَيَّن لَنَا مِنْ اَلْمُلَاحَظَات اَلَّتِي وَرَدَتْ فِيمَا أَسْلَفْنَا مِنْ قَوْل أَثَّرَ مَا فِي حَيَاة اَللُّغَة مَتْنًا أَوْ نَحْوًا أَوْ غَيْر ذَلِكَ تَكْشِف عَنْهُ تِلْكَ اَلْمُلَاحَظَات وَلَا نَحْنُ بِحَيْثُ نَسْتَفِيد مِنْ تِلْكَ اَلْمُلَاحَظَات فِي عَمَل مِنْ اَلْجَمْع قَدْ يَتَكَرَّر أَوْ يُعَاد اَلْيَوْم.

وَهَلْ لِلْجَمْعِ اَلْيَوْم مَجَال؟ إِنَّهُ لِسُؤَال يُثِيرهُ لَوْن مِنْ اَلتَّدَاعِي تَدَاعِي اَلْخَوَاطِر بِمُنَاسَبَة هَذَا اَلْحَدِيث عَنْ جَمْع اَللُّغَة وَلَمْ نَتَعَرَّض لَهُ..

وَالْحَقّ أَنَّ هَذَا اَلْجَوّ اَلْمَنْهَجِيّ لِلْبَحْثِ اَللُّغَوِيّ نَعِيش فِيهِ بِهَذِهِ اَلْمُحَاضَرَات عَنْ مُشْكِلَات حَيَاتنَا اَللُّغَوِيَّة جَوّ يُثِير اَلشُّعُور بِضَرُورَة

ضَرْب مِنْ اَلجَمْع اَللُّغَوِيّ لَا يَزَال لَهُ مَجَال فِي دَرْسنَا بَلْ أَنَّهُ ضَرُورِيّ ضَرْب مِنْ اَلجَمْع اَللُّغَوِيّ وَاعْتِبَارَات لُغَوِيَّة خَاصَّة وَلَعَلَّهُ أَنْ يَتِمّ يَسُدّ نَقْصًا فِي مَعْرِفَتنَا بِالجَزِيرَةِ اَلْعَرَبِيَّة دُونه كُلّ نَقْص فِي جَمْع اَلْأَوَّلِينَ وَفِي كِتَابَتهمْ لِلتَّارِيخِ وَفِي كُلّ اَلَّذِي نَقَلُوهُ إِلَيْنَا عَنْ اَلحَيَاة اَلْعَرَبِيَّة بِرَاوِيَة كَلَامَيْهِ يَشُوبهَا كَثِير مِنْ اَلشَّائِعَات والأسطوريات وَالْمُخْتَلِفَات وَيَنْقُضهَا غَيْر قَلِيل مِنْ اَلدِّقَّة.

وَذَلِكَ اَلجَمْع اَلَّذِي نُشِير إِلَيْهِ بِالْمُنَاسَبَةِ وَنَكْبُر مِنْ شَأْنه هُوَ:

اَلجَمْع اَلْكُلِّيّ اَلْمُنَقِّب فِي أَرْض اَلجَزِيرَة اَلْعَرَبِيَّة: اَلَّتِي لَا شَكّ مُطْلَقًا فِي أَنَّهَا تَحْتَفِظ وَدَائِع مِنْ اَلْمَاضِي لَهَا اَلْأَهَمِّيَّة كُلّ اَلْأَهَمِّيَّة فِي مَعْرِفَة ذَلِكَ اَلْمَاضِي بِكَافَّة صُوَره وَمِنْ جَمِيع نَوَاحِيه: لُغَوِيَّة وَاجْتِمَاعِيَّة وَفَنِّيَّة وَسِوَاهَا فَإِنَّمَا يُقَدِّم لَنَا هَذَا اَلجَمْع اَلجَدِيد تِلْكَ اَلْأَدِلَّة اَلْمَادِّيَّة وَهِيَ اَلْأَدِلَّة اَلْوَحِيدَة اَلَّتِي يَعْتَمِد عَلَيْهَا اَلتَّارِيخ اَلْيَوْم وَيُفَتِّش عَنْهَا تَفْتِيشًا جَادًّا وَيَنْصِبُونَ لِذَلِكَ وَيَبْذُلُونَ وَيُعَانُونَ فِيهِ وَيَعْنُونَ بِمَا تَصِل إِلَيْهِ أَيْدِيهِمْ مِنْ اَلْآثَار فِي مُخْتَلِف مَوَادّهَا وَجَمْع أَمَاكِنهَا وَلَيْسَتْ اَلجَزِيرَة إِلَّا مِنْطَقَة هَامَّة مِنْ تِلْكَ اَلْمَنَاطِق اَلْأَثَرِيَّة تَحْتَفِظ بِالْكَثِيرِ مِنْ آثَار مَا عَاشَ فِيهَا وَمَنْ عَاشَ فِيهَا...

وَقَدْ قَامَ اَلْغَرْبِيُّونَ بِشَيْء قَلِيل مِنْ اَلحَفْر وَالتَّنْقِيب فِي اَلشَّمَال اَلْغَرْبِيّ وَالشَّرْق وَالجَنُوب بِسُورْيَا وَالْعِرَاق وَالْيَمَن وَكَانَ لَمَّا عَثَرَتْ بِهِ تِلْكَ اَلتَّنْقِيبَات أَثَره فِي اَلنَّاحِيَة اَلتَّارِيخِيَّة وَاللُّغَوِيَّة وَلَا يَزَال لِهَذَا اَلتَّنْقِيب

مجَال أَيّ مجَال فِي تِلْكَ اَلْجَزِيرَة اَلْمُتَحَجِّبَة اَلَّتِي لَا يُسَهِّل اَلسَّبِيل إِلَيْهَا.

ذَلِكَ هُوَ اَلَّذِي نُشِير إِلَيْهِ اَلْيَوْم مِنْ اَلْجَمْع اَلْجَدِيد اَلَّذِي يُلْفِت إِلَيْهِ اَلْمَنْهَج اَلدَّقِيق وَتَتَطَلَّع إِلَيْهِ دِرَاسَاتنَا لِلْجَزِيرَةِ اَلْعَرَبِيَّة مِنْ نَوَاحِيهَا اَلْمُخْتَلِفَة وَهُوَ خَلِيق بِأَنْ يُقَدِّم إِلَيْنَا فِي اَلْمَيْدَان اَللُّغَوِيّ بِخَاصَّة مَوَادّ عَنْ حَيَاة اَلْعَرَبِيَّة وَتَطَوُّرهَا تَكُون بِلَا شَكّ أَدَقّ وَأَصْدَق مِمَّا أَعْطَانَا اَلرُّوَاة اَلْجَامِعُونَ فِي هَذَا اَلسَّبِيل وَكَانَ نَقْلهمْ مَوْضِعًا لِشَيْء مِنْ هَذَا اَلِاتِّهَام اَلَّذِي سَمِعْنَا بَعْض خَبَره قَرِيبًا فِي تِلْكَ اَلتَّقْرِيرَات اَلَّتِي حَاوَلْنَا اَلِاسْتِفَادَة مِنْهَا فَلَمْ نَظْفَر بِكَبِير فَائِدَة وَانْتَهَيْنَا بِمُنَاسَبَتِهَا إِلَى هَذِهِ اَلرِّوَايَة اَلْمَادِّيَّة وَالْجَمْع اَلْوَاقِعِيّ اَلْعَمَلِيّ لِمَصَادِر اَلتَّارِيخ اَللُّغَوِيّ وَالْأَدَبِيّ وَالسِّيَاسِيّ وَالِاجْتِمَاعِيّ وَهُوَ اَلْجَمْع اَلَّذِي يُرْجَى مِنْهُ أَنْ يُنِير طَرِيقنَا وَيُسْعِف مُحَاوَلَاتنَا فِي رَدّ اَلْحَيَاة اَلْعَرَبِيَّة وَإِكْسَابهَا أَسْبَاب اَلنَّمَاء وَالتَّجْدِيد بِفَضْل اَلْمَعْرِفَة اَلدَّقِيقَة لِمَاضِيهَا مَعْرِفَة تَكْشِف لَنَا عَنْ تَطَوُّرهَا وَاتِّجَاه سَيْرهَا فِي اَلْمَاضِي فَتَكُون اَلْمُحَاوَلَة فِي سَبِيل مُسْتَقْبَلهَا مُهْتَدِيَة بِالْإِدْرَاكِ اَلصَّحِيح لِحَيَاة مَاضِيهَا وَقَائِمَة عَلَى أَسَاس وَاقِعِيّ وَسَتَزِيدُ هَذَا اَلْمَعْنَى فَضَلَّ بَيَان فِيمَا يَلِي مِنْ اَلْمُحَاضَرَات عِنْد مُوَاطِن اَلْمُنَاسَبَة.

وَمَا نُشِير إِلَى هَذَا اَلْجَمْع اَلْمُنَقِّب مِنْ مَال وَخِبْرَة وَخُلُق عِلْمِيّ فَوْق مَا يَسْتَهْلِكهُ مِنْ طَوِيل اَلْوَقْت حَتَّى يُؤَدِّي إِلَيْنَا مَا نُشِير إِلَيْهِ مِنْ اَلْمَصَادِر وَمَوَادّ تِلْكَ اَلرَّاوِيَة اَلْعَمَلِيَّة.. نَعِمَ إِنَّا لِنُقَدِّر ذَلِكَ أَدَقّ

اَلتَّقْدِير وَلَا نَرَى أَمْره يَسِيرًا مَيْسُورًا فِي حَيَاتنَا اَلْيَوْم وَلَكِنْ لَا يُكَذِّب اَلرَّائِد أَهْله وَلَا يَدْعُونَا هَذَا اَلْحَاضِر اَلْقَائِم أَبَدًا إِلَى اَلْيَأْس مِنْ مُسْتَقْبَل قَرِيب دَارِس جَادّ مُؤَدٍّ لِلشَّرْقِ فَرَضَهُ عَلَيْنَا فِي هَذَا اَلْمَيْدَان..

وَإِنَّهُ لَجِهَاد أَكْبَر تَتَكَاتَف فِيهِ قَوِيّ اَلشُّعُوب اَلْعَرَبِيَّة وَتُدَبِّر لَهُ تِلْكَ اَلْهَيْئَة اَلْجَامِعَة اَلْمُنَسِّقَة لِنَشَاطِهِمْ وَالْحَدِيث فِي هَذَا اَلْمَعْهَد اَلَّذِي تُشْرِف عَلَيْهِ تِلْكَ اَلْجَامِعَة جَدِير بِأَنْ يَكُون اَلْمُنَاسَبَة اَلْمُثِيرَة اَلْمُوَجَّهَة إِلَى مِثْل هَذَا اَلْجَمْع اَلْمَرْجُوّ فَيَكُون ذَلِكَ اَلْقَوْل تُبْصِرهُ وَتَذْكُرهُ يَعِيهَا اَلزَّمَن وَيُلْفِت إِلَيْهَا وَيُشَجِّع عَلَيْهَا.

وَلَا نُطِيل اَلْآن بِذِكْر شَيْء عَنْ هَذَا اَلْجَمْع اَلْحَافِز اَلْمُنَقِّب لِأَنَّهُ لَيْسَ أَكْثَر مِنْ أُمْنِيَة اَلْمُتَمَنِّي وَأَمَل اَلْآمِل هَفَتْ إِلَيْهَا اَلنَّفْس وَثَارَ اَلشَّوْق بِمُنَاسَبَة مَا سَمِعْنَا مِنْ اَلْحَدِيث عَنْ هَذَا اَلْجَمْع اَللُّغَوِيّ مُنْذُ أَكْثَر مِنْ عِشْرِينَ عَامًا ذَلِكَ اَلْحَدِيث اَلَّذِي رَأَيْتُمُوهُ فِيمَا ذَكَرْنَا مِنْ أَعْدَاد مَجَلَّة اَلْمُجَمَّع حَدِيثًا مُعَادًا مُكَرَّرًا مُعْتَمِدًا عَلَى قَدِيم مُرَدِّد لَمْ يَزِدْهُ هَذَا الترداد اَلْحَدِيث شَيْئًا مِنْ حَيَاة بَلْ لَمْ يُحَرِّرهُ وَلَوْ كَانَ لَنَا شَيْء مِنْ اَلْعَمَل يُرِيحنَا مِنْ هَذَا اَلنَّشَاط القولي اَلْمُبَدَّد وَيَمْنَع عُدْوَانه عَلَى جَدّنَا لَكَانَتْ مُنْذُ بَعِيد مُشَارَكَة فِيمَا بَدَأَهُ اَلْغَرْبِيُّونَ اَلْغُرَبَاء مِنْ اَلتَّنْقِيب فِي اَلْجَزِيرَة اَلْعَرَبِيَّة.

وَالْآن وَقَدْ أعوزنا اَلظَّفَر بِشَيْء مِنْ تَشْخِيص عِلَل اَلْعَرَبِيَّة وَتَبَيُّن مُشْكِلَاتهَا فِيمَا رَأَيْنَا مِنْ تَقَارِير سَابِقَة بِالْإِغْوَاءِ مُتَفَرِّدِينَ شَخَّصُوا هَذَا

اَلْجَمْع نُحَاوِل أَنْ نَقُوم بِالْمُسْتَطَاعِ مِنْ اَلْفَحْص مُتَفَرِّدِينَ مِنْ مُقَرَّرَات وَقَوَاعِد فِي عُلُوم اَللُّغَة اَلْمُخْتَلِفَة بَادِئِينَ مِنْهَا بِمُقَرَّرَاتِهِمْ حَوْل مَتْن اَللُّغَة وَمَادَّتهَا اَلَّتِي فَحَصُوا مِنْ أَمْرهَا مَا فَحَصُوا وَوَصَّفُوا مُخْتَلِف اَلْعُلُوم لِتَقْرِير اَلْحَقَائِق اَلْخَاصَّة بِمُفْرَدَاتِهَا وَمُرَكَّبَاتهَا عَلَى مَا تَعْرِفُونَ.

وَنَبْدَأ مِنْ هَذَا بِفَحْص مُقَرَّرَاتهمْ اَلْعَامَّة: عَنْ اَللُّغَة وَمِنْ ذَلِكَ قَضَايَاهُمْ فِي: نَشْأَة اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة.

فَقَدْ بَحَثُوا عَنْ أَصْل اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة وَأَكْثَرُوا اَلْبَحْث إِذَا كَانَ جَوّهمْ اَلْعَقْلِيّ بِطَابَعِهِ اَلْغَيْبِيّ اَلدِّينِيّ جَدِيرًا بِأَنْ يُجِيب إِلَيْهِمْ اَلْكَثِير مِنْ مِثْل هَذَا اَلْبَحْث عَنْ أُصُول اَلْأَشْيَاء اَلَّذِي هُوَ حَتَّى اَلْيَوْم بَحْث غَيْبِيّ مِيتَافِيزِيقِيّ لَا يَعْتَمِد عَلَى اَلْأُسْلُوب اَلْعِلْمِيّ اَلتَّجْرِيبِيّ.

وَلَمْ يَقْتَصِر هَذَا اَلْبَحْث اَلْقَدِيم عَلَى اَللُّغَوِيِّينَ اَلْخُلَّص بَلْ شَاطَرَهُمْ هَذَا اَلنَّشَاط أَصْحَاب عِلْم أُصُول اَلْفِقْه اَلَّذِينَ شَعَرُوا بِالْحَاجَةِ إِلَى كَثِير مِنْ اَلدِّرَاسَات اَللُّغَوِيَّة خِدْمَة لِغَرَضِهِمْ فِي فَهْم اَلْقُرْآن وَآخِذ اَلْأَدِلَّة مِنْهُ فَضَمُّوا إِلَى عِلْمهمْ مُقَدِّمَة سَمُّوهَا اَلْمُقَدِّمَة اَللُّغَوِيَّة صَارَتْ شَطْرًا هَامًّا مِنْ هَذَا اَلْعِلْم وَمَنَحَتْ مِنْ اَلْعِنَايَة مَا جَعَلَ اَلدَّارِسِينَ فِي اَلْعُصُور اَلْمُتَأَخِّرَة يَبْذُلُونَ فِيهَا مِنْ اَلْوَقْت وَالْجُهْد مَالَا يَبْذُلُونَ شَيْئًا مِنْهُ فِي اَلْمَبَاحِث اَلْأَصِيلَة فِي اَلْعِلْم كَالِاجْتِهَادِ وَمَا إِلَيْهِ.

وَأُلِمّ اَلْأَصْلِيُّونَ فِي هَذِهِ اَلْمُقَدِّمَة بِمَبَاحِث لَمْ يَسْتَوْفِهَا اَلدَّارِسُونَ اَللُّغَوِيُّونَ حَتَّى لِيَتَجَلَّى أَنَّ تَتَبُّع مَا عِنْد هَؤُلَاءِ اَلْأُصُولِيِّينَ مِنْ اَلْبَحْث

اَللُّغَوِيّ اَلْمُلِمّ بِكَثِير مِنْ مَبَاحِث عُلُوم اَلْعَرَبِيَّة قَدْ يَكُون أَجْدَى مِنْ بَحْث أَصْحَاب عُلُوم اَللُّغَة أَنْفُسهمْ.

وَلَقَدْ ظَلِلْت أَعْوَامًا أَدْرُس اَلدِّرَاسَات اَلْعُلْيَا فِي كُلِّيَّة اَلْآدَاب بِجَامِعَة اَلْقَاهِرَة مَوْضُوع اَلْأُصُولِيِّينَ فِي بَحْث اَللُّغَة عَنَى هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ بِالْحَدِيثِ عَنْ اَللُّغَة وَنَشْأَتهَا وَأَطَالُوا اَلْأَخْذ وَالرَّدّ فِي أَنَّ اَللُّغَة أهي إِلْهَام وَتَوْفِيق مِنْ اَللَّه أَمْ هِيَ اِصْطِلَاح وَتَوَاضُع مِنْ اَلنَّاس وَتَأَثُّر اَلْقَوْل فِي ذَلِكَ بِصِفَة أَصْحَاب اَلْمِلَّلَات اَلْإِسْلَامِيَّة مِنْ سَنِيَّة وَمُعْتَزِلَة وَخَلَّفُوا فِي اَلْمَيْدَان مَالَا نَرَى ضَرُورَة لِذِكْر شَيْء مِنْ تَفْصِيله لِأَنَّهُ كَمَا يَقُول اَلْمُحَدِّثُونَ بِحَثّ لَا يَتَّسِم بِالسِّمَةِ اَلْعِلْمِيَّة وَلَا يَقُوم عَلَى أَسَاس مِنْ اَلْمَنْهَج اَلْعِلْمِيّ اَلْحَقِيقِيّ اَلْيَوْم.

وَيَكْفِي أَنْ نُشِير إِلَى ملحظين فِي هَذَا اَلْمَقَام:

أَحَدهمَا: مِنْ اِنْتِبَاه اَلْأَقْدَمِينَ اَلَّذِي لَا نَسْتَحِلّ عَدَم اَللَّفْت إِلَيْهِ.

وَثَانِيهمَا: مِنْ تَنَاوُل اَلْمُحْدَثِينَ اَلْأَقْدَمِين رَغْم ظُرُوفهمْ اَلْحَيَوِيَّة وَالْعَقْلِيَّة إِلَى أَنَّ هَذَا اَلْبَحْث فِي أَصْل اَللُّغَة وَنَشْأَتهَا لَيْسَ بِذَاكَ حَتَّى قَالَ قَائِلهمْ وَالصَّحِيح عِنْدِي أَنَّهُ لَا فَائِدَة لهذة اَلْمَسْأَلَة وَهُوَ مَا صَحَّحَهُ اِبْن الأنباري وَغَيْره وَلِذَلِكَ قِيلَ ذِكْرهَا فِي اَلْأُصُول فُضُول.

وَهِيَ لَفْتَة طَيِّبَة تُرِيحنَا وَتُرِيحكُمْ مِنْ اَلْوُقُوف عِنْد كَثِير مِمَّا قِيلَ فِي أَصْل اَللُّغَة وَتُفْسِح لَكُمْ اَلْمَجَال لِلتَّفْسِيرِ اَلتَّطَوُّرِيّ اَلِاجْتِمَاعِيّ لِلُّغَةِ مِمَّا

نَرْجُو مَعَهُ أَنْ يَكُون تَصوُّركُمْ لِلظَّوَاهِرِ اَللُّغَوِيَّة وَفَحْصكُمْ لَهَا عَلِيمًا طَلِيقًا مِنْ اَلْقُيُود اَلَّتِي لَا أَصِل لَهَا كَتَفْسِير اَلْآيَة اَلْكَرِيمَة "وَعَلَم آدَم اَلْأَسْمَاء كُلّهَا وَرَبْطهَا بِالْقَوْلِ فِي نَشْأَة اَللُّغَة ."

وَأَمَّا الملحظ اَلثَّانِي: فَهُوَ شَيْء مِنْ عَمَل اَلْمُحْدَثِينَ أَقِف عِنْده لَحْظَة أُنَبِّهكُمْ بَعْدهَا إِلَى أَثَر هَذَا اَلْعَمَل فِي اَلْمَنْهَج اَلدِّرَاسِيّ اَلصَّحِيح. وَالْعَمَل اَلَّذِي نُشِير إِلَيْهِ هُوَ إِسْرَاف بَعْض اَلْمُتَنَاوِلِينَ لِلْمَسَائِلِ اَللُّغَوِيَّة فِي تَقْدِير اَلْقَوْل بِأَنَّ أَصْل اَللُّغَات كُلّهَا إِنَّمَا هُوَ اَلْأَصْوَات المسموعات كدوى اَلرِّيح ثُمَّ وَلَّدَتْ اَللُّغَات عَنْ ذَلِكَ إِذَا حَكَى اِبْن جِنِّيّ فِي اَلْخَصَائِص هَذَا اَلْقَوْل فِيمَا حَكَى مِنْ أَقْوَال فِي أَصْل اَللُّغَة.

وَإِذَا سَيُدْمِنُ اَلْمُعَاصِرِينَ يُسْرِف فِي تَقْدِير اَلْأَمْر فَتَوَهَّمَ عِبَارَته أَنَّ هَذَا اَلْقَوْل فِي أَنَّ أَصْل اَللُّغَة اَلْأَصْوَات هُوَ قَوْل اِبْن جِنِّيّ وَيَقُول إِنَّ هَذَا رَأْي بَعْض عُلَمَاء اَلْعَرَبِيَّة اَلْأَفْذَاذ فِي أَصْل اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة مُنْذُ نَحْو أَلْف سَنَة وَهُوَ رَأْي أَدْنَى إِلَى اَلْفِطْرَة وَالْمَنْطِق اَلسَّلِيم وَسَنَة اَلنُّشُوء وَالِارْتِقَاء فِي نَشْأَة اَللُّغَات وَهُوَ رَأْي عُلَمَاء اَللُّغَات فِي اَلْعَصْر اَلْحَاضِر مِنْ عَرَب وَعَجَم.

وَفِي هَذَا غَيْر قَلِيل مِنْ مَوَاضِع اَللّفْت فَإِنَّ اَلْقَوْل فِي عِبَارَة اِبْن جَنَى نَفْسه معزو لِبَعْضِهِمْ فَبَعْض مِنْ هَذَا؟ أَهْوَ بَعْض اَللُّغَوِيِّين أَنَّ بَعْض اَلْمُتَكَلِّمِينَ؟ أَمْ بَعْض اَلْمُتَفَلْسِفِينَ أَمْ.. أَمْ إِلَخْ.. فَعَزَوْهُ لِبَعْض عُلَمَاء اَلْعَرَبِيَّة تَحَكُّم.

وَهُوَ ينضاف إِلَى اَلْمَيْل اَلْوَاضِح لِغَزْو هَذَا اَلرَّأْي إِلَى اِبْن جِنِّيّ نَفْسه مَعَ اِبْن جِنِّيّ رَغْم قَوْله بَعْد إِيرَاد هَذَا اَلرَّأْي.. "وَهَذَا عِنْدِي وَجْه صَالِح وَمُذَهَّب مُتَقَبِّل لَمْ يَلْبَث أَنَّ عَقِب عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ "وَاعْلَمْ فِيمَا بَعْد أَنَّنِي عَلَى تَقَادُم اَلْوَقْت دَائِم التنقير وَالْبَحْث عَنْ هَذَا اَلْوَضْع فَأَجِد اَلدَّوَاعِي وَالْخَوَالِج قَوِيَّة اَلتَّجَاذُب لِي مُخْتَلِفَة جِهَات التغول عَلَى فِكْرِي وَذَلِكَ أَنِّي إِذَا تَأَمَّلْت حَال هَذِهِ اَللُّغَة اَلشَّرِيفَة اَلْكَرِيمَة اَللَّطِيفَة وُجِدَتْ فِيهَا مِنْ اَلْحِكْمَة وَالدِّقَّة والإرهاف وَالرِّقَّة مَا يَمْلِك عَلَى جَانِب اَلْفِكْر حَتَّى يَكَاد يَطْمَح بِهِ أَمَام اَلسِّحْر الخ مَا يَقُول حَتَّى يَنْتَهِي بِقَوْلِهِ فَقَوِيَ فِي نَفْسه اِعْتِقَاد كَوْنهَا تَوْفِيقًا مِنْ اَللَّه سُبْحَانه وَأَنَّهَا وَحْي"

ثُمَّ أَقُول فِي ضِدّ هَذَا: كَمَا وَقَعَ لِأَصْحَابِنَا وَلَنَا وَتَنَبُّوَا وَتَنَبَّهْنَا عَلَى تَأَمُّل هَذِهِ اَلْحِكْمَة اَلرَّائِعَة اَلْبَاهِرَة، كَذَلِكَ لَا نَنْكَر أَنْ يَكُون اَللَّه تَعَالَى قَدْ خَلَقَ مِنْ قَبْلنَا وَإِنَّ بُعْد مَدَاهُ عَنَّا – مَنْ كَانَ أَلْطَف مِنَّا أَذْهَانًا وَأَسْرَع خَوَاطِر وَأَجْرَأ جِنَانًا فَأَقِف بَيْن تين الخلتين حَسِيرًا وأكاثرهما فأنكفي مَكْثُوا وَإِنَّ خَطَر خَاطِر فِيمَا بَعْد يُعَلِّق بِإِحْدَى اَلْجِهَتَيْنِ وَيَكُفّهَا عَنْ صَاحِبَتهَا قَلْبًا بِهِ وَبِاَللَّهِ اَلتَّوْفِيق.

فَهَلْ خَطَرَ لِابْن جِنِّيّ هَذَا اَلْخَاطِر اَلَّذِي يُعَلَّق اَلْكَفّ بِأَنَّ اَللُّغَة تَقْلِيد لِلْأَصْوَاتِ فَقَالَ بِهِ فِي مَوْضِع لَمْ نَرَاهُ.. وَوَقَعَ هَذَا اَلْقَوْل لِلسَّيِّدِ اَلْعَصْرِيّ صَاحِب كِتَاب اَلِاشْتِقَاق؟ مَا أَحْسَب أَنَّ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ قَدْ كَانَ! ..

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي اَلْأَمْر إِلَّا هَذَا اَلَّذِي قَالَ اِبْن جِنِّيّ فِي خَصَائِصه،

فَلَيْسَ فِيهِ مُبَرِّر لِغَزْو هَذَا اَلرَّأْي لِابْن جِنِّيّ.. لَا اِبْتِدَاعًا اِبْتَدَعَهُ هُوَ فَيَحْسَب لِبَعْض عُلَمَاء اَلْعَرَبِيَّة اَلْأَفْذَاذ - كَمَا قَالَ اَلسَّيِّد - وَلَا اِتِّبَاعًا وَتَقْلِيد أُعْلِنَ بِهِ اِبْن جِنِّيّ اِعْتِنَاق هَذَا اَلْمَذْهَب فَمَا هَكَذَا تَفْهَم عِبَارَته هَذِهِ .... وَلَا هُوَ قَدْ سَكَتَ عَنْ اَلنَّصّ عَلَى خِلَافهَا صَرَاحَة فَمَا هَكَذَا تَفْهَم عِبَارَته هَذِهِ... وَلَا هُوَ قَدْ سَكَتَ عَنْ اَلنَّصّ عَلَى خِلَافهَا صَرَاحَة لِأَنَّهُ يَقُول قَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّل اَلْكِتَاب اَلْقَوْل عَلَى اَللُّغَة أَتُوضَعُ هِيَ أَمْ إِلْهَام وَحَكَيْنَا وجوزنا فِيهَا اَلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا.. وَالَّذِي يَجُوز فِيهَا اَلْإِلْهَام لَا يَقُول بِأَنَّ مَنْشَأَهَا إِنَّمَا هُوَ مِنْ اَلْأَصْوَات المسموعات... إِلَخْ.

وَكَذَلِكَ فَهِمَ اَلْقُدَمَاء: أَنَّ اَلْوَقْف هُوَ اَلَّذِي اِخْتَارَهُ اِبْن جِنِّيّ أَخِيرًا، وَهَذَا مَا يَحْكِيه اَلسُّيُوطِيّ ثُمَّ كَذَلِكَ اِتَّجَهَ اَلْمُحَدِّثُونَ فَنَاشِر اَلْخَصَائِص يُعَلِّق فِي اَلْهَامِش قَائِلًا يَبْدُو مِنْ هَذَا أَنَّ مَذْهَب اِبْن جِنِّيّ فِي هَذَا اَلْبَحْث اَلْوَقْف فَنَرَاهُ لَا يَجْزِم بِأَحَد اَلرَّأْيَيْنِ.. وَلَوْ قَدْر اَلنَّاشِر عِبَارَة اِبْن جِنِّيّ اَلصَّرِيحَة، وَهُوَ قَوْله "وجوزنا فِيهَا اَلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا"، وَرَأَى نَقْل اَلسُّيُوطِيّ لِمَا كَانَ هَذَا اَلْوَقْف مَا يَبْدُو بَلْ هُوَ مَا تُقَرِّر..!

ذُلِّكُمْ هُوَ الملحظ اَلثَّانِي أَرَدْت بِعَرْضِهِ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَشْغَلكُمْ اَلرَّغْبَة فِي إِكْسَاب اَلْأَسْلَاف مَا لَبِسَ لَهُمْ، وَأَلَّا تَعْتَنُوا بِكَسْب مُفَاخِر لَيْسَتْ كَبِيرَة فِي ذَاتهَا، وَمَهْمَا تَكُنْ كَبِيرَة فَأَكْبَر مِنْهَا وَأَجَل سَلَامَة مَنْهَجكُمْ فِي تَقْرِير اَلْحَقَائِق، وَصِدْق أَمَانَتكُمْ اَلْعِلْمِيَّة.. فَلَا شَيْء قَبْل هَذَا.. وَلَا شَيْء أَقْدَس مِنْهُ.

ثُمَّ إِنَّهُ لِمَنْ اَلتَّكَاثُر اَلْمَفَاخِر.. بِغَيْر مفخر.. مَا يَقُول اَلسَّيِّد صَاحِب كِتَاب اَلِاشْتِقَاق مِنْ أَنَّ هَذَا اَلْقَوْل بِنَشْأَة اَللُّغَة مِنْ حِكَايَة اَلْأَصْوَات هُوَ: رَأْي عُلَمَاء اَللُّغَات فِي اَلْعَصْر اَلْحَاضِر مِنْ عَرَب وَعَجَم.. فَأَيْنَ عُلَمَاء اَللُّغَات مِنْ اَلْعَرَب؟ وَمَنْ هُمْ؟ وَأَيْنَ قَالُوا... !! وَأَمَّا عُلَمَاء اَلْعَجَم فِي اَلْعَصْر اَلْحَاضِر كَمَا أَشَرْنَا فَلَا يَنْشَطُوا لِهَذَا اَلْبَحْث غَيْر اَلْعِلْمِيّ عَنْ أُصُول اَلْأَشْيَاء بِعَامَّة، وَأَصَرَّ اَللُّغَات بِخَاصَّة بَلْ يُخْرِجُونَ هَذَا اَلْبَحْث مِنْ نِطَاق عِلْم اَللُّغَة، وَهُمْ يَقُولُونَ عَنْ هَذَا اَلرَّأْي بِذَاته: إِنَّهُ إِذَا لَمْ يُقِمْ دَلِيل عَلَى بُطْلَانه فَإِنَّهُ لَمْ يُقِمْ دَلِيل عَلَى صِحَّته، وَغَايَة اَلْأَمْر فِيهِ عَنْهُمْ أَنَّهُ أَدْنَى إِلَى طَبَائِع اَللُّغَوِيَّات.. فِي تَطَوُّرهَا وَارْتِقَائِهَا.. الخ؟

وَإِذَا مَا عَرَضَتْ عَلَيْكُمْ الملحظ اَلْأَوَّل لِلْقُدَمَاءِ.. فِي عَدّ اَلْبَحْث عَنْ نَشْأَة اَللُّغَة فُضُولًا لِأُحَرِّر تَفْكِيرُكُمْ فِي مُشْكِلَات حَيَاتنَا اَللُّغَوِيَّة مِنْ اَلنَّزْعَة اَلْغَيْبِيَّة فَقَدْ ذَكَرَتْ الحظ اَلثَّانِي لِبَعْض اَلْمُحْدَثِينَ لِأُثْبِت تَفْكِيرُكُمْ فِي هَذِهِ اَلْمُشْكِلَات عَلَى أَسَاس مِنْ اَلدِّقَّة وَعَدَم التنفج بِمَا لَا أَصِل لَهُ.

وَبِهَذَا نَدَع اَلْحَدِيث عَنْ أَصْل اَللُّغَة أَحْرَارًا لِنُحَدِّث عَنْ: وَضْع اَللُّغَة فَعِنْدهمْ.. أَنَّهُ سَوَاء أكانت اَللُّغَة إِلْهَامًا أَمْ كَانَتْ اِصْطِلَاحًا بَشَرِيًّا فَلَابُدَّ مِنْ وَضْع يَجْعَل لَفْظ كَذَا بِإِزَاء مَعْنَى كَذَا.. بِوَضْع وَاضِع أَوَّل قَدْر اَلْحَاجَة اَللُّغَوِيَّة وَوَضْع اَلْكَلِمَات اَلْوَافِيَة بِهَا، كُمَّا لَحَظّ اَلِاعْتِبَارَات

اَلْحَيَوِيَّة اَلْمُخْتَلِفَة اَلَّتِي سيحوج إِلَيْهَا اَلِاسْتِعْمَال فِي اَلْمُسْتَقْبَل اَلْبَعِيد، وَأَعْطَى اَلْكَلِمَات أَحْوَالهَا اَلَّتِي تُلَائِم هَذَا اَلِاسْتِعْمَال وَتُيَسِّر أَمْره... وَبِعِبَارَة اِبْن جِنِّيّ، حِكَايَة عَنْ شَيْخه أَبِي اَلْفَارِسِيّ.

أَنَّهُمْ وَزَنُوا حِينئِذٍ أَحْوَالهمْ، وَعَرَفُوا مَصَايِر أُمُورهمْ، فَعَلِمُوا أَنَّهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى اَلْعِبَارَات عَنْ المعانى وَأَنَّهَا لَابُدَّ لَهَا مِنْ اَلْأَسْمَاء، وَالْأَفْعَال وَالْحُرُوف فَلَا عَلَيْهِمْ وَقَدْ أَوْجَبُوا عَلَى أَنْفُسهمْ أَنْ يَأْتُوا بِهِمْ جُمَع، إِذْ اَلْمَعَانِي لَا تُسْتَغْنَى فِي تَقْدِير اَلْوَاضِع اَلْأَوَّل جَمِيع ظُرُوف اَلْحَاجَة اَللُّغَوِيَّة اَلْمُسْتَقْبِلَة إِذْ يَقُول:

وَكَانَ أَبُو اَلْحَسَن يَذْهَب إِلَى أَنَّ مَا غَيَّرَ لِكَثْرَة اِسْتِعْمَاله إِنَّمَا تَصَوَّرَتْهُ اَلْعَرَب قَبْل وَضْعه، وَعَلِمَتْ أَنَّهُ لَابُدَّ مِنْ كَثْرَة اِسْتِعْمَالهَا إِيَّاهُ، فَابْتَدَءُوا بِتَغْيِير عِلْمًا بِأَنَّ لَابُدَّ مِنْ كَثْرَة اَلدَّاعِيَة إِلَى تَغْيِيره، وَهَذَا فِي اَلْمَعْنَى كَقَوْلِهِ:

رَأَى اَلْأَمْر يُفْضِي إِلَى آخر فَصَيَّرَ آخِره أَوَّلًا وَقَدْ كَانَ أَيْضًا أَجَازَ أَنْ يَكُو "قَدْ" كَانَتْ قَدِيمًا مُعَرَّبَة، فَلِمَا كَثُرَتْ غَيَّرَتْ، فِيمَا بَعْد وَالْقَوْل عِنْدِي هُوَ اَلْأَوَّل، لِأَنَّهُ أَدَلّ عَلَى حِكْمَتهَا، وَأَشْهَد لَهَا بِعِلْمِهَا بِمَصَايِر أَمْرهَا، فَتَرَكُوا بَعْض اَلْكَلَام مُبَيِّنًا غَيْر مُعَرَّب نَحْو أَمْس وَهَؤُلَاءِ.

وَبَعْد اَلْإِطَالَة يَخْتِم بِقَوْلِهِ "فَهَذَا كُلّه وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ مِمَّا يُطَوِّل ذِكْره يَشْهَد لِأَنَّ كُلّ مَا يَتَوَقَّع إِذَا ثَبَتَ فِي اَلنَّفْس كَوْنه كَانَ كَأَنَّهُ حَاضِر مُشَاهَد، فَعَلَى ذَلِكَ يَكُونُونَ قَدِّمُوا بِنَاء نَحْو كَمْ وَكَيْفَ حَيْثُ

وَقَبِلَ عِلْمًا بِأَنَّهُمْ سَيَسْتَكْثِرُونَ فِيمَا بَعْد مِنْهَا فَيَجِب لِذَلِكَ تَغيُّرُهَا ."

وَلَا يَقْتَصِر تَطَلُّع اَلْوَاضِع عَلَى اَلْإِفْهَام، بَلْ يَمْتَدّ إِلَى اَلتَّحْسِين أَيْضًا، حَتَّى يَقُول اِبْن اَلْأَثِير فَإِنَّ اَلْوَاضِع لِهَذِهِ اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة اَلَّتِي هِيَ أَحْسَن اَللُّغَات نَظَر إِلَى مَا يَحْتَاج إِلَيْهِ أَرْبَاب اَلْفَصَاحَة وَالْبَلَاغَة فِيمَا يَصُوغُونَهُ مِنْ نُظُم وَنَثْر وَرَأَى أَنَّ مِنْ مُهِمَّات ذَلِكَ اَلتَّجْنِيس، وَلَا يَقُوم بِهِ إِلَّا اَلْأَسْمَاء اَلْمُشْتَرَكَة.. فَوَضَعَهَا مِنْ أَجْل ذَلِكَ.

وَيَتَكَرَّر تَقْرِيرهمْ لِهَذَا اَلْأَصْل اَلْأَصِيل عِنْدهمْ فِي وَضْع اَللُّغَة وَيَمْنَعُونَ اَلشُّبْهَة عَنْهُ فَيُفَسِّرُونَ اِخْتِلَاف لُغَات اَلْعَرَب بِاخْتِلَاف اَلْوَضْع اَلْأَوَّل وَفِي هَذَا يَنْقُل اِبْن جِنِّيّ عَنْ الأخفش مَا عِبَارته: "وَذَهَبَ إِلَى أَنَّ اِخْتِلَاف لُغَات اَلْعَرَب إِنَّمَا أَتَاهَا مِنْ قَبْل أَنْ أَوَّلَ مَا وَضَعَ فِيهَا وَضْع عَلَى خِلَاف، إِنْ كَانَ كُلّه مَسُوقًا عَلَى صِحَّة قِيَاس ثُمَّ أَحْدَثُوا مِنْ بَعْد أَشْيَاء كَثِيرَة لِلْحَاجَةِ إِلَيْهَا، غَيْر أَنَّهَا عَلَى قِيَاس مَا كَانَ وَضْع فِي اَلْأَصْل مُخْتَلِفًا، وَإِنْ كَانَ كُلّ وَاحِد آخِذًا مِنْ صِحَّة اَلْقِيَاس حَظًّا وَيَجُوز أَيْضًا أَنْ يَكُون اَلْمَوْضُوع اَلْأَوَّل ضَرْبًا وَاحِدًا ثُمَّ رَأَى مَنْ جَاءَ مِنْ بَعْد أَنْ خَالَفَ قِيَاس اَلْأَوَّل إِلَى قِيَاس ثَانٍ جَار فِي اَلصِّحَّة مَجْرَى اَلْأَوَّل.

وَيُعَقِّب اِبْن جِنِّيّ عَلَى هَذَا مُؤَيِّدًا فَيَقُول: "وَلَا يَبْعُد عَنِّي مَا قَالَ مِنْ مَوْضِعَيْنِ: أَحَدهمَا سِعَة اَلْقِيَاس، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ جَازَتْ فِيهِ أَوْجُه، وَلَا وَجْهَانِ اِثْنَانِ. وَالْآخَر أَنَّهُ كَانَ يَجُوز أَنْ يَبْدَأ اَلْأَوَّل بِالْقِيَاسِ اَلَّذِي عَدَلَ إِلَيْهِ اَلثَّانِي، فَلَا عَلَيْك أَيّهمَا تُقَدِّم وَأَيّهمَا تَأَخَّرَ، فَهَذَا

طَرِيق اَلْقَوْل عَلَى اِبْتِدَاء بَعْضهَا وَلَحَاق بَعْضهَا".

وَبِمَا سَمِعَتْ يَرُدُّونَ كُلّ شَيْء فِي اَللُّغَة إِلَى اَلْوَضْع اَلَّذِي وَضَعَهُ اَلْوَاضِع اَلْأَوَّل بِحِكْمَة اِسْتَقْبَلَتْ مِنْ أَمْر اَلْحَيَاة مَا استدبر وَتَعَرَّفَتْ اَلْمُسْتَقْبَل فَصَيَّرَتْ اَلْآخَر أَوَّلًا سَوَاء فِي ذَلِكَ اَلْأَحْوَال اَلَّتِي تَعْتَرِي اَلْكَلِمَات فِي اِسْتِعْمَال اَلْمُخَالِفِينَ لَهَا، أَوْ اَلزِّيَادَة اَلَّتِي تَحْتَاج إِلَهَا اَلدُّنْيَا فِيمَا بَعْد مِنْ اَلْكَلِمَات فَوَضَعَتْ اَلْقِيَاس اَلَّذِي يَأْخُذ بِهِ الخالف حِين يَحْتَاج إِلَى اَلزِّيَادَة فِي اَللُّغَة أَوْ يُضْطَرّ إِلَى مُخَالَفَة اَلْوَاضِع اَلْأَوَّل..

عِلْم اَلْوَضْع وَقُوَّة أَصْله هَذَا اَلرَّأْي عِنْدهمْ فِي تَكْوِين اَللُّغَة كَانَتْ سَبَبًا كَافِيًا لِأَنَّ يَجْعَلُوا مِنْ بَيْن عُلُوم اَلْعَرَبِيَّة عِلْمًا خَاصًّا بِهَذَا اَلشَّأْن سُمُوّهُ "عِلْم اَلْوَضْع" وَهُوَ عِلْم يَبْحَث عَنْ أَحْوَال اَللَّفْظ اَلْعَرَبِيّ، مِنْ حَيْثُ مَا يَعْرِف بِهِ شَخْصِيَّة اَلْوَضْع وَنَوْعِيَّته وَخُصُوصه وَعُمُومه إِلَى غَيْر ذَلِكَ.

وَتَسْمَع قَوْلهمْ إِنَّهُ مِنْ اَلْعُلُوم اَلْعَرَبِيَّة وَإِنَّهُ بَاحِث عَنْ أَحْوَال اَللَّفْظ اَلْعَرَبِيّ فَحَسِبَهُ عِلْمًا لُغَوِيًّا ذَا شَأْن وَتَخَالُف وَاحِد فِيهِ مَعَارِف لُغَوِيَّة عَنْ وَضْع اَللُّغَة وَمَا كَانَ مِنْ أَمْره وَأَنَّك مُشْرِف عَلَى مَا يَمُدّ دَرْسك اَلْيَوْم بِشَيْء مِنْ اَلْمَاضِي نَتَبَيَّن بِهِ سَيْر اَلْحَيَاة بِهَذِهِ اَلْعَرَبِيَّة لَكِنَّك لَسْت وَاحِدًا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعِلْم اَلْوَضْع هَذَا لَيْسَ إِلَّا ضَرْبًا مِنْ اَلْكَلَام اَلْفَلْسَفِيّ اَلْعَقْلِيّ فِي اَلْمُسْتَوَى اَلَّذِي كَانُوا يَتَنَاوَلُونَ بِهِ كُلّ الأمول بِالْبَحْثِ اَلنَّظَرِيّ اَلْمُعْتَمِد أَوَّلًا وَقَبْل كُلّ شَيْء عَلَى اَلِاحْتِمَالَات

اَلْفَرْضِيَّة، وَالصُّوَر اَلذِّهْنِيَّة اَلْإِمْكَانِيَّة، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْرُوف مِنْ طَابَع هَذَا اَلدَّوْر فِي اَلْمَعْرِفَة اَلْإِنْسَانِيَّة، وَكَذَلِكَ سَتَجِدُ مَادَّة عِلْم اَلْوَضْع لَا تَعْدُو ضُرُوبًا مِنْ اَلتَّقْسِيم وَالتَّفْرِيغ لَا مُقْسِم فِيهَا إِلَّا اِعْتِبَارَات نَظَرِيَّة لَا أَكْثَر.. ثُمَّ يَجْرِي اَلْخِلَاف فِي تَفْسِير مَا بَيْن هَذِهِ اَلْأَقْسَام والتفاريع وَتَدَاخُلهَا فَأَبْحَاث عِلْم اَلْوَضْع لَيْسَتْ إِلَّا مِنْ مِثْل:

١ – اَلْوَضْع يَنْقَسِم إِلَى شخي وَنَوْعِيّ، وَالشَّخْصِيّ هُوَ وَضْع لَفْظ بِخُصُوصِهِ كَأَكْل.. وَالنَّوْعِيّ هُوَ وَضْع لَفْظ دَاخِل تَحْتَدّ قَاعِدَة كُلِّيَّة، كَوَضْع اَلْمُشْتَقَّات فَهِيَ مَوْضُوعَة كُلّهَا بِوَضْع وَاحِد تَحْت جُزْئِيَّات كَثِيرَة.

٢ - اَلْوَضْع تَحْقِيقِي، وَتَأْوِيلِي، فَالْأَوَّل مَا لَا يَحْتَاج فِيهِ اَللَّفْظ اَلْمَوْضُوع إِلَى قَرِينَة كَوَضْع اَلْحَقَائِق، وَالثَّانِي مَا يَحْتَاج اَلْمَوْضُوع فِيهِ إِلَى قَرْنِيَّة كَوَضْع اَلْمَجَازَات وَالْكِنَايَات، وَيَتَدَاخَل هَذَا اَلتَّقْسِيم مَعَ سَابِقه فَيَقُولُونَ إِنَّ اَلْوَضْع التأويلي كُلّه نَوْعِيّ وَأَمَّا اَلْوَضْع التحقيقي فَقَدْ يَكُون نَوْعِيًّا كَوَضْع اَلْمُشْتَقَّات، وَقَدْ يَكُون شَخْصِيًّا كَوَضْع أَعْلَام اَلْأَشْخَاص.

وَلَا يَمْتَدّ اَلْعِلْم رَغْم هذأ اَلِاسْم اَلضَّخْم، وَإِلَى أَكْثَر مِنْ عِدَّة تَقْسِيمَات تُثِير حَفْنَة خِلَافَات، لَا مَحْصُول لَهَا.. كَمَا لَا أَهَمِّيَّة لِلتَّقْسِيمَاتِ نَفْسهَا، فَكَانَ عِلْم اَلْوَضْع عِلْمًا بَلْ شَيْئًا - هَزِيلًا ضَامِرًا، لَمْ تَشْعُر اَلْحَيَاة بِحَاجَة إِلَى نُمُوّهُ، فَظَلَّ فِي تِلْكَ اَلْحُدُود اَلضَّيِّقَة أَقْسَامًا

تَرَدُّد، وَخِلَافَات حَوْلهَا، لَا عُمْق فِيهَا وَلَا أَثَر لِشَيْء مِنْهَا إِلَّا فِي حَيَاة كَحَيَاة تِلْكَ اَلْأَيَّام اَلَّتِي ظَهَرَ وَعَاشَ فِيهَا عِلْم اَلْوَضْع: حَيَاة صِنَاعِيَّة مُتَكَلِّفَة، يَرْتَزِق فِيهَا نَاس بِأَشْيَاء يرهمون بِهَا أَوْ يُعْمُونَهَا عَلَى اَلنَّاس، أَوْ يُقَدِّرُونَ عَلَى غَيْر أَسَاس أَنَّ لَهَا شَيْئًا مِنْ اَلْأَهَمِّيَّة - إِنْ قُدِّرُوا.

وَنَنْظُر اَلْيَوْم إِلَى هَذَا اَلْقَوْل اَلَّذِي سَمِعَتْ فِي تَكَوُّن اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة، وَأَنَّ طَرِيق هَذَا اَلتَّكَوُّن إِنَّمَا كَانَ هُوَ وَضْع وَاضِع جَعْل اَلْآخَر أَوَّلًا، وَتَبَيَّنَتْ حِكْمَته حَاجَة اَلْأَجْيَال وَالْآبَاد، فَدَبَّرَ لَهَا، وَنُظُم اَلِاخْتِلَاف عَلَيْهَا.. نَنْظُر فِي هَذَا فَنَشْعُر شُعُورًا قَوِيًّا بِأَنَّ فِي اَلْأَمْر عَلَى هَذَا اَلْبَيَان مُخَالَفَة لِطَبَائِع اَلْأَشْيَاء، لِأَنَّ سِيَرَ اَلْحَيَاة فِيمَا تُبَيِّن لَيْسَ إِلَّا نُشُوءًا يَعْقُبهُ اِرْتِقَاء وَخَالَفَا يَكْبُر عَنْ سَالِف، فَكَيْفَ يَكُون اَلْأَمْر فِي اَللُّغَة عَلَى عَكْس هَذَا!؟

لَكِنْ مَا يَبْدُو لَنَا غَرِيبًا هَكَذَا لَمْ يَكُنْ فِي مَنْطِق اَلْقَوْم عَلَى هَذِهِ اَلْغَرَابَة، فَإِنَّك لِتَعْرِف أَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ اَلدُّنْيَا نِصْف، قَدْ ذَهَبَ خَيْر نِصْفَيْهَا، وَيُقَرِّرُونَ أَنَّ اَلْأَوَّل قَدْ ذَهَبَ بِالْمَعْرِفَةِ كُلّهَا، كَمَا ذَهَبَ بِالْخَيْرِ كُلّه وَأَنَّ أَفْضَل اَلْقُرُون قَدْ مَضَى مُنْذُ أَكْثَر مِنْ عَشَرَة قُرُون.. فَالنِّظَام عِنْدهمْ لَيْسَ نُشُوءًا وَتَرَقِّيًا.. بَلْ هُوَ تَنْزِل وَتَدَهْوُر بَعْد كَمَال وَفَضْل وَمِنْ هُنَا تُدْرِك أَنَّ أَسَاس اَلْخِلَاف فِكْرِيّ جَوْهَرِيّ عَام.. يَمْتَدّ إِلَى أَشْيَاء كَثِيرَة، وَلَا يَقْتَصِر عَلَى اَللُّغَة بَلْ يَمَسّ اَلنَّظْرَة اَلْكُبْرَى فِي سَيْر اَلْوُجُود كُلّه لَا سَيْر اَللُّغَة فَقَطْ عَلَى أَنَّك مَهْمَا تَغُضّ عَنْ اَلنَّظَر فِي

هَذَا اَلْأَصْل اَلْبَعِيد لِمَنْطِق اَلتَّفْكِير فِي عَصْره وَعَصْرهمْ لَا تَلْبَث- مَهْمَا تَكُنْ مُتَسَامِحًا - أَنْ تَسْتَكْثِر هَذَا اَلَّذِي يَدْعُونَهُ لِلْقَوْمِ البداة مِنْ اَلْحِكْمَة اَلشَّامِلَة، وَالنَّظْرَة اَلنَّافِذَة اَلَّتِي تَطَلَّعَتْ فِي بَدَاوَتهَا اَلسَّاذَجَة مِنْ وَرَاء اَلْأَجْيَال اَلْكَثِيرَة إِلَى اَلْمَطَالِب اَلْإِنْسَانِيَّة الغلوية اَلنَّامِيَة وَمَا سَيَقِلُّ فَجَلَتْ آخِر هَذَا عَلَى حَال، وَآخِر ذَاكَ عَلَى حَال أُخْرَى الخ.

وَلَقَدْ يدفعك إِلَى اَلشُّعُور بِهَذَا اَلِاسْتِكْثَار، بَلْ اَلِاسْتِبْعَاد إِسْرَاف اَلْكَاتِبِينَ فِي الإعظام مِنْ شَأْن هَذِهِ اَلْحِكْمَة وَتَكْرَار اَلْقَوْل فِيهَا.. فَهَذَا صَاحِبنَا "اِبْن جِنِّيّ" يَعْقِد بَابًا فِي كِتَابه اَلْخَصَائِص فِي أَنَّ اَلْعَرَب قَدْ أَرَادَتْ مِنْ اَلْعِلَل وَالْأَغْرَاض مَا نَسَبْنَاهُ إِلَيْهَا وَحَمَلْنَاهُ عَلَيْهَا... وَيَشْغَل هَذَا اَلْبَاب فِي اَلْجُزْء اَلْأَوَّل بِضْع عَشْرَة صَفْحَة – مِنْ ٢٣٧ إِلَى ٢٥١ لَا يَزَال اَلشَّيْخ يُرَدِّد فِيهَا مِثْل قَوْله: وَهُوَ أَحْزِم لَهَا - اَلْعَرَب – وَأُجْمِل بِهَا و أَدُلّ عَلَى اَلْحِكْمَة اَلْمَنْسُوبَة إِلَيْهَا. وَقَوْله لِأَنَّ اَللَّه سُبْحَانه إِنَّمَا هَدَاهُمْ لِذَلِكَ وَوَقَفَهُمْ عَلَيْهِ، لِأَنَّ فِي طِبَاعهمْ قَبُولًا لَهُ اِنْطِوَاء عَلَى صِحَّة اَلْوَضْع فِيهِ لِأَنَّهُمْ مَعَ مَا قَدَّمْنَا مِنْ ذِكْر كَوْنهمْ عَلَيْهِ فِي أَوَّل اَلْكِتَاب مِنْ لُطْف اَلْحِسّ وَصَفَائِهِ ونصاعة جَوْهَر اَلْفِكْر وَنَقَائِهِ. الخ مَا يُطِيل فِيهِ مِنْ بَيَان أَنَّهُ إِنْ كَانَتْ اَللُّغَة وَحَيًّا فَهُمْ اَلْمُصْطَفَوْنَ وَإِنْ كَانَتْ شَيْئًا اِصْطَلَحُوا عَلَيْهِ فَهُوَ مفخر لَهُمْ وَمَعْلَم مِنْ مَعَالِم اَلسَّدَاد دَلَّ عَلَى فَضِيلَتهمْ... وَفِي أَثْنَاء ذَلِكَ يَقُول فَهَلْ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ يَحْتَاطُونَ وَيُقَاسُونَ وَلَا يُفَرِّطُونَ وَلَا يَخْلِطُونَ.

وَهَذَا وَمَا إِلَيْهِ مِنْ حَدِيث لِغَيْر اِبْن جِنِّيّ لَا يُقِلّ مُبَالَغَة عَنْهُ مِمَّا يَدْفَعك مُكْرَهًا إِلَى اَلنُّفُور مِنْ أُسْلُوبهمْ فِي تَقْرِير هَذَا اَلْوَضْع وَاعْتِمَاده عَلَى تِلْكَ اَلْحِكْمَة اَلْعَقْلِيَّة اَللُّغَوِيَّة لِأَهْل اَلْعَرَبِيَّة وَلُطْف اَلْحِسّ وَدِقَّة اَلْإِدْرَاك مِمَّا نُسَلِّم لِلْعَرَبِ بِهِ بَلْ بِأَكْثَر مِنْهُ لَوْ لَمْ يَجْعَل سَبَبًا لِهَذَا اَلْوَضْع اَللُّغَوِيّ اَلسَّابِق لِلْحَيَاةِ، بِالْإِغْوَاءِ لِوَاقِعِهَا!!

عَلَى أَنَا لَا نَقِف فِي نَقْد اَلْقَوْل بِالْوَضْعِ عِنْد هَذِهِ اَلْعَاطِفِيَّات، وَلَا عِنْد اَلْقَضَايَا اَلْبَعِيدَة فِي مَنْطِق اَلتَّفْكِير اَلْعَامّ أَوْ اَلْخَاصّ.. بَلْ نَرْجِع مِنْ ذَلِكَ إِلَى مَا اِرْتَضَيْنَا مِنْ مَنْهَج عِلْمِيّ فِي فَحْص اَلْحَقَائِق اَللُّغَوِيَّة عَلَى نَحْو مَا بَيَّنَاهُ آنِفًا فِي نَقْد اَلْجَمْع اَللُّغَوِيّ وَنَوَدّ أَنْ نَنْتَفِع - كَمَا اِتَّفَقْنَا مِنْ قَبْل -بِمَا عَسَى أَنْ يَكُون فِي اَلْمَقَام مِنْ تَشْخِيص بِالْإِغْوَاءِ اَللُّغَوِيّينَ اَلْآن فَلَا نَجِد - فِيمَا عَرَفْنَا - قَوْلًا لِلْمُحْدَثِينَ وَفِي تَقْدِير مَا قَرَّرَهُ اَلْأَقْدَمُونَ مِنْ حَدِيث عَنْ وَضْع اَللُّغَة بَلْ عَلَى اَلْعَكْس نَجِد مِنْ حَدِيث أَصْحَاب اَللُّغَة وَأَصْحَاب اَلْأَدَب جَمِيعًا مَا لَا يُلْفِت إِلَى شَيْء مِنْ نَقْد تِلْكَ اَلْمُقَرَّرَات وَلِلْمُعْجَبِينَ فِي اَلْوَضْع وَأَنَّهُ مِنْ حَقّ اَلْمُحْدَثِينَ كَمَا كَانَ مِنْ عَمَل اَلْقُدَمَاء مَا سَتَقِفُ بُعْد اَلنَّظَر فِيهِ وَالْمُلَاحَظ عَلَيْهِ!!

وَإِذَنْ فَسَنُمْضِي إِلَى فَحْص هَذَا اَلْوَضْع اَللُّغَوِيّ بِعَرْضِهِ عَلَى اَلْمُقَرَّرَات اَللُّغَوِيَّة اَلَّتِي أَخَذَتْ مِنْ اَلْأُسْلُوب اَلتَّجْرِيبِيّ فِي دَرْس اَلِاجْتِمَاع اَللُّغَوِيّ، لِنَعْرِف كُلّ مَا تَسْمَح بِهِ طَبِيعَة اَللُّغَة مِنْ اَلْوَضْع عَلَى نَحْو مَا وَصَفُوهُ..؟ مُقَدِّرِينَ أَنَّ هَذِهِ اَلْمُقَرَّرَات اَلْجَدِيدَة أَشْبَه مَا

تكُون بمخابير اَلْفَحْص اَلْعِلْمِيّ اَلْمَادّيّ.. أَوْ أُشَبَّه بِالْأَشِعَّةِ اَلنَّفَّاذَة اَلْكَاشِفَة كَمَا قُلْنَا.

وَقَدْ هَذِهِ اَلْمَيْدَان، نَسْمَع تَقْرِير اَلْمُحَدّثِينَ أَنَّ اَللُّغَة لَيْسَتْ إِلَّا ظَاهِرَة اِجْتِمَاعِيَّة وَتِلْكَ اَلظَّوَاهِر لَا تَقُوم إِلَّا عَلَى غَيْر مَا تَصَوَّرَهُ اَلْأَقْدَمُونَ مِنْ أُمُور عَقْلِيَّة، مَنْطِقِيَّة وَأَعْمَال صِنَاعِيَّة تَحَكُّمِيَّة.

فَيَقُول هَؤُلَاءِ اَلْمُحْدَثُونَ: إِنَّ اَللُّغَة – أَيّ لُغَة كَانَتْ – إِنَّمَا هِيَ ضَرْب مِنْ اَلنُّظُم اَلِاجْتِمَاعِيَّة وَالظَّوَاهِر اَلْإِنْسَانِيَّة، اَلْعَامَّة اَلَّتِي يَتَوَلَّى دَرْسهَا ذَلِكَ اَلْعَلَم اَلْمُخْتَصّ بِهَذَا اَلْجَانِب مِنْ اَلدِّرَاسَات اَلْإِنْسَانِيَّة، وَهُوَ " عِلْم اَلِاجْتِمَاع" وَيَتَّخِذ لِتِلْكَ اَلدِّرَاسَة اَلْمَنْهَج اَلْعِلْمِيّ اَلْمُحْدَث، قَدْر مَا تُعَيّن طَبِيعَة اَلْمَادَّة اَلْمَدْرُوسَة. وَيَخُصّ اَلظَّاهِرَة اَللُّغَوِيَّة بِفَرْع مِنْهُ خَاصّ هُوَ: "عِلْم اَلِاجْتِمَاع اَللُّغَوِيّ." وَأَصْحَاب هَذَا اَلْعِلْم يُقَرِّرُونَ: أَنَّ هَذِهِ اَلنُّظُم اَلْعَامَّة اَلَّتِي تَقُوم عَلَيْهَا حَيَاة اَلْجَمَاعَة اَلْبَشَرِيَّة وَعَلَيْهَا تُبْنَى اَلْعَلَاقَات وَالرَّوَابِط بَيْن أَفْرَاد هَذِهِ اَلْجَمَاعَة بَعْضهمْ بَعْضًا وَبَيْنهمْ وَبَيْن غَيْرهمْ مِنْ اَلْكَائِنَات.. هَذِهِ اَلنُّظُم اَلْجَمَاعِيَّة وَمِنْهَا اَللُّغَة تَتَحَقَّق فِيهَا كُلّهَا خَصَائِص مُطَّرِدَة لَا تَتَخَلَّف وَطَبَائِع مُشْتَرَكَة لَا تَشِذّ عَنْهَا أَيّ وَاحِدَة مِنْ تِلْكَ اَلظَّوَاهِر اَلْجَمَاعِيَّة وَالنُّظُم اَلِاجْتِمَاعِيَّة وَلَئِنْ كُنَّا لَا تُعْرِض هُنَا اَلْحَدِيث عَنْ تِلْكَ اَلْخَصَائِص اَلْمُمَيَّزَة لهاتيك اَلنُّظُم وَالظَّوَاهِر فَإِنَّا نَكْتَفِي بِالْحَدِيثِ عَمَّا يُغْنِينَا فِي هَذَا اَلْفَحْص عَنْ حَقِيقَة ظُهُور اَللُّغَة بِمَا هِيَ وَاحِدَة مِنْ تِلْكَ اَلنُّظُم اَلْآدَمِيَّة

التجميعة. فَنُشِير إِلَى حَدِيث اَلِاجْتِمَاعِيِّينَ عَنْ أَنَّ تِلْكَ اَلظَّوَاهِر اَلْجَمْعِيَّة لَيْسَتْ صِنَاعَة فَرْد بِعَيْنِهِ أَوْ أَفْرَاد بِعَيْنِهِمْ، ولاعمل جِيل بِذَاته، وَلَا تَوْجِيه فِيهَا لِعَقْل اَلْفَرْد، أَوْ اَلْإِرَادَة اَلْفَرْدِيَّة، وَلَا تَأْثِير لَهُ عَلَيْهَا، فَلَا هُوَ يَسْتَطِيع دَفْعهَا إِذَا أَرَادَ، وَلَا هُوَ يَسْتَطِيع صَدّهَا إِذَا شَاءَ، وَمَا هُوَ، وَلَا قَوْمه مُجْتَمَعَيْنِ بِمُسْتَطِيعِينَ أَنْ يُقَدِّمُوا مِنْ أَمْرهَا شَيْئًا أَوْ يُؤَخِّرُوهُ فَلَا هُمْ يَتَدَخَّلُونَ تَدَخُّلًا إِرَادِيًّا فِي وُجُودهَا، وَلَّاهُمْ يُسْهِمُونَ فِي تَنْظِيمهَا، وَلَّاهُمْ يختطون طَرِيقهَا، وَكُلّ مَا تَتَعَرَّض لَهُ وَمَا يُوَاجِههَا مِنْ دَوَافِع أَوْ مَوَانِع، أَوْ مُنَشِّطَات أَوْ مُعَوِّقَات، وَمَا تَأْخُذ وَمَا تَدَع، وَمَا تَفْعَل موما تَنْفَعِل، وَمَا يَنَالهَا بِكُلّ أُولَئِكَ مِنْ تَغَيُّر وَتَحَوُّل، أَوْ تَوَسُّع وَتَبَسُّط، أَوْ تَوَقُّف وَتَعَطُّل، لَا يَكُون شَيْء مِنْهُ إِلَّا مِنْ نَتَائِج اَلْعَقْل اَلْجَمْعِيّ، وَمُقْتَضَيَات اَلْوُجُود التجمعي، وَهُوَ مَالًا يَنْفِي فِيهِ مَنْطِق اَلْأَفْرَاد وَلَا يَثْبُت، وَلَا تُعْطَى فِيهِ إِرَادَتهمْ وَلَا تُمْنَع، وَلَنْ يُغَيِّرُوا أَبَدًا مِنْ وَاقِع اَلْقَوَانِين اَلِاجْتِمَاعِيَّة اَلثَّابِتَة اَلْمُطَّرِدَة.

وَبِحَسْبنَا هَذِهِ اَلْخَاصَّة مِنْ خَوَاصّ اَلنُّظُم اَلِاجْتِمَاعِيَّة نُطَبِّقهَا عَلَى اَللُّغَة اَلَّتِي هِيَ إِحْدَى تِلْكَ اَلظَّوَاهِر اَلْجَمَاعِيَّة... وَنَعْتَدّهَا جِهَازًا فَاحِصًا، يَكْشِف عَمَّا قَدَّمْنَا مِنْ رَأْي فِي وَضْع اَللُّغَة، إِذَا مَا عَرَضْنَاهَا عَلَيْهِ، وَسَلَّطْنَا عَلَيْهَا أَشِعَّته اَلْكَاشِفَة، فَنَتَبَيَّن سَرِيعًا وَفِي وُضُوح أَنَّ مَا زَعَمَهُ اَلزَّاعِمُونَ مِنْ عَمَل اَلْأَفْرَاد، أَوْ اَلْكَثْرَة، فِي تَكْوِينهَا وَوَضْعهَا لَا يُؤَيِّدهُ شَيْء مِنْ طَبِيعَة اَللُّغَة.

وَسَيَتَبَيَّنُ لَنَا كَذَلِكَ بِأَسْرَع وَأَوْضَح مِمَّا سَبَقَ أَنْ إِدْرَاك هَذَا اَلْفَرْد اَلْمُمْتَاز، أَوْ اَلْكَثْرَة اَلْحَكِيمَة لِمُسْتَقْبَل اَللُّغَة، وَاحْتِيَاطهمْ لِآخِر أَمْرهَا، وَمُتَوَقَّع مُسْتَقْبَلهَا بِأَحْوَال فِي كَلِمَاتهَا، أَوْ صِفَات فِي جُمَلهَا، أَوْ مَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ تَفْسِير لِاسْتِعْمَالهَا أَوْ تَحْسِين فِي حَالهَا، وَتَكْمِيل لِوُجُودِهَا، عَلَى نَحْو مَا سَمِعَا اَلْكَثِير مِنْهُ قَرِيبًا.. كُلّ ذَلِكَ لَا تَحْتَمِل تَصْدِيقه طَبِيعَة اَللُّغَة عَلَى مَا عَرَّفَهَا اَلْبَحْث اَلِاجْتِمَاعِيّ، فَلَيْسَ لِوَضْع اَلْوَاضِع اَلْأَوَّل، بِحِكْمَتِهِ وَحَسَن تَأْتِيهِ – وُجُود.. وَلَا سَنَد.

* * *

وَيَلِي ذَلِكَ بِطَبِيعَة اَلْحَال أَنَّ هَذَا اَلَّذِي اِصْطَنَعُوا مِنْ عِلْم سُمُّوّهُ "عِلْم اَلْوَضْع" يَصِف بِطَرِيق نَظَرِيَّة اِحْتِمَالِيَّة صَنِيع هَذَا اَلْوَضْع اَلْأَوَّل وَيُنَسِّقهُ، وَيُفَسِّرهُ، وَيَجْرِي اَلْخِلَاف بِشَأْنِهِ بَيْن عُلَمَائِنَا وَتُحَفَّظهُ كُتُب وَتُفْرَد لَهُ دِرَاسَة.. كُلّ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَقْبَلهُ اَلْمَنْهَج اَلِاجْتِمَاعِيّ، وَلَا يُحْتَمَل أَنْ يُقِرّ فِيهِ شَيْئًا، أَوْ يُفْسِح صَدْره، لِقَلِيل مِنْهُ أَوْ كَثِير لِأَنَّ اَللُّغَة عِنْده – كَمَا سَمِعَتْ – لَيْسَتْ إِلَّا نَشَاطًا اِجْتِمَاعِيًّا، وَلَا اِجْتِهَادًا عَقْلِيًّا، وَتَدْبِيرًا مَنْطِقِيًّا.. وَلَا مَجَال لِعَمَل اَلْفَرْد أَوْ اَلْأَفْرَاد فِيهَا إِلَّا مَا قَدْ يَكُون مِنْ تَأْثِير لِنَفْسِيَّاتِهِمْ، أَوْ شُؤُونهمْ اَلْعَمَلِيَّة اَلْحَيَوِيَّة عَلَى هَذَا اَلنِّظَام اَللُّغَوِيّ، اَلَّذِي أُنْتِجهُ اَلْعَقْل اَلْجَمَاعِيّ، فَبَرَزَ فِي اَلدُّنْيَا كَائِنًا حَيًّا بَيْن سَائِر اَلْكَائِنَات، مَادِّيَّة وَمَعْنَوِيَّة، يَتَأَثَّر بِهَا وَيُؤَثِّر فِيهَا، إِذْ يَتَفَاعَل مَعَهَا، فَيَكُون ذَلِكَ فِي حَيَاة اَلظَّاهِرَة اَللُّغَوِيَّة مَعَ اَلظَّوَاهِر اَلْأُخْرَى لِلْجَمَاعَةِ

مِنْ نِظَام سِيَاسِيّ، أَوْ نِظَام اِقْتِصَادِيّ أَوْ نِظَام دِينِيّ... وَمَا إِلَى ذَلِكَ.. وَيَظْهَر أَثَر اَلتَّفَاعُل بَيْن اَللُّغَة وَسِوَاهَا فِي حَيَاتِهَا وتَغَيُّرِهَا، وَسَيْر اَلزَّمَان بِهَا.

وَيَجْرِي هَذَا اَلتَّفَاعُل وَالِانْفِعَال طِبْقًا لِلسُّنَنِ اَلِاجْتِمَاعِيَّة اَلَّتِي يَكْشِفهَا هَذَا اَلدَّرْس اَلِاجْتِمَاعِيّ، فَتَتَبَدَّى لَهُ قَوَانِينهَا ثَابِتَة، مَاضِيَة، مُطَّرِدَة، لَا بُدّ لِأَحَد بِالتَّغْيِيرِ فِيهَا.. وَإِذَا مَا اِسْتَقَرَّتْ هَذِهِ اَلْحَقِيقَة مِنْ خَصَائِص اَللُّغَة بِمَا هِيَ نِظَام اِجْتِمَاعِيّ، اِتَّضَحَ لَنَا أَنَّ اَللُّغَات اَلصِّنَاعِيَّة اَلْمَبْنِيَّة عَلَى خَطِّه مَنْطِقِيَّة، قَدْ وَضَعَتْ مُقَدَّمًا، غَيْر مُمْكِنَة اَلْوُقُوع إِلَّا إِذَا كَانَتْ لُغَات خَاصَّة: لُغَات فَنِّيَّة، وَلَوَائِح إِعْلَانَات، فَفِي هَذِهِ اَلْحَال يَكْفِي اَلِاتِّفَاق بَيْن اَلْأَشْخَاص اَلْمَعْدُودِينَ اَلَّذِينَ يَسْتَعْمِلُونَهَا لِلِاحْتِفَاظِ بِهَا كَمَا خَلَقَتْ دُون تَغْيِير.

* * *

اَلنَّتَائِج

١ –لَيْسَ مِنْ اَلْمُسْلِم اَلْقَوْل بِأَنَّ اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة تَكَوَّنَتْ بِالْوَضْعِ عَلَى اَلنَّحْو اَلَّذِي سَمِعْنَا مِنْهُمْ شَرْحه.

٢ – لَا مَكَان لِهَذَا اَلَّذِي يُسَمُّونَهُ عَلَم اَلْوَضْع، وَلَا جَدْوَى فِي اَلِاشْتِغَال بِهِ اَلْيَوْم، لِأَنَّهُ يَقُوم عَلَى أَسَاس مُنَاقِض لِطَبِيعَة اَللُّغَة اِجْتِمَاعِيًّا وَقَدْ أَدْرَكْنَا مِنْ قَبْل أَنَّهُ عَمَل عَقْلِيّ صِنَاعِيّ لَا لُغَوِي.. أَمَّا

وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ قَائِم عَلَى فَوَّضَ غَيْر مُمْكِن اَلْوُقُوع، وَهُوَ بِنَاء اَلْعَرَبِيَّة عَلَى خُطَّة مَنْطِقِيَّة قَدْ وَضَعَتْ مُقَدَّمًا، فَالِاشْتِغَال بِهِ، كَمَا يَبْدُو، لَيْسَ إِلَّا ضَرْبًا مِنْ اَلْعَبَث اَلْوَاضِح.

٣ – أَنَّ اَلتَّطَوُّر أَصْل أَصِيل فِي حَيَاة اَللُّغَة بِمَا هِيَ كَائِن اِجْتِمَاعِيّ... وَأَسَاس اَلتَّطَوُّر هُوَ اَلْوُجُود اَلْبَسِيط أَوَّلًا، ثُمَّ اَلْمَاء المترقى ثَانِيًا، وَخِلَال هَذَا اَلِانْتِقَال يَتَكَوَّن اَلْكَائِن مترقيا، وَيَتَغَيَّر تَغَيُّرَات مُتَدَرِّجَة.

وَمَعْرِفَة هَذِهِ اَلتَّغَيُّرَات، وَمَا خَلَّفَتْ فِي كِيَان اَلْحَيّ هِيَ اَلْأَسَاس اَلَّذِي تُبْتَنِي عَلَيْهِ كُلّ مَعْرِفَة لِهَذَا اَلْحَيّ، وَأَجْهِزَة جِسْمه، وَحَالَتهَا اَلسَّوِيَّة، أَوْ ظَوَاهِر اَلِانْحِرَاف فِيهَا.

وَكُلَّمَا كَمَّلَتْ هَذِهِ اَلْمَعْرِفَة بِالْحَيِّ أُمّكُنَّ تَدْبِير وَجُوده، بِمَا يُنَمِّيه وَيُكْمِلهُ.. وَأَمْكَنَ أَنْ نَطِبْ لَهُ، فنوقيه مَا يُمَرِّضهُ، أَوْ يُضْعِفهُ، وَنُرَدِّد عَلَيْهِ عَازِب اَلْعَافِيَة وَعَلَى ذَلِكَ لَنْ نَهْتَدِي إِلَى صَوَاب مِنْ اَلرَّأْي فِي مُشْكِلَات حَيَاتنَا اَللُّغَوِيَّة إِلَّا إِذَا مَا أَخَذْنَا أَنْفُسنَا فِي تَبَيُّن هَذِهِ اَلْمُشْكِلَات بِالْمَنْهَجِ اَلَّذِي يُقَرِّر عَكْس مَا قَرَّرَهُ اَلْأَقْدَمُونَ فِي تَكَوُّن اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة وَحَيَاتهَا... فَإِذَا مَا قَالُوا: إِنَّهَا كَامِلَة دَقِيقَة أَوَّلًا، ثُمَّ فَدَتْ وَاضْطَرَبَتْ، قَالَ هَذَا اَلْمَنْهَج إِنَّهَا كَانَتْ نَامِيَة مُتَغَيِّرَة مُتَّكِلَة، وَلَهَا فِي ذَلِكَ تَارِيخ حَيَوِيّ وَمَرَضِيّ لَابُدَّ مِنْ مَعْرِفَته قَبْل أَنْ تَقُولُوا بِفَسَادِهَا وَاضْطِرَابهَا، أَوْ بِمَ فَدَتْ؟ أَوْ لِمَ اِضْطَرَبَتْ؟! وَتِلْكَ هِيَ اَلْمُهِمَّة اَلْكُبْرَى،

بَلْ اَلْهَائِلَة، لِمَنْ يَتَحَدَّث عَنْ مُشْكِلَات حَيَاتنَا اَللُّغَوِيَّة حَتَّى يَكُون حَدِيثه سَلِيم اَلْأَسَاس.

وَأَخِيرًا فَإِنَّا نُؤَثِّر أَلَّا نَدَع اَلْقَوْل فِي وَضْع اَللُّغَة اَلْقَدِيم قَبْل أَنْ نُكْمِلهُ بِمَا يُقَال اَلْيَوْم عَنْ اَلْإِخْصَائِيِّينَ عَنْ:

اَلْوَضْع اَللُّغَوِيّ اَلْجَدِيد اَلَّذِي أُثِيرَ اَلْقَوْل فِيهِ مِنْ اَلْمُجْتَمِعِينَ وَكَانَتْ لَهُمْ فِي اَلْوَضْع اَلْجُدُد مُقَرَّرَات رَسْمِيَّة وَأَبْحَاث عِلْمِيَّة يَنْبَغِي أَنْ تَقِف عِنْدهَا لِأَنَّهَا عَلَى اَلْأَقَلّ تُلْقِي أَضْوَاء سَاطِعَة عَلَى فَهْم اَلْوَضْع اَللُّغَوِيّ وَمَدَى تَأْثِيره فِي تَكْوِين اَللُّغَة بِالْأَمْسِ ثُمَّ فِي نَمَائِهَا اَلْيَوْم.

وَقَدْ كَانَ تُعَرِّضهُمْ لِلْوَضْعِ اَللُّغَوِيّ بِمُنَاسَبَة مَا سَمِعَتْ قَرِيبًا مِنْ عَتَبَ بَعْض اَلْمَجْمَعِيِّينَ عَلَى بَعْض اِشْتِغَال اَلْمَجْمَع ثَمَانِيَة عَشَر عَامًا بِلُغَة اَلْخَاصَّة لُغَة اَلْفَلَاسِفَة وَالْعُلَمَاء وَالْحَقْل وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ حِيَادًا مِنْ اَلْمَجْمَع فِي مَسْأَلَة اَلسِّبَاق بَيْن اَلْفُصْحَى وَالْعَامِّيَّة جُعِلَ اَلْأَمَل فِي تَغَلُّب اَلْفُصْحَى أَبْعَد مِمَّا يَظُنّ وَمَضَى هَذَا العتب يَدْفَع اَلْمُجَمَّع إِلَى اَلْعِنَايَة بِلُغَة اَلْعَامَّة عِنَايَة عَمَلِيَّة فَانْتَهَى إِلَى اِقْتِرَاح فِي اَلْوَضْع هُوَ:

فَتْح بَاب اَلْوَضْع عَلَى مِصْرَاعَيْهِ بِوَسَائِلِهِ وَهِيَ: اَلِارْتِجَال وَالِاشْتِقَاق والتجوز وَانْتَهَى اَلْأَمْر بِهَذَا اَلِاقْتِرَاح بَعْد بَحْثه فِي اَلْمُؤْتَمَر وَلَجْنَة اَلْأُصُول إِلَى أَنْ يُقَرِّر اَلْمُجَمَّع قَبُول أَوْضَاع اَلْمُحْدَثِينَ وَالسَّمَاع مِنْهُمْ بِمَا نَصَّهُ: -

١ - تَدْرُس كُلّ كَلِمَة مِنْ اَلْكَلِمَات اَلشَّائِعَة عَلَى أَلْسِنَة اَلنَّاس عَلَى أَنْ يُرَاعِي هَذِهِ اَلدِّرَاسَة أَنْ تَكُون اَلْكَلِمَة مُسْتَسَاغَة وَلَمْ يَعْرِف لَهَا مُرَادِف عَرَبِيّ سَابِق صَالِح لِلاسْتِعْمَالِ

٢ - وَقَدْ رَأَى أَحَد اَلْأَعْضَاء أَنَّ هَذَا اَلْقَرَار اَلْأَخِير شَامِل لِمَا كَانَ اِقْتَرَحْهُ مِنْ تَوْثِيق مَنْ يَرَى اَلْمُجَمَّع صِحَّة أُسْلُوبه وَاسْتِقَامَة عَرَبِيَّته مِنْ اَلْكِتَاب وَالشُّعَرَاء وَجَعَلَ قَوْله مَدَدًا لِلُغَة وَحُجَّة فِيهَا.

وَنَحْنُ بِحَيْثُ نَقُول شَيْئًا فِي هَذَا اَلِاتِّجَاه اَلْمُتَحَرِّر لَكُنَّا نُرْجِئهُ اَلْآن إِلَى مَكَان لَهُ فِيمَا بَعْد سَيَكُونُ أَشَدّ مُنَاسَبَة وَإِنَّمَا يَعْنِينَا هُنَا أَنْ نَسْتَفْسِر عَنْ مَعْنَى اَلْوَضْع فِي اَلِاقْتِرَاح اَلسَّابِق.

ثُمَّ نَسْتَفْسِر عَمَّا يَكُون أَنْ يَقَع اَلْيَوْم وَضْع بِالْمَعْنَى اَللُّغَوِيّ...فَأَمَّا اَلِاسْتِفْسَار اَلْأَوَّل عَنْ مَعْنَى اَلْوَضْع فِي اِقْتِرَاح اَلْمُقْتَرَح بَاب اَلْوَضْع عَلَى مِصْرَاعَيْهِ بِوَسَائِلِهِ اَلْمَعْرُوفَة وَهِيَ اَلِارْتِجَال وَالِاشْتِقَاق والتجوز أَمَّا هَذَا اَلِاسْتِفْسَار فَعَنْ مُرَاده بِالْوَضْعِ؟ وَهَلْ وَسَائِل اَلْوَضْع مِنْ اَلِاشْتِقَاق والتجوز هِيَ مِثْل اَلِارْتِجَال تَمَامًا فِي تَحْقِيق مَعْن اَلْوَضْع فَتُعَدّ مَعَهُ؟

وَقَدْ قَدَّمْنَا مَعْنَى اَلْوَضْع فِي تَكَوُّن اَللُّغَة وَأَنَّهُ تَعْيِين لِلَّفْظِ بِإِزَاء اَلْمَعْنَى بِحَيْثُ يَفْهَم مِنْهُ هَدًّا اَلْمَعْنَى عِنْد اَلْعِلْم بِذَلِكَ اَلتَّعْيِين فَهُوَ يُعْطِي اَللَّفْظ وَيُعْطِيه اَلْمَعْنَى أَيْ أَنَّهُ كَمَا يَفْهَم مِنْ قَوْلهمْ بِوُضُوح لَيْسَ إِلَّا خَلْقًا وَابْتِدَاعًا أَعَنَى أَنَّهُ "اِرْتِجَال" وَبِهَذَا يَكُون اَلِارْتِجَال غَيْر

اَلِاشْتِقَاق والتجوز وَهُوَ اَلَّذِي يَتَحَقَّق بِهِ اَلْمَعْنَى اَلْأَوَّل اَلْمَفْهُوم عِنْد اِسْتِعْمَال كَلِمَة اَلْوَضْع فِي اَللُّغَة وَلَيْسَ اَلِارْتِجَال قِسْمًا مِنْ اَلْوَضْع إِلَى جَانِب اَلِاشْتِقَاق والتجوز إِذَا اَلْمُرْتَجَل مَوْضِع بِشَخْصِهِ كَمَا مَرَّ فِي بَيَان أَقْسَام اَلْوَضْع مِنْ قَوْل اَلْأَقْدَمِينَ وَالْمُشْتَقّ مَوْضُوع بِنَوْعِهِ وَكَذَلِكَ اَلْمَجَاز مَوْضُوع بِنَوْعِهِ أَيْضًا.

وَمِنْ هُنَا يَكُون اَلنَّمَاء اَللُّغَوِيّ بِالِاشْتِقَاقِ إِلَّا تَطْبِيقًا لِوَضْع مُرْتَجَل هُوَ تَعْيِين مَعْنَى كَذَا بِإِزَاء صِيغَة صِيغَة كَذَا فِي اَلْمُشْتَقَّات وَهُوَ تَعْيِين كَذَا بِإِزَاء عَلَاقَة كَذَا - فِي اَلْمَجَازَات وَكُلّ مِنْ إِفَادَة اَلْمُشْتَقّ وَإِفَادَة اَلْمَجَاز مَوْضُوع اِرْتِجَالًا بِنَوْعِهِ أَوْ مَوْضُوع وَضْعًا نَوْعِيًّا كَمَا يَقُولُونَ..

وَإِذَا مَا أَرَدْنَا بِالِاشْتِقَاقِ أَقْسَامه اَلْأُخْرَى مِنْ اَلْكَبِير وَالْأَكْبَر فَوَاضِح أُنَكِّل مَادَّة مِنْ اَلْمَوَادّ اَلَّتِي تَشْتَرِك فِي أَكْثَر حُرُوفهَا أَوْ اَلَّتِي تَشْتَرِك فِي حُرُوف مُتَقَارِبَة اَلْمَخَارِج إلخْ.. كُلّ هَذِهِ قَدْ وَضَعَتْ عَلَى بَيَان اَلْأَوَّلِينَ - وَضْعًا مُرْتَجَلًا بَادِئ ذِي بَدْء وَإِنَّ لُوحِظَتْ وَأَحْسَسْت اَلصِّلَة بَيْن اَلْأَوْضَاع اَلْمُشْتَرِكَة وَمَعَانِي اَلْأَوْضَاع اَلْمُتَقَارِبَة مَخَارِج حُرُوفهَا.

وَهَذَا الملحظ دَقِيق بَعْض اَلشَّيْء لَكِنَّهُ لَيْسَ بَعِيدًا وَبِمُرَاعَاتِهِ أَنَّ اَلْوَضْع إِنَّمَا يُطْلَق عَلَى إِيجَاد اَللَّفْظ اَلصَّالِح اَلْمَدْلُول لِأَيّ مُنَاسَبَة يُقَدِّرهَا اَلْوَاضِع وَإِعْطَاء اَللَّفْظ هَذَا اَلْمَدْلُول أَعَنَى أَنَّهُ لِإِنْمَاء لِلُّغَةِ إِلَّا بِارْتِجَال اَللَّفْظ بِالِاشْتِقَاقِ أَوْ بالتجوز فَلَيْسَ مِنْ إِعْطَاء اَللَّفْظ مَعْنَى

بِعَمَل مِنْ اَلْوَاضِع بَلْ هُوَ كَمَا سَبَقَ تَطْبِيق لِأَصْل وَمَبْدَأ وَضْعه اَلْوَاضِع اَلْأَوَّل اَلَّذِي يُوجَد هَذِهِ اَلْأَلْفَاظ وَمَا بِإِزَائِهَا مِنْ اَلْمَعَانِي..

وَإِذَا كَانَ هَذَا اَلِارْتِجَال هُوَ اَلْمَعْنَى اَلْكَامِل فِي اَلْوَضْع وَهُوَ اَلْمَقْصُود مِنْ اَلْحَدِيث عَنْ اَلْوَضْع فِي تَكْوِين اَلْعَرَبِيَّة إِذَا كَانَ اَلْأَمْر كَذَلِكَ فَإِنَّا نَسْتَفْسِر اِسْتِفْسَارًا تَالِيًا هُوَ:

مَاذَا عَسَى يُمْكِن أَنْ يَكُون اَلْيَوْم مَنْ وَضَعَ - لِلْعَامَّةِ أَوْ لِلْخَاصَّةِ بِمَعْنَى اَلْوَضْع اَلْمُرَاد وَهُوَ اَلِارْتِجَال؟ .

وَسَنَجِدُ جَوَاب هَذَا اَلِاسْتِفْسَار عِنْد اَلْمَجْمَعِيِّينَ أَنْفُسهمْ إِذْ تَقْرَأ فِي مَجْمُوعَات أَعْمَالهمْ بَحْثًا أُلْقِيَ عَلَيْهِمْ عَنْ اَلِارْتِجَال فِي أَلْفَاظ اَللُّغَة وَمِنْ نَتَائِج هَذَا اَلْبَحْث مَا هُوَ إِجَابَة وَاضِحَة عَنْ اَلِاسْتِفْسَار اَلْأَخِير إِذْ اَلْبَاحِث يَقُول: "نَخْلُص مِنْ كُلّ مَا تَقَدَّمَ إِلَى أَنَّ اَلِارْتِجَال فِي اَللُّغَة حَقِيقَة وَاقِعَة لَا يَتَطَرَّق إِلَيْهَا اَلشَّكّ وَلَكِنَّهُ مَحْدُود اَلْأَثَر فَقَدْ يَمُرّ جِيل أَوْ يلان مِنْ اَلزَّمَان قَبْل أَنْ نَظْفَر فِي اَللُّغَة بِكَلِمَة أَوْ كَلِمَتَيْنِ يُمْكِن أَنْ نَعْزُوهُمَا إِلَى اَلِارْتِجَال هَذَا فِي اَللُّغَات اَلَّتِي تَرَكَتْ وَشَأْنَهَا فِي اَلْخُضُوع لِعَوَامِل اَلتَّطَوُّر لَا يُقَيِّدهَا فِي هَذَا سِوَى اِسْتِعْمَالَات اَلْكُتَّاب وَالشُّعَرَاء وَقَادَة اَلْفِكْر مَعَ اَلذَّوْق اَلِاجْتِمَاعِيّ اَلْعَامّ.

أَمَّا فِي لُغَتنَا اَلْعَرَبِيَّة اَلَّتِي لَا نَتْرُكهَا نَهْبًا لِلتَّطَوُّرِ بَلْ نُحَصِّنهَا بِحُصُون مَنِيعَة فَرَضَهَا عَلَيْهَا اَلْقُدَمَاء مِنْ اَللُّغَوِيِّينَ فَلَا أَمَلّ مِنْ رَقِيَ أَمْثَال تِلْكَ اَلْكَلِمَة اَلْمُرْتَجَلَة إِلَى مَصَافّ غَيْرهَا مِنْ كَلِمَات اَللُّغَة اَلْفُصْحَى.

وَإِذَا مَا كَانَ اَلْوَضْع فِي اَلْمُرَاد هُوَ اَلِارْتِجَال وَكَأَنَّ شَأْن اَلِارْتِجَال فِي نَظَر اَلْبَاحِثِينَ فِي اَلْمُجْتَمَع نَفْسه هُوَ مَا سَمِعْنَا فَالْوَضْع اَللُّغَوِيّ بِأَصْل مَعْنَاهُ وَهُوَ اِرْتِجَال لَيْسَ مَا يُمْكِن أَنْ يَكُون عَامِلًا فِي تَكْوِين اَللُّغَة بِارْتِجَال اَلْمُحْدَثِينَ.

وَهُوَ مَا وَضَّحَ فِي كَلَام اَلْبَاحِث عَنْ اِرْتِجَال فِي اَللُّغَة وَزَادَ ضوحا بِقَوْلِهِ بَعْد مَا سَبَقَ مِنْ عِبَارَته:

لَسْت أَدْرِي بَعْد هَذَا مَا إِذَا كَانَ مَجْمَع اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة يَرَى اَلْأَخْذ بِظَاهِرَة اِرْتِجَال فِي وَضْع مُصْطَلَحَاته أَمْ يَكْتَفِي بِالطُّرُقِ اَلْأُخْرَى مِنْ اِشْتِقَاق أَوْ قِيَاس أَوْ مَجَاز أَوْ اِسْتِعَارَة.

وَمَا دَامَ هَذَا اَلِارْتِجَال وَنُدْرَته فَمَاذَا يَصْنَع اَلْمُجْمِع فِيهِ أَوْ بِهِ عَلَى أَنَّك لَا تَنْسَى أَنْ تلحظ أَنَّ اَلسَّيِّد اَلْبَاحِث قَدْ تَسَاءَلَ يَوْم ٨٢/ ٠٥٩١/٢١ وَكَانَ اَلْمُجَمَّع قَدْ فَرَغَ مَنْ نِهَائِيًّا مِمَّا سَمَّاهُ قَبُول أَوْضَاع اَلْمُحْدَثِينَ وَالسَّمَاع مِنْهُمْ فِي يَوْم ٤٢/ ٠٥٩١/٤ أَيْ مُنْذُ بِضْعَة أَشْهُر سَابِقَة!! وَهُوَ لَوْن مِنْ عَدَم اَلتَّنَاسُق يَظْهَر كَثِيراً فِي نَوَاحِي نَشَاطنَا اَلْمُخْتَلِفَة..

وَبَعْد فَإِنَّا نَسْتَطِيع أَنْ نَقُول إِنَّ اَلْوَضْع اَللُّغَوِيّ بِمَعْنَاهُ اَلْأَوَّل اَلَّذِي وُضِعَ لَهُ بِهِ عِلْم خَاصّ إِنَّمَا هُوَ عَمَل قَدْ ضَاعَ أَوَّله فِي مَجَاهِل اَلتَّارِيخ وَفَسِيح الأدهار فَلَمْ يَعُدْ اَلْقَوْل بِهِ اَلْيَوْم أَوْ اَلِاشْتِغَال بِعِلْم خَاصّ لَهُ مِمَّا تسيغه اَلْمَنَاهِج وَتَضْبُط ذَلِكَ اَلضَّبْط اَلْعَقْلِيّ اَلَّذِي يُدْرِك اَلْآخَر فَيَجْعَلهُ أَوَّلًا.

إِنَّ اَلْوَضْع بِهَذَا اَلْمَعْنَى لَيْسَ مَا يَسْتَطِيع اَلْمُحْدَثُونَ أَنْ يَكْسِبُوا بِهِ اَللُّغَة ثَرَاء أَوْ يَمْنَحُوهَا جَدِيدًا لِأَنَّهُ مَحْدُود اَلْأَثَر فِي حَيَّاتهَا وَكَذَلِكَ يُبَيِّن مِنْ هَذَا اَلْفَحْص أَنَّ اَلْوَضْع لَا يَنْبَغِي أَنْ يَشْغَل حَيِّزًا مِنْ عِنَايَتنَا وَدِرَاسَتنَا اَللُّغَوِيَّة لِأَنَّهُ فِي اَلْقَدِيم فَرْض غَيْر قَرِيب اَلْوُقُوع وَلَا سَلِيم العقبي وَفِي اَلْحَدِيث مَحْدُود ضَعِيف اَلْجَدْوَى عَلَى اَللُّغَة وَلَا أَمَل فِي اَلتَّشَبُّث بِهِ فَلْنَدْعُهُ إِلَى فَهْم اَلتَّكَوُّن اَللُّغَوِيّ عَنْ غَيْر طَرِيقَة وَلِنَلْتَمِس اَلنَّمَاء اَللُّغَوِيّ كَذَلِكَ عَنْ غَيْر طَرِيق هَذَا اَلْوَضْع اَلْمُرْتَجَل اَلْيَوْم أَيْضًا.

وَبِنَا بَعْد عَوْدَة إِلَى اَلْوَضْع نَسْتَطِيع أَنْ نَتَحَدَّث فِيهِ وَلَكِنَّ بَعْد خُطُوَات لَابُدَّ مِنْهَا قَبْل اَلْحَدِيث..

وَالْآن نَمْضِي فِي هَذَا اَلْفَحْص مُسْتَمِعِينَ إِلَى حَدِيث اَلْقَوْم فِي: اِسْتِكْمَال اَللُّغَة فَقَدْ سَمِعْنَا اَلْقَوْل فِي نَشْأَتهَا وَلَمْ نَقِف مِنْ ذَلِكَ عِنْد رَأْي فِيهَا لِأَنَّ اَلْمَال غَيْبِيّ لَا سَبِيل فِيهِ لِلْعِلْمِ وَنَحْنُ لَا عِنَايَة لَنَا بِالرَّحِمِ..

ثُمَّ سَمِعْنَا اَلْقَوْل فِي وَضْعهَا وَلَمْ نَقِف عِنْد اَلْقَوْل بِوَضْعِهَا اَلْعَقْلِيّ اَلْمُسْتَقْبَل لِلْآبَادِ بِالْقُدْرَةِ اَلْفَذَّة فَتَرَكْنَا اَللُّغَة بَيْن أَخَوَاتهَا مِنْ اَلنُّظُم اَلْجَمَاعِيَّة وَالظَّوَاهِر التجميعة وبقى أَنْ نَسْمَع قَوْل اَلْقَوْم فِي اِسْتِكْمَالهَا أَكَانَ فَجْأَة بِخَلْق مُسْتَقْبَل وَوُجُود كَامِل دَفَعَهَا إِلَى اَلْحَيَاة تَامَّة اَلتَّكْوِين مُكْتَمِلَة اَلتَّرْكِيب وَافِيَة بِحَاجَة اَلْأَجْيَال والأدهار أَمْ كَانَ ذَلِكَ فِيهَا شَيْئًا بَعْد شَيْء وَنَمَاء بَعْد بَدْء وَمُسَايَرَة لِلزَّمَنِ وَتَرْكَبَا بَعْد بَسَاطَة وَكَمَالًا بَعْد نَقْص؟

لَعَلَّ اَلْقَوْم أَقْبَلَ لِلْفِكْرَةِ اَلثَّانِيَة إِذَا يَقُول "اِبْن فَارِس" وَلَعَلَّ ظَانًّا يَظُنّ أَنَّ اَللُّغَة" اَلَّتِي دَلَّلْنَا عَلَى أَنَّهَا تَوْقِيف إِنَّمَا جَاءَتْ جُمْلَة وَاحِدَة وَلَيْسَ اَلْأَمْر كَذَلِكَ بَلْ وَقَفَ اَللَّه جَلَّ جَلَاله وَعِزّ آدَم عَلَيْهِ اَلسَّلَام عَلَى مَا شَاءَ أَنْ يُعَلِّمهُ إِيَّاهُ مِنْ عَرَب اَلْأَنْبِيَاء صَلَوَات اَللَّه عَلَيْهِمْ نَبِيًّا نَبِيًّا مَا شَاءَ أَنْ يَعْمَلهُ حَتَّى أنتهى اَلْأَمْر إِلَى نَبِيّنَا مُحَمَّد صَلَّى اَللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَآتَاهُ اَللَّه عَزَّ وَجَلَّ مِنْ ذَلِكَ مَا لَمْ يُؤْتَهُ أَحَدًا قَبْله تَمَامًا عَلَى مَا أَحْسَنَهُ مِنْ اَللُّغَة اَلْمُتَقَدِّمَة ثُمَّ قَرَّ اَلْأَمْر فَلَا نَعْلَم لُغَة مِنْ بَعْده حَدَّثَتْ فَإِنْ تَعْمَل اَلْيَوْم لِذَلِكَ متعمل وَجَدَ مِنْ نُقَّاد اَلْعِلْم مَنْ يَنْفِيه وَيَرُدّهُ.

وَفِي هَذَا اَلنَّصّ قَوْل اضح بِالتَّوْقِيتِ وان هَذَا اَلتَّوْقِيت اَلْإِلَهِيّ عَلَى يَد اَلْأَنْبِيَاء لَمْ يُبْرِز اَللُّغَة خَلْقًا سَوِيًّا مُبْتَدأ بَلْ تَطَاوُل فِي ذَلِكَ اَلزَّمَن مِنْ آدَم إِلَى مُحَمَّد عَلَيْهِمَا اَلسَّلَام وَبَيْنهمَا مِنْ أَنْبِيَاء اَلْعَرَب حَلَقَات تَطَوُّرِيَّة أَحْدَثَتْ فِي اَلْعَرَبِيَّة جَدِيدًا بَعْد جَدِيد عَلَى يَد نَبِيّ بَعْد نَبِيّ يَعْلَمهُ اَللَّه مَا شَاءَ أَنْ يُعْلِمهُ حَتَّى أكتمل اَلْخَلْق اَلسَّوِيّ اَلتَّوْفِيقِيّ بِمَا عَلِمَهُ اَللَّه مُحَمَّدًا عَلَيْهِ اَلسَّلَام فَلَا لُغَة بَعْده وَإِنْ تَعْمَل لِذَلِكَ متعمل نَفَاهُ نُقَّاد اَلْعِلْم وَرَدُّوهُ.

وَهو كَمَا تَرَى شَرْح لِلتَّغْيِيرِ اَللُّغَوِيّ فِي زَمَن مُتَطَاوِل يَسْتَهْلِك عَصْر اَلْحَيَاة عَلَى اَلْأَرْض مِنْ بَدْئِهِ بِآدَم إِلَى مُحَمَّد عَلَيْهِمَا اَلسَّلَام وَهُوَ دَهْر لَيْسَ بِالْقَصِيرِ وَتُسَلِّم فِيهِ جُمْلَة مِنْ فِكْرَة نُمُوّ اَللُّغَة لَيْسَتْ بِالْقَلِيلَةِ وَإِنْ كَانَ هَذَا اَلنَّمَاء قَدْ وَقَفَ يَبْعَثهُ خَاتَم اَلنَّبِيّينَ وَانْقِطَاع وَسَائِل اَلتَّوْقِيف وَالتَّعْلِيم بِخَتْم اَلرِّسَالَة.

وَابْن جِنِّيّ مُعَاصِر اِبْن فَارِس لَا نَعْرِفهُ إِلَّا مجوزا اَلرَّأْيَيْنِ فِي اَلتَّوَاضُع اَلْإِلْهَام وَمَعَ هَذَا التجويز لَا يَنْتَظِر أَنْ يُقَدِّم شَرْحًا لِنَمَاء اَللُّغَة وَاسْتِكْمَالهَا عَلَى هَذَا اَلْوَجْه اَلسَّابِق مِنْ قَوْل "اِبْن فَارِس" وَهُوَ يَعْقِد لِذَلِكَ بَابًا مُفْرِدًا فِي هَذِهِ اَللُّغَة أَوْ فِي وَقْت وَاحِد وَضَعَتْ أَمْ تُلَاحِق تَابع مِنْهَا بفارط وَيَصْدُر اَلْبَاب بِتَقْرِير اَلتَّلَاحُق اَللُّغَوِيّ فَيَقُول وَعَلَى أَيّ اَلْأَمْرَيْنِ كَانَ اِبْتِداؤُهَا فَإِنَّهَا لَابُدَّ أَنْ يَكُون وَقْع فِي أَوَّل اَلْأَمْر بَعْضهَا ثُمَّ احتيج فِيمَا بَعْد إِلَى اَلزِّيَادَة لِحُضُور اَلدَّاعِي إِلَيْهِ فَزِيدَ فِيهَا شَيْئًا فَشَيْئًا " ثُمَّ يُتْبع هَذَا اَلتَّلَاحُق بِمَا يَحْفَظ أَمْر اَلْوَضْع اَللُّغَوِيّ وَيُقَرِّر ثَبَاته عَلَى نَحْو مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ قَرِيبًا فَيَقُول فِي بَيَان مَا زِيدَ فِي اَللُّغَة إِلَّا أَنَّهُ عَلَى قِيَاس مَا كَانَ سَبْق مِنْهَا فِي حُرُوفه وَتَأْلِيفه وَإِعْرَابه اَلْمُبَيَّن عَنْ مُعَايَنَة لَا يُخَالِف اَلثَّانِي اَلْأَوَّل وَلَا اَلثَّالِث كَذَلِكَ مُتَّصِلًا مُتَتَابِعًا وَلَيْسَ أَحَد مِنْ اَلْعَرَب اَلْفُصَحَاء إِلَّا يَقُول إِنَّهُ يَحْكِي كَلَام أَبِيهِ وَسَلَفه وَيَتَوَارَثُونَهُ آخَر عَنْ أَوَّل وَتَابَعَ عَنْ مُتْبع وَلَا يَعْنِي اِبْن جِنِّيّ بِوَصْف شَيْء مِنْ كَيْفِيَّة مَا حَدَثَ مِنْ اَللُّغَة شَيْئًا فَشَيْئًا وَكَيْفَ كَانَ يَحْدُث قَدْر مَا يَعْنِي بِبَيَان أَنَّ هَذَا اَلْحَادِث مِنْ اَلشَّيْء بَعْد اَلشَّيْء إِنَّمَا كَانَ عَلَى مِثَال اَلْأَوَّل فَهُوَ مَا بَعْد مَا سَمِعَتْ مِنْ اَلِاتِّبَاع اَلثَّابِت يَسُوق مَا أَسْلَفْنَاهُ مِنْ رَأْي أَبِي اَلْحَسَن فِي أَنَّ اَلْوَضْع قَدْ وَضَعَ مُخْتَلِفًا وَأَنَّ اِخْتِلَاف لُغَات اَلْعَرَب إِنَّمَا أَتَاهَا مِنْ قَبْل أَنْ أَوَّلَ مَا وَضَعَ عَلَى خِلَاف وَإِنْ كَانَ كُلّه مُسَوِّفًا عَلَى صِحَّة اَلْقِيَاس حَظًّا.

وَقَدْ يجيز نُشُوء اَلِاخْتِلَاف وَأَنَّ اَلْأَوَّل قَدْ وَضَعَ قِيَاسًا وَاحِدًا غَيْر مُخْتَلِف وَالْآخَر قَدْ خَالَفَ عَلَيْهِ وَوَضَعَ قِيَاسًا ثَانيًا جَارِيًا فِي اَلصِّحَّة مَجْرَى اَلْأَوَّل وَقَدْ قَدَّمْنَا نَصّ عِبَارَته فِي هَذَا فَيَكُون اَلِاخْتِلَاف أَثَرًا لِصِحَّة عَمَل اَلْأَوَّل وَالْآخِر جَمِيعًا فِي اَلْوَضْع وَإِدْرَاكهمَا لِلْقِيَاسِ..

وَلَا نَمْضِي طَوِيلًا فِي حَدِيث هَذَا اَلْقِيَاس اَلَّذِي تَشْتَدّ بِهِ عِنَايَة اَلشَّيْخ وَإِنَّمَا نَمْضِي إِلَى فَهْم رَأْيه فِي نُمُوّ اَللُّغَة وَالْمُوَازَنَة بَيْنه وَبَيْن مَا مَضَى مِنْ قَوْل اِبْن فَارِس فِي هَذَا اَلنُّمُوّ فَنَجِد مِنْ اَلْمَعَالِمِ اَلْعَامَّة لِلرَّأْيَيْنِ.

١ – أَنَّ اِبْن جِنِّيّ لَا يُحَدِّد زَمَنًا لِهَذَا اَلتَّطَوُّر كَالزَّمَنِ غَيْر اَلضَّيِّق اَلَّذِي حَدَّدَهُ اِبْن فَارِس مِنْ آدَم إِلَى مُحَمَّد عَلَيْهِمَا اَلسَّلَام بَلْ لَعَلَّ اِبْن جِنِّيّ يُحَدِّث عَنْ زَمَن اَلْعَرَب فَقَطْ.

٢ – أَنْ أَبَّنَ جَنْي كَذَلِكَ لَا يُعْلَن اِنْتِهَاء اَلْأَمْر إِلَى كَمَال اَللُّغَة لَا مَجَال يُعِدّهُ لِحُدُوث شَيْء بَلْ جَعَلَ مُنَاط اَلْأَمْر حَقّ اَلْعَرَبِيّ فِي هَذَا وَإِدْرَاكه لِلْقِيَاسِ وَلَعَلَّ اِبْن جِنِّيّ يَنْتَهِي بِهَذَا إِلَى حَدّ هُوَ زَمَن سَلَامَة اَللُّغَة فِي أَلْسِنَة اَلْبَدْو وَالْخُلَّص مِنْ غَيْر أَهْل اَلْحَضَر وَغَيْر مَنْ جاول اَلْأُمَم اَلْأَعْجَمِيَّة لَكِنَّهُ عَلَى كُلّ حَال أَكْثَر مُرُونَة مِنْ مُعَاصِرَة لَوْ سَلَّمَ لَهُ فَهْمْ اَلتَّطَوُّر وَهُوَ مَا لَمْ يَتَحَقَّق عِنْده كَمَا سَنُشِيرُ إِلَيْهِ قَرِيبًا.

٣ – أَنَّ اِبْن جِنِّيّ يَرُدّ اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ أَوْ اَلنَّمَاء وَالزِّيَادَة إِلَى حُضُور اَلدَّاعِي إِلَى ذَلِكَ لَا إِلَى تَعْلِيم نَبِيّ بَعْد نَبِيّ وَإِنْ كُنَّا نَطْمَئِنّ إِلَى

أَنَّهُ لَا يَسْتَبْعِد اَلْوَضْع اَلتَّوْفِيقِيّ وَتَعْلِيم اَلْأَنْبِيَاء شَيْئًا بَعْد شَيْء لِأَنَّهُ مَازَالَ مُنْذُ تَكَلُّم يَجُوز اَلْآمِرِينَ جَمِيعًا وَيَحْكِيه فِي صَدْر هَذَا اَلْبَاب عَنْ تَلَاحُق اَللُّغَة..

وَإِذَنْ نَسْتَطِيع أَنْ نَفْهَم اِتِّفَاق اَلرَّأْيَيْنِ فِي اِسْتِكْمَال اَللُّغَة عَلَى مَا يَأْتِي:

١ – لَمْ تَظْهَر اَلْعَرَبِيَّة خُلُقًا سَوِيًّا مُسْتَقِلًّا بَلْ تَغَيَّرَتْ وَتَحَوَّلَتْ وَإِنْ لَمْ نَقُلْ عَنْ رَأْيِهِمْ تَطَوَّرَتْ بِمَعْنَى اَلتَّطَوُّر عِنْدنَا اَلْيَوْم.

٢ – لَمْ يَكُنْ هَذَا اَلتَّغَيُّر فِي زَمَن قَصِير بَلْ فِي زَمَن هُوَ تَارِيخ تَرَقِّي اَلْبَشَرِيَّة وَتُكْمِلهَا إِلَى تَهَيَّأَتْ لِلرِّسَالَةِ اَلْخِتَامِيَّة اَلْعَامَّة اَلْمُوَحِّدَة لِلْإِنْسَانِيَّةِ أَيّ مِنْ آدَم إِلَى بَعْث مُحَمَّد عَلَيْهِ اَلسَّلَام عِنْد اِبْن فَارِس أَوْ لِأَمْن حَيَاة اَلْأُمَّة اَلْعَرَبِيَّة كُلّه عِنْد اِبْن جَنَى ."

٣ – أَنَّ هَذَا اَلتَّغَيُّر غَيْر طَلْق وَلَا مُتَحَرِّر تَخَلُّقه اَلْحَيَاة بِحَاجَتِهَا اَللُّغَوِيَّة بَلْ هُوَ مُقَيَّد عَلَى كُلّ حَال فَهُوَ عِنْد اِبْن فَارِس مُقَيَّد بِالتَّوْقِيفِ اَلْإِلَهِيّ وَتَعْلِيم اَلْعَرَب وَهُوَ عِنْد اِبْن جِنِّيّ مُقَيَّد بِوَضْع اَلْوَاضِع اَلْأَوَّل اَلَّذِي لَا يُخَالِف عَلَيْهِ مِنْ بَعْده وَأَنَّ خِلَاف مَنْ يُعِدْهُ لَهُ لَيْسَ إِلَّا أَثَر لِمُتَابَعَة اَلْمُتَأَخِّر لِلْمُتَقَدِّمِ عَلَى نَحْو مَا سَمِعْنَاهُ آنِفًا فَلَيْسَ اَلتَّأْثِير فِي هَذَا اَلتَّغَيُّر اَللُّغَوِيّ لِشَيْء مِنْ اَلْعَوَامِل اَلَّتِي يَذْكُرهَا اَلْمُحْدَثُونَ! وَهَذِهِ اَلْمَعَانِي وَمَا إِلَيْهَا هِيَ اَلَّتِي جَعَلَتْنِي أَسْمَى مَا يُشِير اَلْقُدَمَاء إِلَيْهِ مِنْ أَمْر اَللُّغَة تَغَيُّرًا أَوْ تَحَوُّلًا إِلَى أَنْ أَعُود بَعْد فَأَنْظُر فِي تَقْدِير مَدَى تَحْقِيقه

لِفِكْرَة اَلتَّطَوُّر فِي اِصْطِلَاح عَصْرنَا وَتَظَلّ اَلْمَعَانِي اَللَّاهُوتِيَّة اَلسَّابِقَة مُتَنَاقَلَة فِي اَلْحَيَاة بَعْد عَصْر اِبْن فَارِس وَابْن جِنِّيّ وَطَبَقَتهمْ بِقُرُون فَهَذَا اَلسُّيُوطِيّ فِي اَلْمُزْهِر يُعَقِّد فَصْلًا عُنْوَانه ذِكْر إِيحَاء اَللُّغَة إِلَى نَبِيّنَا عَلَيْهِ أَفْضَل اَلصَّلَاة وَالسَّلَام وَمَازَالَ يَنْقُل فِيهِ عَنْ أَهْل اَلْحَدِيث حَتَّى يَكُون مِمَّا يَنْقُل معزوا إِلَى اَلرَّسُول عَلَيْهِ اَلسَّلَام قَوْله كَانَتْ لُغَة إِسْمَاعِيل قَدْ رَسَتْ فَجَاءَ بِهَا جِبْرِيل عَلَيْهِ اَلسَّلَام فحفظنيها فَحَفِظْتهَا.

وَلَا تَعْنِينَا قُوَّة هَذَا اَلْحَدِيث أَوْ ضَعْفه وَإِنَّمَا تَعْنِينَا دَلَالَته عَلَى اَلْعَقْلِيَّة اَللُّغَوِيَّة لِلَّذِين يَتَنَاقَلُونَهُ..!

وَهَذَا اَلْقَوْل كَمَا تَرَى مِنْ وَادِي قَوْل اِبْن فَارِس عَنْ أَثَر أَنْبِيَاء اَلْعَرَب فِي حَيَاة اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة.

ثُمَّ يَتَقَدَّم اَلزَّمَن وَيَنْقُل اَلْمُحْدَثُونَ عَنْ اَلْغَرْب دِرَاسَة تَارِيخ اَلْأَدَب اَلْعَرَبِيّ وَيَتَحَدَّثُونَ عَنْ اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة بَيْن يَدِي هَذَّا اَلتَّارِيخ اَلْأَدَبِيّ فَيَتَنَاقَلُونَ فِيمَا بَيْنهمْ حَدِيثًا مُعَادًا يُسَمَّى تَهْذِيب اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة أَوْ تَنْقِيحهَا أَوْ مَا إِلَى ذَلِكَ يَبْلُغُونَ فِيهِ ذِكْر تهذيبات أَوْ تنقيحات ثَلَاثَة هِيَ:

١ – مَا عَمِلَ يُعْرِب بْن قَحْطَان.

٢ – مَا عَمِلَ إِسْمَاعِيل بْن إِبْرَاهِيم عَلَيْهِمَا اَلسَّلَام لِمَا أَصْهَر إِلَى جَرَّهُمْ.

٣ – مَا عَمِلَتْ قُرَيْش بِمَكَانِهَا مِنْ اَلْجَزِيرَة فِي اَلْحَرَم وَانْتِخَابهَا

اَلْأَمْثَل مِنْ لُغَات اَلْعَرَب اَلَّتِي تَفِد عَلَيْهَا وَبِهَذِهِ اَللُّغَة اَلْمُهَذَّبَة نُزُل اَلْقُرْآن.

وَقَدْ يَجْعَلُونَ لَهَا أَرْبَعَة تهذيبات إِذَا يُعِدُّونَ عَمَل اَللُّغَوِيِّينَ فِي اَلْجَمْع عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ سَابِقًا تَهْذِيبًا قَصْر اَللُّغَة عَلَى مَنْ اِخْتَارُوا اَلْجَمْع عَنْهُمْ مِنْ خُلَّص اَلْعَرَب وَمَنْ يُحَاوِرُونَ اَلْأُمَم اَلْأَعْجَمِيَّة.

وَالَّذِي تَلْمَحهُ طَابَع هَذِهِ التهذيبات اَلَّتِي اِلْتَقَطَ اَلْمُحَدِّثُونَ وَصْفهَا مِنْ عِبَارَات تَارِيخِيَّة عَامَّة عَائِمَة لَا سَنَد لَهَا أَنَّهَا عَلَى مَا قَدْ يَلْفِتك مِنْ نصاعتها لَا تُخْرَج جمتها عَنْ عِبَارَة اِبْن فَارِس اَلَّتِي شَمَمْنَا مِنْهَا رَائِحَة اَلْغَيْبِيَّة اَللَّاهُوتِيَّة فَإِنَّك لِتَجِد اَلْأَلْوِيَة اَلْمَعْقُودَة لِيُعْرِب بْن قَحْطَان لَا يَشْهَد بِهَا شَيْء إِلَّا اَلْحِكَايَة اَلْقَاصَّة وَالرَّاوِيَة اَلَّتِي لَا تُعَرِّف لَهَا أَصْلًا كَمَا أَنَّك تَسْمَع انفتاق لِسَان إِسْمَاعِيل بِالْعَرَبِيَّةِ اَلْأَخِيرَة وَهُوَ عِبْرَانِيّ جَاوَرَ قَبِيلَة جَرَّهُمْ اَلثَّانِيَة اَلنَّازِلِينَ بِقُرْب مَكَّة وَصَاهَرَهُمْ فَهَلْ تَوَاضَعَ وَإِيَّاهُمْ عَلَى اِصْطِلَاح جَدِيد أَوْ أَلْهَمَ هُوَ هَذِهِ اَلْعَرَبِيَّة لَقَدْ حَدَّثُوا كَذَلِكَ عَنْ اِحْتِمَال اَلْأَمْرَيْنِ فَبَقِيَ عَرَق اَلْغَيْبِيَّة مُتَّصِلًا.

ثُمَّ إِنَّك لِتَجِد تَنْقِيح قُرَيْش تَهْذِيبهَا دِينَيْ اَلسَّبَب قَدْ هَيَّأَتْ لَهُ وَأَعَانَتْ عَلَيْهِ مَنَازِل قُرَيْش حَوْل اَلْحَرَم أَيْضًا كَمَا أَنَّ تَسْجِيل اِعْتِمَاد هَذَا اَلتَّهْذِيب أَوْ اَلتَّنْقِيح هُوَ نُزُول اَلْقُرْآن بِهِ إِذَا نَزَلَ بِلُغَة قُرَيْش..

وَهَذَا اَلْكَلَام يُمْكِن أَلَّا يَبْعُد كَثِيرًا عَنْ قَوْل اِبْن فَارِس فِي كَمَال اَلْعَرَبِيَّة بِمُحَمَّد عَلَيْهِ اَلسَّلَام.

وَهَذَا لَا يُشَجِّع مَجَال اَلْقَوْل عَنْ اَلتَّنْقِيح اَللُّغَوِيّ اَلَّذِي قَدْ يُطْعِمهُ اَلْمُحَدِّثُونَ بخطفات مِنْ اَلنُّشُوء وَالِاِرْتِقَاء وَفِعْل اَلزَّمَن وَتَلَاقِي اَلْمُتَكَلِّمِينَ بِاللَّهَجَاتِ اَلْمُخْتَلِفَة مِنْ اَللُّغَة اَلْوَاحِدَة أَوْ تَلَاقِيهِمْ بِاللُّغَاتِ اَلْمُخْتَلِفَة فَيَنْفَعِل بَعْضهَا بِبَعْض ... إِلَخْ.

لَا يَتَّسِع مَجَال اَلْقَوْل فِي اَلتَّنْقِيح لَكَثُرَ مِنْ اَلْفَائِدَة أَسْفَل مِنْ اَلْقَدِيم اَلْمُوجِز فِي كِتَاب الصاحبي فَمَا هُوَ حَدِيث فِي أَيّ مَرْحَلَة مِنْ مَرَاحِل اَلتَّهْذِيب عَمَّا أَخَذَتْ اَلْعَرَبِيَّة أَوْ تَرَكَتْ وَمَا خَلَّفَ اَلتَّهْذِيب بِكِيَانِهَا مِنْ جَدِيد اَلتَّحَوُّل فِي مَادَّتهَا.

أَوْ فِي صِيَاغَتهَا أَوْ فِي لَهْجَتهَا وَلَا جَرَمَ أَنَّك لَنْ تَجِد شَيْئًا مِنْ هَذَا فِي عَمَل يُعْرِبهُ بْن قَحْطَان أَوْ عَمَل إِسْمَاعِيل بْن إِبْرَاهِيم لِأَنَّهُمَا خُطْوَتَانِ فِي ظَلَام اَلزَّمَن وَمَعَ أولسة أَدْنَى إِلَى اَلْأُسْطُورِيَّة مِنْهَا إِلَى حَوَادِث اَلتَّارِيخ وَحِين لانجد شَيْئًا فِي هَذَيْنِ التهذيبين إِنْ كَانَا كَذَلِكَ لَنْ تَجِدّ فِي تَهْذِيب قُرَيْش بِالْحَجِيجِ وَالْأَسْوَاق وَغَيْرهَا إِلَّا خَلَاص لُغَتهَا مِنْ مرذول اَللَّهَجَات اَلْمُرَدِّد ذِكْرهَا اَلْمُعَاد سَمِعَهَا مِنْ كسكسة وَكَشْكَشَة وشنشنة وعنعنة وعجعجة.. إِلَخْ.. فِي كَلَام عَام عَنْ عَظَمَة صَنِيع قُرَيْش وَمُوَاتَاة اَلْأَسْبَاب لَهَا فِي ذَلِكَ ثُمَّ لَنْ تَظْفَر بِشَيْء مَحْدُود اَلْمَعَالِم عَنْ صَنِيع هَذَا وَآثَاره فِي كِيَان اَللُّغَة وَبِنَائِهَا.

وَلَيْسَ مِنْ اَلْإِطَالَة أَنْ أُسْمِعك بَعْض عِبَارَات اَلرَّعِيل اَلْأَوَّل مِنْ مُؤَرِّخِي اَلْأَدَب اَلْعَرَبِيّ اَلْمُحَدِّثِينَ حِين يَتَكَلَّمُونَ عَنْ هَذَا اَلتَّهْذِيب

فَيُطْنِبُونَ وَيَتَأَنَّقُونَ وَتَقْرَأ مِنْ قَوْلهمْ مَثَل:

"وَكَانَتْ تِلْكَ اَلْقَبَائِل بِطَبَائِعِهَا مُتَبَايِنَة اَللَّهَجَات مُخْتَلِفَة اَلْأَقْيِسَة اَلْمَنْطِقِيَّة اَلْمُودَعَة فِي غَرَائِزِهَا فَكَانَ قُرَيْش يَسْمَعُونَ لُغَاتهمْ يَأْخُذُونَ مَا اِسْتَحْسَنُوهُ مِنْهَا فَيُدِيرُونَ بِهِ أَلْسِنَتهمْ وَيَجْرُونَ عَلَى قِيَاسه" وَلَوْ كَانَ بادين كَسَائِر اَلْقَبَائِل مَا فَعَلُوهُ ..!!"

حَتَّى يَقُول.. وَبِذَلِكَ مُرِّنُوا عَلَى اَلِانْتِقَاد حَتَّى رَقَّتْ أَذْوَاقهمْ وَسمَتْ طَبَائِعهمْ وَقَوِيَتْ سلائقهم وَحَتَّى صَارُوا فِي آخِر أَمْرهمْ أَجْوَد اَلْعَرَب اِنْتِقَاء لِلْأَفْصَحِ فِيهَا مِنْ اَلْأَلْفَاظ وَأَسْلَسهَا عَلَى اَللِّسَان عِنْد اَلنُّطْق وَأُحْسِنهَا مَسْمُوعًا وَأُبِينهَا إِبَانَة عَمَّا فِي اَلنَّفْس ثُمَّ يَذْكُر رِحْلَاتهمْ وَمَنْ يُلْقُونَ فِيهَا مِنْ اَلْأُمَم وَيَقُول: "وَعَلَى ذَلِكَ صَارُوا بِطَبِيعَة أَرْضهمْ فِي وَسَط اَلْعَرَب كَأَنَّهُمْ مَجْمَع لُغَوِيّ يُحَوِّط اَللُّغَة وَيَقُوم عَلَيْهَا وَيَشُدّ أَزَّهَا وَيرفَع مِنْ شَأْنهَا وَيَزِيد فِي ثَرْوَتهَا وَبِالْجُمْلَةِ يُحَقِّق فِيهَا كُلّ مَعَانِي اَلْحَيَاة اَللُّغَوِيَّة ."

فَهَلْ تَرَاك أَوْفَيْت مِنْ ذَلِكَ عَلَى شَيْء تَحَدُّث بِهِ عَمَّا هُوَ تَهْذِيب لِلُّغَةِ أَوْ تَنْقِيح أَوْ نَمَاء بِمَ كَانَ وَكَيْفَ اِخْتَلَفَ بِهِ أَمسهَا عَنْ يَوْمهَا أَوْ غَدهَا وَفِيمَ كَانَ اَلتَّغْيِير وَإِلَى أَيْنَ اِتَّجَهَ؟ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ حَقَائِق لُغَوِيَّة مَوْضُوعِيَّة تُبَيِّن مِنْ أَمْر اَلْعَرَبِيَّة أَوْضَاعًا لُغَوِيَّة خاصَّة..!! وَتُعْطِي فِكْرَة ذَات شَوَاهِد مِنْ حَالهَا..!!

وَتَمْضِي قُدُمًا فِي قِرَاءَة لِلْمَصْدَرِ اَلسَّابِق فَإِذَا تَهْذِيب قُرَيْش لِلْعَرَبِيَّةِ أَدْوَار وَإِذَا بِهَا مُدْهِشَة وَإِذَا بِك لَابُدَّ أَنْ تُسَلِّم بِأَنَّهَا حَادِثَة كَوْنِيَّة مِنْ خَوَارِق اَلنِّظَام اَلطَّبِيعِيّ وَهَكَذَا يَقُول اَلْكَاتِب رَحِمَهُ اَللَّهُ:–

"وَيَتَّسِع اَلْمُتَأَمِّل فِي اَلْأَدْوَار اَلَّتِي تَعَاقَبَتْ عَلَى قُرَيْش فِي تَهْذِيبهَا اَللُّغَة إِلَّا أَنْ يَسْتَسْلِم لِلدَّهْشَةِ ويحار مِنْ أَمْر هَذَا اَلتَّعَاقُب فَإِنَّهُ كَالسِّلْمِ اَلْمُدْرَجَة تَنْتَهِي اَلدَّرَجَة مِنْهَا عَلَى نَمَط متساوق مِنْ اَلرُّقِيّ إِنْ لَمْ يَكُنْ عَجِيبًا فِي تَارِيخ أُمّه مُتَحَضِّرَة فَهُوَ عَجَب عَلَى اَلْخُصُوص فِي تَارِيخ اَلْعَرَب وَلَاسِيَّمَا إِذَا اِعْتَبَرْنَا مَبْدَأ تِلْكَ اَلنَّهْضَة وَأَنَّهَا لَا تَتَجَاوَز مِائَة سَنَة قَبْل اَلْهِجْرَة إِلَى مِائَة وَخَمْسِينَ عَلَى اَلْأَكْثَر فَلَابُدَّ مِنْ اَلتَّسْلِيم بِأَنَّهَا حَادِثَة كَوْنِيَّة مِنْ خَوَارِق اَلنِّظَام اَلطَّبِيعِيّ ظَهَرَتْ نَتِيجَتهَا بَعْد ذَلِكَ فِي نُزُول اَلْقُرْآن اَلْكَرِيم بِلُغَة قُرَيْش وَهُوَ أَفْصَح اَلْأَسَالِيب اَلْعَرَبِيَّة بِلَا مِرَاء وَاَللَّه يَحْكُم مَا يَشَاء وَيُقَدِّر ."

وَإِذَا كُنْت سَأَلْت أَيْنَ جُمْلَة هَذَا اَلتَّهْذِيب وَمَا مَظْهَره؟ وَمَا اَلَّذِي يَضَع اَلدَّارِس يَده عَلَيْهِ مِنْ حَقَائِقه؟ فَمَاذَا أَنْتَ سَائِل عَنْ أَدْوَار هَذَا اَلتَّهْذِيب اَلْمُتَعَاقِبَة اَلَّتِي كَالسِّلْمِ اَلْمُدْرَجَة، تَنْتَهِي اَلدَّرَجَة مِنْهَا إِلَى دَرَجَة عَلَى نَمَط مُتَسَاوِي مِنْ اَلرُّقِيّ؟

تِلْكَ اَلدُّرْج وهاتيكم السلاليم هِيَ مَا يَفْهَمهُ أَصْحَاب اَلْقَوْل بِالتَّطَوُّرِ وَالِارْتِقَاء وَيَحْضُرُونَك مِنْهَا اَلشَّوَاهِد وَالْمَثَل وَالْأَدِلَّة اَلْمَادِّيَّة، بَلْ يَحْسِمُونَ لَك أَعْضَاء اَلْكَائِن اَلْحَيّ إِنْ كَانَ مَادِّيًّا، وَشَوَاهِده إِنْ كَانَ

كَائِنًا مَعْنَوِيًّا لِتَلْمِس بِهَا تُغَيّرَهُ وَيُصَوّر مِنْهَا تَطَوُّره؟ أَمَّا هُنَا فَأَدْوَار وسلاليم فِي مَجْرَى اَلْقَلَم، وَمَزْعُوم اَلْكَلِم وَإِذَا عَصَمَتْ نَفْسك لَحْظَة مِنْ اَلِاسْتِسْلَام لِهَذِهِ اَلدَّهْشَة وَالْحَيْرَة فَإِنَّك لَابُدَّ غَيْر مُسْلِم بِشَيْء مِنْ اَلْأَحْدَاث اَلْكَوْنِيَّة وَخَوَارِق اَلنِّظَام اَلطَّبِيعِيّ وَالَّتِي يُجْبِرك اَلْكَاتِب عَلَى اَلتَّسْلِيم بِهَا، وَلَا يَدْعُ لَك مِنْ هَذَا اَلتَّسْلِيم بُدًّا، ثُمَّ إِذَا بِك تَقُول فِي يَقَظَة زَمَن اَلْخَوَارِق وَالْأَحْدَاث اَلْكَوْنِيَّة لَنْ يَطُول إِلَى اَلْيَوْم، إِنَّ سُنَن اَلْحَيَاة وَفِيهَا حَيَاة اَللُّغَة، حَقَائِق لَا طَفْرَة فِيهَا وَلَا خَوَارِق، وَلَيْس يَصِحّ حكم عَلَى شَيْء فِيهَا إِلَّا بَعْد بَحْث وَبَحْث يَتَعَرَّف اَلْقَوَانِين وَيَتَبَيَّن اَلنَّوَامِيس، وَقَدْ عَرَفَ اَلْكَثِير مِنْ حَيَاة اَلْكَائِنَات اَلْأُخْرَى..!

وَإِنَّ نَقْدك لِمَنْهَج اَلْكَاتِب فِي فَهْم اَلْحَيَاة اَللُّغَوِيَّة وَسَيْرهَا لَجَدِير بِأَنْ يَلْفِتك إِلَى أَنَّ هَذَا اَلْحَدِيث اَلْمُدَّعِي اَلْمُتَزَايِد كُلّه لَا يَقُوم إِلَّا عَلَى جُمْلَة مِنْ اَلْقِصَص اَلشَّائِعَة يَعْتَمِد فِيهَا عَلَى أَشْيَاء مِنْ اَلتَّوْرَاة وَأَخْبَار اَلْجَاهِلِيَّة اَلْعَرَبِيَّة اَلْمَجْهُولَة وَذَلِكَ وَمِثْله مِمَّا لَا يَسْتَحِقّ اَلْيَوْم اِسْم اَلتَّارِيخ اَلْعَامّ فَهُوَ أَضْعَاف كَثِيرًا وَأَوْهَن جِدًّا مِنْ أَنْ يَكُون مَادَّة لِتَارِيخ خَاصّ، عَنْ اَلظَّوَاهِر اَلْحَيَوِيَّة وَأَلْوَان نَشَاط اَلْوُجُود اَلْإِنْسَانِيّ مِنْ لُغَة وَسِوَاهَا!

وَحِين تُنْكِر اَلْأُسْلُوب.. وَتَنْقُد اَلْمَنْهَج.. وَتَجْرِي اَلتَّارِيخ سَتَنْكَرُ وَلَاشْك مَعَ ذَلِكَ كُلّه أَنْ تَكُون اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة قَدْ اِنْتَهَى أَمْرهَا فِي قَرْن كَذَا، وَعَام كَذَا، أَوْ بِحَيَاة فُلَان، أَوْ وُقُوع حَادِث كَذَا إِلَى مَا زَعَمَهُ "

اِبْن فَارِس" وَهُوَ مَا لَمْ يُؤْتِهِ أَحَد قَبْلَهَا وَلَا يُحَاوِلهُ مُحَاوِل بَعْدهَا... مِمَّا يُوشِك اَلْكَاتِب اَلْعَصْرِيّ أَنْ يَزِيد عَلَى اَلْقَدِيم مِنْهَا بِمَا زَعَمَ مِنْ أَحْدَاث كَوْنِيَّة، وَخَوَارِق طَبِيعِيَّة لَعَلَّ "اِبْن فَارِس" فِي عَهْده لَمْ يَسْتَشْعِرهَا حِين حَدَّثَ عَنْ كَمَال اَلْعَرَبِيَّة ذَلِكَ اَلْكَمَال النام.

نِعَم سَتُنْكَرُ ذَلِكَ كُلّه لِأَنَّ اَلْعَرَبِيَّة عَاشَتْ بَعْد ذَلِكَ أَجْيَالًا وَعَبَّرَتْ قُرُونًا وَقَدْ أَصَابَهَا مِنْ اَلتَّغَيُّر مَا أَصَابَهَا مِمَّا لَا نُدْرِكهُ وَسَتَعِيشُ بَعْد ذَلِكَ أَجْيَالًا وَأَجْيَالًا وَتَعْبَرّ قُرُونًا وَآمَادًا، لَا يَدْرِي مَا يصبياه فِيهَا وَقَضِيَّة اَلْعَصْر اَلذَّهَبِيّ لِكَائِن مَا لَيْسَتْ اَلْيَوْم هَكَذَا قَضِيَّة سَهْلَة اَلتَّسْلِيم وَقَدْ تَسْمَعك بَعْض اَلْحَدِيث عَنْ بَعْض هَذَا فِيمَا بَعْد وَفِي كُلّ حَال نَحْنُ لَا نُحَدِّث عَنْ اَلْأَحْسَن وَالْأَفْضَل بَلْ عَنْ اَلشَّاهِد وَالْوَاقِع مَا هُوَ؟ وَكَيْفَ كَانَ؟ وَكَيْفَ هُوَ اَلْآن؟ وَإِلَى أَيّ طَرِيق يَتَّجِه؟ وَسَوَاء عَلَيْنَا أكانت اَلْعَرَبِيَّة قَدْ بَلَّغَتْ غَايَة رُقِيّهَا قُبَيْل اَلْإِسْلَام أَمْ فِي عَصْر اَلْبِعْثَة أَمْ بِلُغَتِهِ بَعْد ذَلِكَ، أَمْ لَمْ تَبْلُغهُ بَعْد فَإِنَّمَا يَعْنِينَا أَنْ نَعْرِف فِي جَلَاء وَوُضُوح وَبِالْأَمْثِلَةِ وَالشَّوَاهِد وَمَاذَا كَانَ مِنْ أَمْرهَا فِي سَيْر اَلْحَيَاة بِهَا... وَهُوَ مَا نُسَمِّيه تَطَوَّرَ اَلْعَرَبِيَّة بِلِسَان اَلْبَحْث اَلْيَوْم..

وَالتَّطَوُّر: كَمَّا لَابُدَّ أَنْ تَعْرِفُوا هُوَ اَلْأَصْل اَلتَّجْرِيبِيّ لِفَهْم سِيَر اَلْحَيَاة بِالْكَائِنَات اَلْحَيَّة عَلَى اِخْتِلَافهَا وَعَلَى هَذَا اَلْأَصْل يَتَحَدَّث اَلْبَاحِثُونَ فِي اَللُّغَات اَلْيَوْم عَنْ اَلتَّطَوُّر اَللَّاغِي نَفْسه وَتَطَوُّر اَللُّغَة، فَالصَّوْت وَجِهَازه فِي اَلْإِنْسَان يَتَطَوَّر تَطَوُّرًا طَبِيعِيًّا مُطَّرِدًا.. وَبِذَلِكَ

تَتطَوَّر اَلْأَصْوَات اَللُّغَوِيَّة فِي اَلْأَحْرُف اَلَّتِي تُمَثِّلهَا وَيَتطَوَّر مَعَهَا تَأْلِيف اَلْكَلِم وَمَعَ تَطَوُّر اَللَّاغِي وَتَأْثِيره فِي اَللُّغَة تَفعَل اَلْحَيَاة مَا تَفْعَل بِظَوَاهِرِهَا اَلْمُخْتَلِفَة فِي تَطوُّر اَللُّغَة، سَوَاء فِي ذَلِكَ اَلظُّرُوف اَلْمَادِّيَّة وَالظُّرُوف اَلْمَعْنَوِيَّة فَالْبِيئَة اَلطَّبِيعِيَّة اَلْمَادِّيَّة اَلَّتِي تَعِيش فِيهَا اَللُّغَة تُؤَثِّر فِي تَطَوُّرهَا وَالظُّرُوف اَلنَّفْسِيَّة اَلْعَاطِفِيَّة وَالْعَقْلِيَّة لِمُتَكَلِّمِي اَللُّغَة تُؤَثِّر فِي تَطَوُّر اَللُّغَة... وَأَنْمَاط اَلْحَيَاة اَلَّتِي يحياها مُتَكَلِّمُو اَللُّغَة تُؤَثِّر فِي تَطوُّر اَللُّغَة فَدِين أَهْلهَا وَحُكُومَتهمْ وَعِلْمهمْ وَفَهْم وَجَدَهُمْ وَلَهْوهمْ كُلّهَا وَسَوَّاهَا اؤثر فِي اَللُّغَة وَتَوْجِيههَا وَتَعْمَل فِي تَطوُّرهَا وَتَوَارَثَ اَللُّغَة بَيْن أَجْيَال يُغَيِّر اَللُّغَة وَيُؤَثِّر فِي تَطَوُّرهَا... وَيَتَجَسَّم فِي هَذِهِ اَلْمَجَالَات مَا يُحَدِّثُونَ بِهِ جُمْلَة عَنْ شِدَّة حَسَاسِيَة اَللُّغَة وَأَنَّهَا فِي ذَلِكَ أَدَقّ اَلظَّوَاهِر اَلِاجْتِمَاعِيَّة وَأَسْرَعهَا تُغَيِّرَا وَأُحَسِّسهَا تَأَثُّرًا فَكُلّ نبأة وَهَمْسَة فِي حَيَاة اَلْجَمَاعَة اَلَّتِي تَتكَلَّم لُغَة تَتْرُك أَثَرهَا فِي هَذِهِ اَللُّغَة اَلْمُتَكَلِّمَة وَتُغَيِّر مِنْ حَالهَا وَتُحَدِّث أَثَرهَا فِي تَطَوُّرهَا.

ثُمَّ بَيْن اَللُّغَات نَفْسهَا صِرَاع كَمَا بَيْن أَفْرَاد وَالْجَمَاعَات وَالتَّفَاعُل اَللُّغَوِيّ عَامِل فَعَّال بَعِيد اَلْفَاعِلِيَّة فِي تَطوُّر اَللُّغَة وَكُلّ أُولَئِكَ يَتَنَاوَلهُ اَلدَّرْس اَلْمُتَتَبِّع اَلْمُسْتَقْصِي اَلْمُتَعَمِّق اَلْمُجَرِّب اَلْمُسْتَعِين بِوَسَائِل اَلْفَحْص اَلْعِلْمِيَّة وَالْمَادِّيَّة اَلضَّابِطَة اَلْمُسَجِّلَة...

وَلِهَذَا اَلدَّرْس فَرَوَّعَ تَتَنَاوَل اَلنَّوَاحِي اَلْمُخْتَلِفَة اَلَّتِي أَشَرْنَا إِلَى غَيْر قَلِيل مِنْهَا أَلْفًا وَالْمَجَال ينفسح إِلَى اَلْمُقَارَنَات وَالْمُقَابَلَات اَللُّغَوِيَّة

بِطَاقَة بَعِيدَة اَلْأُفُق هَائِلَة اَلْمُقَدّرَة مَبْذُول لَهَا اَلْجُهْد وَالْمَال وَالْوَقْت فِي حَال تُشْعِرنَا بِأَنَّ مَا حَدَثَ بِهِ اَلْقَوْم قَدِيمًا وَصُوَرًا مِنْ اَلْحَدِيث عَنْ تَهْذِيب اَلْعَرَبِيَّة أَوْ تَنْقِيحهَا فِيمَا حَدَثَ بِهِ اَلْمُتَأَخّرُونَ لَيْسَ مِنْ جَدّ اَلْقَوْل اَلَّذِي يُوقَف عِنْده بِشَيْء وَالْمَوْضُوع يَحْتَاج إِلَى اَلِاسْتِعَانَة بِهَذِهِ اَلطَّاقَة بَلْ اَلطَّاقَات اَلْجَبَّارَة اَلَّتِي تَتَوَلَّى اَلدَّرْس اَللُّغَوِيّ ثُمَّ هُوَ مُحْتَاج إِلَى مَنَاهِجهَا وَيَحْتَاج أَشَدّ اَلِاحْتِيَاج وَأَسْبَقه إِلَى اَلشُّعُور بِفَرْضِيَّتِهِ عَلَيْنَا وَلُزُومه لَنَا وَهُوَ مَا نُحَاوِل اَللَّفْت إِلَيْهِ وَالدَّفْع نَحْوه وَنَتَفَاءَل بَعْض اَلتَّفَاؤُل بِمَا يَبْذُل اَلْيَوْم فِي هَذَا اَلسَّبِيل مِنْ خَلْق دِرَاسَة اَلصَّوْتِيَّات الفونوتيك وَإِيجَاد مُؤَسَّسَة عِلْمِيَّة لِهَذِهِ اَلدِّرَاسَة مُزَوَّدَة بِالْأَجْهِزَةِ وَالْآلَات اَللَّازِمَة آمِلِينَ أَنْ يَكُون لِهَذَا مَا بَعْده مِنْ جَرِيد اَلْقُوَى لِجَمْع مَوَادّ اَلدِّرَاسَة اَللُّغَوِيَّة مِنْ أَفْوَاه اَلنَّاطِقِينَ بِالْعَرَبِيَّةِ فِي أَنْحَاء اَلْبِلَاد اَلْمُخْتَلِفَة مِنْ بُطُون اَلْكُتُب اَلَّتِي حَفِظَتْ مَوَادّ هَذَا اَلتَّطَوُّر وَمِنْ جَوْف اَلْجَزِيرَة وَمَا إِلَيْهَا مِنْ مَنَاطِق اَلْعَرَبِيَّة و.. و... مِمَّا نَجِد عِنْد اَلنَّاس حَوْل نَمَاذِجه وَمَثَله وَتَجَارِبه وَمَنَاهِجه نَاضِجَة قَرِيبَة اَلْمَنَال وَلَا بَأْس بِمَا أَكْثَرْنَا بِهِ مِنْ اَلْحَدِيث عَنْ اَلْآمَال اَلْمَرْجُوَّة فَلَا أَقَلّ مِنْ أَنَّ نجسم لَدَى أَصْحَاب اَلْعَرَبِيَّة وَجَامِعَة دُوَلهمْ هَذَا اَلشُّعُور بِنَقْص اَلدَّرْس فَيَكُون ذَلِكَ اَلشُّعُور بِالنَّقْصِ هُوَ أَوَّل مَرَاتِب اَلْكَمَال.

وَإِنَّمَا تَعَجَّلَتْ بِتَقْدِيم هَذَا اَلْحَدِيث اَللَّافِت عَنْ اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ فِي مُنَاسَبَة اَلْحَدِيث عَنْ اِسْتِكْمَال اَلْعَرَبِيَّة لاهيء ذِهْنك لِفَحْص مَا سَيُلْقِي

عَلَيْك بَعْضه قَرِيبًا مِنْ اَلْحَدِيث عَنْ كَمَال اَلْعَرَبِيَّة فِي خَصَائِصهَا وَمَزَايَاهَا إِذَا يَكُون شُعُورك بِهَذَا اَلتَّغَيُّر اَلسَّرِيع اَلْعَنِيف فِي صِرَاع حَادّ بَيْن اَللُّغَات هُوَ اَلِانْتِبَاهَة اَلْأُولَى فِي تَقْدِير مَا تَسْمَع مِنْ خَصَائِص اَلْعَرَبِيَّة وَمَزَايَاهَا المنقبية.

وَجُمْلَة اَلْقَوْل فِيمَا قَدِمْنَا مِنْ حَدِيث عَنْ اِسْتِكْمَال اَلْعَرَبِيَّة: أَنَّ اَلْقُدَامَى قَدْ شَعَرُوا شُعُورًا قَرِيب اَلْمَدَى بِأَنَّ اَللُّغَة لَمْ تُوضَع مَرَّة وَاحِدَة وَأَنَّهَا قَدْ تُلَاحِق تَابِع مِنْهَا بِفَارِض فَكَانَ هَذَا اَلشُّعُور عَلَى نَحْو مَا سَمِعْنَا مِنْ قَوْلهمْ عَنْهُ – لَيْسَ اِنْتِبَاهًا لِلتَّطَوُّرِ بِمَا هُوَ حَقِيقَة حَيَوِيَّة فَلَمْ يَدْفعهُمْ إِلَى اَلتَّعَلُّق بِشَيْء مِنْ أَمْر هَذَا اَلتَّغَيُّر اَلْمُتَلَاحِق وَوَصْفَة أَوْ تِبْيَان مُظَاهَرَة وَأَحْسَنَ اَلظَّنّ مِنَّا بِهَذَا اَلشُّعُور مِنْهُمْ أَنْ نَقُول إِنَّهُ لَيْسَ كَفْرًا جَاحِدًا لِلتَّطَوُّرِ يَعُوق اَلْقَوْل فِيهِ.

ثُمَّ أَنَّ طَلَائِع اَلْمُحَدِّثِينَ فِي عَصْرنَا قَدْ لَفَّتْهُمْ مَا حَوْلهمْ مِنْ جَدّ فِي فَهْم اَلْحَيَاة وَتَنَاوُلهَا إِلَى اَلتَّحَدُّث عَنْ شَيْء مِنْ تَهْذِيب اَلْعَرَبِيَّة وَتَقَيُّحهَا فَفَاءُوا فِيهِ إِلَى شَيْء مِنْ قِصَص اَلتَّارِيخ غَيْر اَلْمُحَقِّق يَصِفُونَ بِهِ مَرَّات مِنْ اَلتَّهْذِيب أَوْ اَلتَّنْقِيح اَللُّغَوِيّ ذَلِكَ اَلَّذِي سَمِعَتْ مِنْ اَلْوَصْف اَلسَّاذَج اَلْخَطَابِيّ اَلَّذِي يَنْتَهِي إِلَى كُهُوف اَلْغَيْبِيَّة وَخَوَارِق اَلْأَحْدَاث اَلْكَوْنِيَّة لِلطَّبِيعَةِ.

وَلَعَلَّ نَفَرًا مِنْ اَلْمُحْدَثِينَ بَعْد أُولَئِكَ اَلطَّلَائِع قَدْ عَرَفُوا حَدِيث اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ عِنْد اَلْغَرْبِيّينَ وَجُهُود اَلْغَرْبِيّينَ اَلْعَامَّة فِي دَرْس اَللُّغَات ثُمَّ

جه، دَهَمَ اَلِاسْتِشْرَاقِيَّة اَلْخَاصَّة فِي دَرْس اَلْعَرَبِيَّة وَسَائِر اَلسَّامِيَّات فكَانَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ اَلتَّطَوُّر قَوْل مِنْ صِنْف مَا يَقُول اَلْبَحْث اَللُّغَوِيّ اَلْعِلْمِيّ اَلْيَوْم.. وَهُوَ مَا سَنَعْرِضُهُ عَلَيْك بَعْد أَنْ نَقِف عِنْد نَتِيجَة فَهْمِ اَلْقُدَامَى لِاسْتِكْمَال اَللُّغَة وَهِيَ تَقْرِيرهمْ:

كَمَال اَللُّغَة

وَالَّذِينَ قَدْ أَضْفَوْا عَلَى وَاضِع اَللُّغَة اَلْبُدَائِيّ مِنْ اَلْحِكْمَة وَالْقُدْرَة مَا سَمِعْنَا خَبَره وَهُمْ كَمَا نَعْرِف يَعِيشُونَ فِي عَصْر يَحْكُم فِيهِ اَلْغَيْبِيَّة لَيْسَ بَعِيدًا أَنْ يُضِيفُوا عَلَى اَللُّغَة مِنْ اَلْفَضْل وَالْكَمَال شَيْئًا كَثِيرًا وَلَيْسَ بِالْبَعِيدِ أَيْضًا أَنْ يُؤَيِّدهَا هَذَا اَلْكَمَال وَالْفَضْل بِمَا يُمْكِن أَنْ يُؤَيِّدُوهُ مِنْ اَلِاعْتِبَارَات اَلدِّينِيَّة وَالْمَعَانِي الآلهية كَمَا سَنَرَى.

وَنَبْدَأ مِنْ ذَلِكَ بِالتَّفْضِيلِ اَلدِّينِيّ اَلْمَنْشَأ لِهَذِهِ اَلْعَرَبِيَّة اَلْكَامِلَة وَهُوَ مَا كَانَ مُنْذُ عَصْر مَكْر إِذْ نَسْمَع اَلشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اَللَّه يَقُول فِي "رِسَالَته" اَلْمَعْرُوفَة فِي اَلْأُصُول" فَإِذَا كَانَتْ اَلْأَلْسِنَة مُخْتَلِفَة بِمَا لَا يُفْهِمهُ بَعْضهمْ عَنْ بَعْض فَلَابُدَّ أَنْ يَكُون بَعْضهمْ تَبَعًا لِبَعْض وَأَنْ يَكُون أَهْل لِسَانه اِبْتَاعَا لِأَهْل لِسَان غَيْر لِسَانه فِي حَرْف وَاحِد بَلْ كُلّ لِسَان تَبَع لِلِسَانِهِ وَكُلّ أَهْل دِين قَبْله اِبْتَاعَ دِينه وَتَتَنَاثَر فِي اَلرِّسَالَة أَفْكَار لِلشَّافِعِيّ تَدُور جُمْلَتهَا حَوْل أُمُور هِيَ: –

١ – أَنَّ لِسَان اَلْعَرَب وَاسِع سِعَة بَيْنه قَدْ تَكُون خَاصَّة لَهُ دُون غَيْره.

٢ – أَنَّ اَلْقُرْآن قَدْ نَزَلَ بِلِسَان اَلْعَرَب خَالِيًا مِنْ كُلّ لِسَان غَيْر لِسَان اَلْعَرَب وَكُلّ هَذَّا يَخْدِم اَلْفِكْرَة اَلتَّالِيَة وَهِيَ:

٣ – أَنَّ اَلْأَلْسِنَة تتفاضل وَأَفْضَلهَا لِسَان اَلنَّبِيّ كَمَا أَنَّ دِينه أَفْضَل اَلْأَدْيَان وَمِثْل هَذَا اَلِاتِّجَاه هُوَ اَلَّذِي نَشَرَ فِي اَلْجَوّ مَا نَسْمَع مِنْ تَفْضِيل دِينِيّ اَلْمَنْشأ لِلْعَرَبِيَّةِ لَوْنهَا لِسَان أَهْل اَلْجَنَّة وَمَا شَابَهَ ذَلِكَ وَعَنْ هَذَا وَنَحْوه اِسْتَقَرَّ فِي اَلنُّفُوس مَا لِلُّغَةِ اَلْعَرَبِيَّة مِنْ صِفَة دِينِيَّة وَأَنَّ مَسَاسهَا بِإِصْلَاح – مَهْمَا يَكُنْ شَأْنه يَحْتَوِي دَائِمًا عَلَى مُخَالَفَة اَلدِّين وَعَدَم اِحْتِرَام لِصِفَة اَلْعَرَبِيَّة اَلدِّينِيَّة لُغَة اَلْقُرْآن وَتَظَلّ تَنْمِي ذَلِكَ ظُرُوف اِجْتِمَاعِيَّة بَرِيئَة حِينًا وَغَيْر بَرِيئَة حِينًا وَنَظَلّ نَسْمَعهُ عِنْد اَلْمُحْدَثِينَ فِي همهمة لَاهُوتِيَّة تَخْلُب بِعِبَارَتِهَا اَلْفَنِّيَّة فَنَنْشُر اَلظِّلَال وَتَنْثُر اَلْبَخُور إِلَى اَلْمُخَدِّر إِلَى غَيْر حَدّ مَعْرُوف كَالَّذِي تَقْرَؤُهُ فِي مِثْل. "هَذَا فَصْل مِنْ اَلْكَلَام نَرْمِي فِيهِ إِلَى أَقْصَى غَايَات اَلْعَقْل اَلْعَرَبِيّ فِي اَلْحَيَاة وَأَدْنَى آفَاقه مِنْ اَلْخُلُود إِذَا نَصَّفَ مَبْلَغ مَا أنتهى إِلَيْهِ مِنْ اَلْكَمَال فِي وَضْع هَذِهِ اَللُّغَة وَإِحْكَامهَا عَلَى سُنَن كَيْفَمَا تَدَبَّرتَهَا رَأَيْت فِيهَا اَلْمَعْنَى اَلْإِلَهِيّ اَلَّذِي لَا دَلِيل عَلَيْهِ إِلَّا شُعُور اَلنَّفْس وَالنَّفْس هِيَ اَلْبَقِيَّة اَلسَّمَاوِيَّة فِي اَلْإِنْسَان تِلْكَ اَلسِّنِينَ اَلَّتِي خَرَجَتْ بِهَا اَللُّغَة كَأَنَّهَا عَقْل حَتَّى تتلامح فِي جِهَات اَلْحِكْمَة خطراته وَتَتَرَاسَل مِنْ أَعْيُن اَلْوَحْي نَظَرَاته بَلْ كَأَنَّهَا مَعْنَى إِلَهِيّ مُبْتَكَرًا أُلْقِيَ فِي هَذِهِ اَلطَّبِيعَة فَيَتَحَوَّل بِهِ وَجْه اَلْعَالَم إِلَى جِهَة اَللَّه، فَمَا زَالَ يَتَكَشَّف مِنْ أَطْرَافه شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى ظَهَرَ سِرًّا اِبْتِدَاعه فِي اَلْقُرْآن اَلْكَرِيم فَاتَّضَحَ عَنْ رَوْعَة تُمَلِّك عَلَى اَلْإِنْسَان مَذَاهِب حِسّه وَتَنْسَاب فِي قَلْبه لِتَتَّصِل بِالرُّوحِ اَلْإِلَهِيّ مِنْ نَفْسه".

وَمِثْل هَذَا غَيْر قَلِيل مِنْ ثَنَايَا اَلْكِتَاب حَمَلَ هَذَا فِي زمزمة دَوَّارَة لَا تَعْرِف مِنْ أَيْنَ تَجِيء نَفْس اَلْقَارِئ وَتَأْخُذ عَلَيْهِ مَذَاهِب حِسّه كَمَا يَقُول اَلْكَاتِب..!

وَتَضَع هَذَا اَلْقَوْل وَأَمْثَاله مَعَ مَا يَقُول اَلْمُؤَلّف حِين يَعِد اَلْقَوْل بِالتَّوْقِيفِ فِي اَللُّغَة إِنَّمَا هُوَ مِنْ بَاب اَلتَّقْوَى اَلتَّارِيخِيَّة لَا أَكْثَر وَمَعَ قَوْله وَإِذَا كَانَ مِنْ أُصُول اَلِاجْتِمَاع فَمَنْ أَصُول اَلِاجْتِمَاع اَللُّغَة وَهَذِهِ مِنْ أُصُولهَا المواضعة.. ثُمَّ مَعَ مِثْل قَوْله إِنَّ اَلْعَرَب قَوْم رَحَلَ وَقَدْ اِخْتَلَطُوا بِأُمَم كَثِيرَة فَلَابُدَّ أَنْ يَكُون هَذَا اَلِاخْتِلَاط بَيِّنًا فِي تَكْوِين لُغَتهمْ وَتِلْكَ سَنَة عَامَّة فِي اَللُّغَات تَضَع بَعْض هَذَا إِلَى جِوَار بَعْض فَتَجِد اَلْبُعْد شَاسِعًا بَيْن اَلِاتِّجَاهَيْنِ وَتَعْجَب مِنْ أَنْ يَصْدُر هَكَذَا عَنْ قلو وَاحِد وَأُبَيّن مِنْهُ فِي اَلْبُعْد مِثْل قَوْله أَمَّا اَلْمُشَابَهَة بَيْن اَلْأَخَوَات اَلثَّلَاث "اَلْعَرَبِيَّة وَالْعِبْرَانِيَّة وَالسُّرْيَانِيَّة" فَهِيَ مُتَحَقّقَة فِي جِهَات تَحَقُّقًا يَقْطَع اَلرَّيْب ويمتلخ اَلشُّبْهَة فِي أَنَّهُمْ أَخَوَات أَوْ فُرُوع لِأَصْل وَاحِد فَهَلْ تَرَاهُ يَثْبُت لِأُخْتَيْهَا بِلَا شُبْهَة هَذَا اَلْكَمَال وَيَجْعَل لَهُمَا نَصِيبًا مِنْ هَذَا اَلْمَعْنَى اَلْإِلَهِيّ اَلْمُبْتَكَر وَيُحَوّل بِهِمَا وَجْه اَلْعَالَم إِلَى جِهَة اَللَّه إِلَخْ!

وَعَلَى كُلّ حَال فَقَدْ تَرَدَّدَتْ هَذَا اَلْأَنْغَام اَللَّاهُوتِيَّة فِي جَوّ اَلْمَجْمَع اَللُّغَوِيّ أَيْضًا وَقَالَ اَلْقَائِل "فَكَيْفَ وَاللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة لُغَة اَلْقُرْآن وَالسَّنَة وَهُمَّا كَلّ اَلدِّين وَقَالَ اَلثَّانِي أُسَمّيهَا أَشْرَف اَللُّغَات وَأَنْبَلهَا".

وَلِهَذَا اَلْقَوْل اَلْمُتَوَارَث فِي اَلتَّفْضِيل اَللَّاهُوتِيّ مَاله مَنْ خَطَرَ وَلُكْنَا

لَا نَفْزَع فِي إتْقَانه إلَّا إلَى اَلتَّحْقِيق اَلْمُتَحَرِّر لِلْأَقْدَمِينَ أَنْفُسهمْ لِئَلَّا يَطُول نَفْس اَلْخِلَاف عَلَيْهِ إِذَا مَا سُقْنَا فِيهِ كُلَّا مَا نَقُولهُ نَحْنُ اَلْيَوْم فَلْيَسْمَعْ اَلْوَاعُونَ مَا يَتَنَاوَل بِهِ اَلتَّفْضِيل اَلدِّينِيّ جَمِيعًا عَالِم مِنْ اَلْقُدَامَى وَهُوَ اِبْن حَزْم إذَا يَقُول عَنْ اَلتَّفْضِيل لِلُّغَةِ عَلَى لُغَة مَا عِبَارَته: – "وَقَدْ تَوَهَّمَ قَوْم فِي لُغَتهمْ أَنَّهَا أَفْضَل اَللُّغَات وَهَذَا لَا مَعْنَى لَهُ لِأَنَّ وُجُوه اَلْفَضْل مَعْرُوفَة وَإِنَّمَا هِيَ بِعَمَل أَوْ اِخْتِصَاص ولاعمل لِلُّغَةِ "وَلَا جَاءَ نَصّ فِي تَفْضِيل لُغَة عَلَى لُغَة وَقَدْ قَالَ تَعَالَى "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُول إِلَّا بِلِسَان قَوْم لِيُبَيِّن لَهُمْ" وَقَالَ تَعَالَى "فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِك يَتَذَكَّرُونَ "أفخبر تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُنْزِل اَلْقُرْآن بِلُغَة اَلْعَرَب إلَّا لِيفهمْ ذَلِكَ قَوْمه عَلَيْهِ اَلسَّلَام لَا لِغَيْر ذَلِكَ وَقَدْ غَلِطَ فِي ذَلِكَ جَالِينُوس إنَّ لُغَة اَلْيُونَانِيِّينَ أَفْضَل اَللُّغَات لِأَنَّ سَائِر اَللُّغَات إنَّمَا هِيَ تُشْبِه إمَّا نُبَاح اَلْكِلَاب وَإِمَّا تُفِيق اَلضَّفَادِع ."

"قَالَ عَلَى: وَهَذَا جَهْل شَدِيد لِأَنَّ كُلّ سَامِع لُغَة لَيْسَتْ لُغَته وَلَا يَفْهَمهَا فَهِيَ عِنْده فِي اَلنِّصَاب اَلَّذِي ذَكَرَ جَالِينُوس وَلَا فَرْق ."

وَلَعَلَّ مِمَّا يَزِيد بَيَان "اِبْن حَزْم" فِي إنْكَار اَلْأَفْضَلِيَّة اَللُّغَوِيَّة إنْكَارًا مُطْلَقًا قَوْله "وَحُرُوف اَلْهِجَاء وَاحِدَة لَا تُفَاضِل بَيْنهَا وَلَا قُبْح وَلَا حُسْن فِي بَعْضهَا دُون بَعْض وَهِيَ تِلْكَ بِأَعْيُنِهَا فِي كُلّ لُغَة فَبَطَلَتْ هَذِهِ اَلدَّعَاوِي اَلزَّائِفَة الهجينة وَبِاَللَّهِ اَلتَّوْفِيق وَقَدْ أَدَّى هَذَا اَلْوَسْوَاس اَلْعَامِّيّ اَلْيَهُود إِلَى أَنَّ استجازوا اَلْكَذِب وَالْحَلِف عَلَى اَلْبَاطِل بِغَيْر

اَلْعِبْرَانِيَّة وأدعوا أَنَّ اَلْمَلَائِكَة اَلَّذِينَ يَرْفَعُونَ اَلْأَعْمَال لَا يَفْهَمُونَ إِلَّا اَلْعِبْرَانِيَّة فَلَا يَكْتُبُونَ عَلَيْهِمْ غَيْرَهَا وَفِي هَذَا مِنْ اَلسُّخْف مَا تَرَى وَعَالَمَ الخفيات وَمَا فِي اَلضَّمَائِر عَالِمٍ بِكُلّ لِسَان وَمَعَانِيه.. عَزَّ وَجَلَّ ."

وَالشَّيْخ حِين يُنْكِر مَبْدَأ اَلْأَفْضَلِيَّة بِعَامَّة يُنْكِر بِهَذِهِ اَلْجَهَارَة مَبْدَأ اَلْأَفْضَلِيَّة اَلدِّينِيَّة لِلْعَرَبِيَّةِ وَيَقُول: وَقَدْ قَالَ قَوْم "اَلْعَرَبِيَّة أَفْضَل اَللُّغَات لِأَنَّهَا بِهَا نُزُل كَلَام اَللَّه تَعَالَى ."

"قَالَ عَلَيَّ: وَهَذَا لَا مَعْنَى لِأَنَّ اَللَّه عَزّ وَجُلّ قَدْ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ لَمْ يُرْسِل رَسُولًا إِلَّا بِلِسَان قَوْمه وَقَالَ تَعَالَى"وَإِنَّ أُمّه إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِير "وَقَالَ تَعَالَى: "وَإِنَّهُ لفي زُبُر اَلْأَوَّلِينَ " فَبِكُلّ لُغَة قَدْ نَزَلَ كَلَام اَللَّه وَوَحْيه وَقَدْ أُنْزِلَ اَلتَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل وَالزَّبُور وَكَلِم مُوسَى عَلَيْهِ اَلسَّلَام وَأَنْزِل اَلصُّحُف عَلَى إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ اَلسَّلَام بِالسُّرْيَانِيَّةِ فَتَسَاوَتْ اَللُّغَات فِي هَذَا تَسَاوِيًا وَاحِدًا وَأَمَّا لُغَة أَهْل اَلْجَنَّة وَأَهْل اَلنَّار فَلَا عِلْم عِنْدنَا إِلَّا مَا جَاءَ فِي اَلنَّصّ وَالْإِجْمَاع وَلَا نَصّ وَلَا إِجْمَاع فِي ذَلِكَ ."

فَهَذَا صَدَى صَائِح مِنْ جَانِب اَلْقَبْر مُنْذُ بِضْع مِئَات مِنْ اَلسِّنِينَ إِذَا اَلْعَقْل اَلْبَشَرِيّ لَيْسَ فِي مِثْل دَرَجَته اَلْيَوْم مِنْ اَلنُّضُوج وَالتَّجْرِبَة وَالتَّحْقِيق فَهَلْ تَرَوْنَنَا نَكُون أَقَلّ تَحْقِيقًا وَتَدْقِيقًا مِنْ صَاحِب هَذَا اَلْعَقْل اَلْوَاضِح فِي اَلْقَرْن اَلْخَامِس اَلْهِجْرِيّ لَا أَحْسَب أَنَّنَا نَرْضَى لِأَنْفُسِنَا ذَلِكَ أَوْ تَرْضَاهُ لَنَا اَلدُّنْيَا..

وَحَسْبنَا هَذَا مِنْ اَلْقَوْل فِي نَفْي اَلتَّفْضِيل اَلدِّينِيّ لِلُّغَةِ اَلْعَرَبِيَّة

وَلْنَدْعُ اَلْقَوْل فِي هَذَا اَلْكَمَال اَلدِّينِيّ لَا بِالْإِغْوَاءِ مِنْهُ عَلَى شَيْء بَلْ نُتَابِع تَبْصِيرِكُمْ بِوَاجِبِكُمْ فِي تَحْرِير اَلتَّفْكِير وَتَصْحِيح اَلْمَنْهَج اَللُّغَوِيّ بِكَلِمَة جَدّ مُوجَزَة عَنْ: اَلتَّفْضِيل اَللُّغَوِيّ فَفِي هَذَا اَلْجَوّ اَلَّذِي شَمَمْنَا عُرْفه اَللَّاهُوتِيّ وَفِي هَذَا اَلْمُسْتَوَى اَلثَّقَافِيّ اَلَّذِي لَا يُمْكِن أَنْ يَنْبَغِي فِيهِ مَا لَا تَحْتَمِلهُ دَرَجَة اَلرُّقِيّ اَلِاجْتِمَاعِيّ لِعَهْدِهِ فِي هَذِهِ اَلْآفَاق كَانَتْ فِكْرَة كَمَال اَلْعَرَبِيَّة لُغَوِيًّا وَفَضْلهَا عَلَى سِوَاهَا مِنْ اَللُّغَات خَارِقًا مُسْرِفًا تَجِد مَجَالهَا اَلْفَسِيح فِي اَلْمَيْدَان اَللُّغَوِيّ وَلَعَلَّنَا نَجْرُؤ عَلَى رَجْع أَوَّلِيَّة هَذِهِ اَلْفِكْرَة فِيمَا وَصَلْنَا – إِلَى اَللُّغَوِيّ اَلَّذِي أَشَرْنَا إِلَى اِسْمه غَيْر مَرَّة فِي اَلتَّفْضِيل اَلدِّينِيّ وَهُوَ اِبْن "اِبْن فَارِس" فَإِنَّ كِتَابه "الصاحبي فِي فِقْه اَللُّغَة وَسُنَن اَلْعَرَبِيَّة فِي كَلَامهَا" لَيْسَ فِي أَوَّله وَآخِره إِلَّا حَدِيثًا عَنْ هَذَا اَلتَّفْضِيل لِلْعَرَبِيَّةِ دِينِيًّا وَلُغَوِيًّا وَقَدْ أُخِذَ عَنْهُ فِي قَرِيب مِنْ عَصْره اَلثَّعَالِبِيّ فِي كِتَابه "فِقْه اَللُّغَة وَسِرّ اَلْعَرَبِيَّة" وَهَذَا قِسْم مُتَمَيِّز عَنْ اَلْفِقْه، وَهُوَ فِي مَجَارِي كَلَام اَلْعَرَب وَسُنَنهَا وَالِاسْتِشْهَاد بِالْقُرْآنِ عَلَى أَكْثَرهَا وَمَهْمَا تُقَدِّر نَشَاط اَلثَّعَالِبِيّ فِي اِسْتِخْرَاج أَمْثَاله وَتَجْدِيده فِيهَا بِغَيْر مَا يُورِدهُ "اِبْن فَارِس" فَإِنَّك تُقَرِّر تَأَثُّر اَلثَّعَالِبِيّ" اَلْوَاضِح بِمَا قَدَّمَ "اِبْن فَارِس" فِي هَذَا اَلْمَيْدَان وَبَيْنهمَا زَمَن لَا يَزِيد كَثِيرًا عَنْ ثُلْث قَرْن وَمُحَاوَلَة اِبْن جِنِّيّ وَهُوَ مُعَاصِر لِابْن فَارِس فِي هَذَا اَلتَّفْضِيل وَالْكَمَال اَللُّغَوِيّ مِنْ هَذَا اَلْوَادِي وَإِنْ كَانَتْ أَهْوَن مُبَالَغَة وَأَشْبَه بِالْجَوّ اَللُّغَوِيّ وَتُؤَسِّس بِهَا فَلْسَفَة لُغَوِيَّة فِي إِدْرَاك خَصَائِص لِلْعَرَبِيَّةِ تَعْتَمِد عَلَى

حُسْن لِذَوْقِهَا لَا يَزَال حَتَّى اَلْيَوْم مجَال لِلْقَبُولِ وَالتَّقْدِير عَلَى مَا سَنُبَيِّنُهُ مِنْ مَذْهَب اَلشَّيْخ وَأُسْتَاذه أَبِي عَلَى اَلْفَارِسِيّ فِي ضَبْط اَلْمعَانِي وَرَدّهَا إِلَى اِعْتِبَارَات مُطَّرِدَة فِي حُرُوف تَأْلِيف اَلْكَلِمَة وَاِتّحَادهَا وَتَقَارُبهَا وَمَا إِلَى ذَلِكَ..

وَنُجِدّ فِي بَعْض اَلْأُمَّهَات اَللُّغَوِيَّة اَلْقَدِيمَة مِثْل هَذَا اَلتَّفْضِيل اَللُّغَوِيّ لِلْعَرَبِيَّةِ فِي لَوْن مِنْ اَلْمُبَالَغَة أَوْ اَلِاعْتِدَال وَمِنْ صِحَّة اَلْمَنْهَج أَوْ مَعَ اَلدَّخْل فِيهِ وَيَكْفِي أَنْ نُشِير إِلَى مَا نُحِبّ تَجْنِيبكُمْ إِيَّاهُ مِنْ اَلْإِسْرَاف أَوْ اَلتَّسَاهُل بِمِثْل وَاحِد مِنْ هَذَا اَلتَّفْضِيل اَللُّغَوِيّ اَلَّذِي لَا يُسْنِدهُ بَحْث صَحِيح ذَلِكُمْ هُوَ حَدِيث "اِبْن فَارِس" اَلَّذِي عَقَّدَ لَهُ بَابًا عُنْوَانه بَاب ذِكَر مَا اِخْتَصَّتْ بِهِ اَلْعَرَب وَفِيهِ يَقُول: "مِنْ اَلْعُلُوم اَلْجَلِيلَة اَلَّتِي اِخْتَصَّتْ بِهَا اَلْعَرَب اَلْإِعْرَاب اَلَّذِي هُوَ اَلْفَارِق بَيْن اَلْمَعَانِي اَلْمُتَكَافِئَة فِي اَللَّفْظ وَبِهِ يُعَرِّف اَلْخَبَر اَلَّذِي هُوَ أَصْل اَلْكَلَام وَلَوْلَاهُ مَا مُيِّزَ فَاعِل مِنْ مَفْعُول وَلَا مُضَاف مِنْ مَنْعُوت وَلَا تَعَجُّب مِنْ اِسْتِفْهَام وَلَا صَدْر مِنْ مَصْدَر وَلَا نَعْت مِنْ تَأْكِيده" وَبَعْد فِقْرَة مِنْ اَلْقَوْل عَنْ رَأْي غَرِيب فِي أَنَّ اَلْإِعْرَاب يَخْتَصّ بِالْأَخْبَارِ دُون اَلْإِنْشَاء وَرَدّه لَهُ يَتَقَدَّم فِي اَلْمَوْضِع "اِبْن فَارِس" إِلَى حَدِيث عَجِيب عَنْ اِحْتِقَار اَلزَّعْم بِأَنَّ لِغَيْر اَلْعَرَبِيَّة إِعْرَابًا فَيَقُول فِي اَلْمَوْضِع اَلسَّابِق "وَزَعْم نَاسٍ بِتَوَقُّف عَنْ قَبُول أَخْبَارهمْ أَنَّ اَلَّذِينَ يُسَمَّوْنَ اَلْفَلَاسِفَة قَدْ كَانَ لَهُمْ إِعْرَاب وَمُؤَلَّفَات نَحْو. قَالَ أَحْمَد بْن فَارِس وَهَذَا كَلَام لَا يُعَرِّج عَلَى مِثْله" وَلَنْ نَسْتَغْرِب هَذَا

اَلْإِنْكَار إِذَا مَا اِسْتَمَعَتْ إِلَى أَغْرَب مِنْهُ وَأَعْجَب فِي تَفْسِير اَلشَّيْخ كَيْفَ اِخْتَلَسَ هَؤُلَاءِ اَلْقَوْم إِعْرَابهمْ وَنَحْوهمْ مِنْ اَلْعَرَبِيَّة وَزُورُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا كَانَ يَقُول عامتنا فِي حِقْبَة مِنْ اَلزَّمَن إِنَّ اَلْأُورُوبِيِّينَ قَدْ أَخَذُوا كُلّ هَذِهِ اَلِاخْتِرَاعَات مِنْ كُتُب عَرَبِيَّة مَخْطُوطَة سَرَقُوهَا فَاسْمَعْ هَذَا اَلنَّغَم مُنْذُ أَكْثَر مِنْ أَلْف سَنَة فِي قَوْل الصاحبي بَعْد اَلَّذِي تَقَدَّمَ مِنْ عَدَم اَلتَّعْرِيج عَلَى مِثْل هَذَا اَلْكَلَام وَعِبَارَته:

"وَإِنَّمَا تَشَبُّه اَلْقَوْم آنِفًا بِأَهْل اَلْإِسْلَام تَشَبُّه اَلْقَوْم بِأَهْل اَلْإِسْلَام فَأَخَذُوا مِنْ كُتُب عُلَمَائِنَا وَغَيَّرُوا بَعْض أَلْفَاظهَا وَنَسَبُوا إِلَى قَوْم ذَوِي أَسْمَاء مُنْكَرَة بِتَرَاجِم بَشِعَة لَا يَكَاد فِي دَعْوَاهُمْ فَيَقُول: "وَادَّعَوْا مَعَ ذَلِكَ أَنَّ اَلْقَوْم شِعْرًا وَقَدْ قَرَأْنَاهُ فَوَجَدْنَا قَلِيل اَلْمَاء نَزْر اَلْحَلَاوَة غَيْر مُسْتَقِيم اَلْوَزْن بَلَى اَلشِّعْر شَعْر اَلْعَرَب بِالْإِغْوَاءِ وَحَافِظ مَآثِرهمْ وَمُقَيِّد أحسابهم.

ثُمَّ لِلْعَرَبِ اَلْعُرُوض اَلَّتِي هِيَ مِيزَان اَلشِّعْر وَبِهَا يَعْرِف صَحِيحَة مِنْ سَقِيمَة وَمِنْ عُرْف دَقَائِقه وَأَسْرَاره وَخَفَايَاهُ عَلِمَ أَنَّهُ يُرَبِّي عَلَى جَمِيع مَا يَتَبَجَّح بِهِ هَؤُلَاءِ اَلَّذِينَ يَنْتَحِلُونَ مَعْرِفَة حَقَائِق اَلْأَشْيَاء مِنْ اَلْأَعْدَاد وَالْخُطُوط وَالنُّقَط اَلَّتِي لَا أَعْرِف لَهَا فَائِدَة غَيْر أَنَّهَا مَعَ قِلَّة فَائِدَتهَا تَرْق اَلدِّين وَتَنْتج كُلّ مَا نُعَوِّذ بِاَللَّهِ مِنْهُ!!! "

وَهُوَ بِعِبَارَتِهِ اَلْأَخِيرَة هَذِهِ يَعُود إِلَى نَغْمَته اَلْقَدِيمَة فِي إِنْكَارهَا مَا تَرْجَمَ قَوْمه مِنْ عُلُوم اَلْأَوَائِل وَبَرَاءَته مِنْ اَلنَّظَر فِيهَا رَغْم أَنَّهُ هُنَا

يَقُول: إِنَّهُ قَرَأَ مَا يَزْعُمُونَهُ لَهُمْ مِنْ شِعْر وَوَجَدَهُ قَلِيل اَلْمَاء إِلَخْ وَلَيْسَ مِنْ اَلِاسْتِطْرَاد أَنْ أُسْمِعكُمْ عِبَارَاته اَلَّتِي أُشِير إِلَيْهَا هُنَا فِي عُلُوم اَلْأَوَائِل وَالْبَرَاءَة مِنْهَا إِذْ يَقُول: "وَقَدْ زَعَمَ نَاسٍ أَنَّ عُلُومًا كَانَتْ فِي اَلْقُرُون اَلْأَوَائِل وَالزَّمَن اَلْمُتَقَادِم وَأَنَّهَا دَرَسَتْ وَجَدَّدَتْ مُنْذُ زَمَان قَرِيب وَتَرْجَمَتْ وَأَصْلَحَتْ مَنْقُولَة مِنْ لُغَة إِلَى لُغَة وَلَيْسَ مَا قَالُوا بِبَعِيد وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ اَلْعُلُوم بِحَمْد اَللَّه وَحَسَن تَوْفِيقه مَرْفُوضَة عِنْدنَا فَلَيْتَ شِعْرِي وَالشَّيْخ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ إِنْكَار لِقَوْل اَلْغُرَبَاء وَرَفْض لَهُ بِحَمْد اَللَّه وَحَسَن تَوْفِيقه مَاذَا هُوَ قَائِل إِذَا أَلْقَيْنَا إِلَيْهِ بَعْض قَوْل مَنْ وَرَّثُوا أُولَئِكَ اَلْقَوْم عَنْ خِصِّيصَة اَلْإِعْرَاب اَلَّتِي أُفْرِد هُوَ بِهَا اَلْعَرَبِيَّة ذَا يَقُول هَذَا اَلْإِفْرِنْجِيّ فِي مِصْر وَعَلَى مَنَابِر اَلدَّرْس فِيهَا "اَلْإِعْرَاب سَامِي اَلْأَصْل تَشْتَرِك فِيهِ اَللُّغَة الأكدية وَفِي بَعْضه اَلْحَبَشِيَّة وَنَجِد آثَارًا مِنْهُ فِي غَيْرِهَا" هَذَا إِذَا لَمْ نَذْكُر لَهُ شَيْئًا مِنْ أَمْر اَلْإِعْرَاب فِي لُغَات اَلَّذِينَ زَعَمُوا لَهُمْ نَحْوًا كَمَا زَعَمُوا لَهُمْ عُلُومًا تَرْجَمُوهَا.

وَمِنْ هَذَا اَلْمِثَال اَلْوَحِيد اَلَّذِي نجتزئ بِهِ فِي مَقَام اَلْحَدِيث عَنْ اَلتَّفْضِيل اَللُّغَوِيّ لِلْعَرَبِيَّةِ وَمِنْ هَذَا اَلْمِثَال تُدْرِكُونَ مَا أَرَدْت لِأَوْجُه ذِهْنكُمْ إِلَيْهِ مِنْ مَال لِلدَّرْسِ اَللُّغَوِيّ يَعُوز مُشْكِلَاتنَا اَللُّغَوِيَّة اَلْكَثِير مِنْهُ وَلَا تَسْتَقِيم لَنَا مُحَاوَلَة إِصْلَاحِيَّة وَلَا حُكْم لُغَوِيّ فِي هَذَا اَلْمَيْدَان إِلَّا بَعْد اَلْإِلْمَام بِهَذَا اَلدَّرْس بَلْ بَعْد اَلتَّشَبُّع مِنْهُ وَالتَّخَصُّص فِيهِ.

وَلَئِنْ طَالَ حَدِيثِي ليكم عَنْ اَلْمَنْهَج وَتُكَرِّر فَمَا أبتغى إِلَّا أَنْ

تَنْتَبِهُوا إِلَى اَلشُّعُور بِهَذَا اَلْوُجُوب قَدْ مَا تَتَمَثَّلُونَ صَوَاب اَلْمَنْهَج فَقَدْ طَالَ قَوْلنَا وَقَوْل سِوَانَا فِي اَللُّغَة وَشَأْنهَا وَتَمَادِي بِهِ اَلزَّمَن وَنَحْنُ وَهْم مبدىء وَنُعِيد فِي عُزْلَة اَلْعَرَبِيَّة وَقُصُورهَا وَضَرُورَة رَدّ اَلْحَيَاة إِلَيْهَا وَأَهَمِّيَّة مُسَايَرَتهَا لِحَاجَات اَلْأُمّ اَلَّتِي وَرِثْتهَا.. إِلَخْ دُون أَنْ يَبْدُو لِذَلِكَ كُلّه أَثَر يُذَكِّر أَوْ يَتَنَاسَب مَعَ اَلسِّنِينَ اَلطِّوَال اَلَّتِي مَضَتْ عَلَى هَذَا اَلْحَدِيث اَلْأَجْوَف وَعَلَى مَا تَلَاهُ مِنْ جُهُود تَكَرَّرَتْ فِي اَلْإِقْلِيم اَلْوَاحِد مِنْ أَقَالِيم تِلْكَ اَلْعُرُوبَة، وَتَعَدَّدَتْ فِي مَوَاطِنهَا اَلْمُخْتَلِفَة وَكَانَتْ تَنْتَهِي جَمِيعًا إِلَى مَالًا يَتَسَاوَى فِي شَيْء مَعَ اَلْإِعْدَاد وَالتَّدْبِير بَلْ اَلْبَذْل وَالْإِنْفَاق وَجِهَاد رِجَال عماليق فِي أَقْوَاهُمْ كِبَار فِي هَيْئَاتهمْ نَصَبَتْ لَهُمْ الدولات وَأَفْسَحَتْ اَلْمَجَالَات صُمّ مَضَى اَلزَّمَن فَإِذَا قَائِلهمْ يَقُول بَعْد ثَمَانِيَة بَعْد عَشْر عَامًا إِنَّهُمْ لَمْ يَبْلُغُوا فِي صِرَاع بَيْن اَلْفُصْحَى وَالْعَامِّيَّة.

وَمَا أَقْدَرَ مِنْ أَسْبَاب ذَلِكَ اَلْقُصُور إِلَّا أَمْر اَلْمَنْهَج اَللُّغَوِيّ وَتَصْحِيحه وَالدَّرْس اَلسَّلِيم وَتَحْقِيقه فَلَوْ قَدْ تَأَصَّلَ ذَلِكَ وَتَأَسَّسَ لَكَانَ مِنْ أَوَائِل اَلْحَقَائِق فِيهِ اِسْتِقْرَار اَلنَّوَامِيس اَللُّغَوِيَّة وَالِاجْتِمَاعِيَّة وَالْبَصَر بِالطَّرَائِقِ اَلْحَيَوِيَّة فِي تَفَاعُل اَللُّغَات وَفِعْل اَلزَّمَن بِهَا وَكَيْفَ تُؤَيِّد اَللُّغَات فِي ذَلِكَ بِالْوَسَائِلِ اَلْمُجْدِيَة اَلْمُجَرَّبَة لَا بِالتَّعَصُّبِ تَارَة وَالتَّمْجِيد طَوْرًا وَالتَّنْزِيه حِينًا وَالتَّدَيُّن آنًا مِمَّا ظَلِلْنَا بِهِ نَدُور فِي حَلْقَة مُفَرَّغَة لَا يَدْرِي أَيْنَ طَرَفَاهَا..

وَهَذَا اَلْقَلَم – كَمَا قَدَّمَتْ اَلْفَاتِحَة اَلْأَوْلَى مُسْتَهْتِر بالمهجية مُولَع

بِهَا فِي كُلّ مَادَّة وَدَرْس وَهِيَ فِي هَذِهِ اَللُّغَوِيَّات عَلَى مَا تَبَيَّنَّا أَوْجَبَ وُجُوبًا وَأَشَدّ لُزُومًا وَلَقَدْ اِتَّسَقَ اَلْقَوْل فِي بَيَانِهَا حَتَّى لِأَرْجُوَ أَنْ تَكُونُوا قَدْ لَمَحْتُمْ مِنْ ثَنَايَا اَلْمَوَاقِف اَلْمُتَعَدِّدَة فِي هَذِهِ اَلْمُحَاضَرَات اَلْقَلِيلَة مَا وَجِهَة اَلدَّرْس اَلْمُصَحَّحَة وَانْتَهَيْتُمْ فِيهَا إِلَى إِبْرَاء هَذَا اَلدَّرْس مِنْ مُقَرَّرَات قَدِيمَة لَا أَصْل لَهَا وَلَا أَسَاس وَمِنْ تَفْضِيلَات عَدِيدَة لاوجه لَهَا وَلَا حَقّ وَتَهَيَّأْتُمْ بِذَلِكَ لِالْتِمَاس شَيْء آخَر بَعْدَمَا شَعَرْتُمْ اَلشُّعُور اَلْحَقّ بِالْحَاجَةِ إِلَى هَذَا اَلْمَطْلُوب وَشُعُورِكُمْ بِمَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَغَيَّر وَمَا يَجِب أَنْ يَطْلُب يَتْرُكنَا فِي جَوّ بَلِيد مِنْ اَلتَّفَاهَة يَجْعَل اَلنَّظَر إِلَى حَالنَا وَحَالَ اَلدُّنْيَا حَوْلنَا يُدْهِش كَيْفَ نُرْضِي بِمَا نَحْنُ فِيهِ وَكَيْفَ يَتَبَجَّح مُحَدِّثُونَ مِنَّا وَمَسْئُولُونَ وَغَيْر مَسْئُولِينَ عَنْ حَدِيث اَلتَّقَدُّم وَالنَّهْضَة وَالتَّطَوُّر.. الخ..!!

وَمَعْذِرَة لِمَا مَضَى مِنْ حَدِيث كَادَ يَكُون جَامِحًا فِي مَيْدَان دَرْس عِلْمِيّ لَا فُسْحَة فِيهِ إِلَّا لِلْحَقَائِقِ اَللُّغَوِيَّة عَنْ مُشْكِلَات حَيَاتنَا اَللِّسَانِيَّة وَلَكِنَّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَوَّل مَا سَمِعْتهمْ أَنَّ اَلْخَطَر أَنَّ اَلشُّعُور بِمَا يَنْبَغِي أَنْ نَطْلُبهُ وَأَنْ نُغَيِّرهُ هُوَ أَهَمّ مَا يَتَقَدَّم هَذَا اَلطَّلَب وَدَّاك اَلتَّغَيُّر وَلَنْ يُثِير اَلشُّعُور إِلَّا مِثْل هَذَا اَلْحَدِيث اَلْعَالِي يَحْدُوهُ اَلْإِيمَان اَلْحَارّ وَيُثِيرهُ اَلِانْدِفَاع اَلنَّفْسِيّ وَالْحَمَاس اَلرُّوحِيّ اَلَّذِي يَفِيض عَنْ غَيْر تَنَبُّه فَلَا يُسْتَطَاع كَبْته.

وَبَعْد فَإِنَّ اَلَّذِي قَدَّمَنَا مِنْ مِثَال لِلْكَمَالِ اَللُّغَوِيّ وَالتَّفْضِيل لِلْعَرَبِيَّةِ يَظَلّ عَلَى مَدَى اَلدَّهْر يجرى وَيُتَدَاوَل فَهَذَا صَاحِب اَلْمُزْهِر بَعْد بِضْعَة قُرُون مِنْ عَهْد اِبْن فَارِس يَكَاد يُلَخِّص أَقْوَاله كُلّهَا عَنْ فَضْل اَلْعَرَبِيَّة تَحْت عُنْوَان أَنَّهَا اَلنَّوْع اَلثَّانِي وَالْعِشْرُونَ مِنْ أَنْوَاع عُلُوم اَللُّغَة وَهُوَ مَعْرِفَة خَصَائِص اَللُّغَة عَلَى أَنْ لَا نَجْزَع مِنْ هَذَا مِثْل جَزَعنَا عَنْ مُحَدِّثِينَ قَدْ شاموا مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنْ مَنْهَج لُغَوِيّ وَحَالَتْ الحوائل بَيْن عُقُولهمْ وَبَيْن هَذَا اَلْحَدِيث اَلسَّاذَج وَنَوَامِيس اَلْحَيَاة اَللِّسَانِيَّة نَعَمْ إِنَّنَا نَخْشَى مِثْل هَذَا اَلِانْدِفَاع فِي مَجَال اَلِانْفِرَاد اَلْحَيَوِيّ وَالْخَوَارِق اَلطَّبِيعِيَّة حِين نَجِد مَنْ يُحَدِّث اَلْيَوْم بِمِثْل مَا سَمِعْتُمْ عَنْهُ فِي مَجَال اَلتَّهْذِيب اَللُّغَوِيّ لِأَنَّ ذَلِكَ اَلْقَوْل يَشْغَلنَا بِخَطَأ لَا مَعْنَى لِلِانْشِغَالِ بِهِ اَلْآن وَفِي اَلدُّنْيَا حَوْلنَا مِنْ اَلتَّقَدُّم اَلثَّقَافِيّ مَا يَكْشِفهُ وَيَهْدِمهُ.

وَبِقَدْر اِشْتِغَالنَا بِهَذَا اَلْوَهْم اَلْخَاطِئ نَنْصَرِف عَنْ اَلْعِنَايَة بِالصَّحِيحِ اَلنَّافِع اَلَّذِي أَهِيب بِكُمْ أَنْ تُمَثِّلُوهُ وَتَشْعُرُوا بِهِ شُعُورًا وَاضِحًا قَوِيًّا فَعَّالًا.

وَلَا أُطِيل عَلَيْكُمْ بَلْ لَا أُرْهِقكُمْ بِسَمَاع اَلْكَثِير مِنْ هَذَا اَلتَّفْضِيل وَالْكَمَال اَللُّغَوِيّ اَلْمُحْدِث وَحَسَبكُمْ اثاره مِنْهُ تَزِيدكُمْ نُفُورًا وتملؤكم بِغَيْرِهِ شُعُورًا فَالْمَرْحُوم اَلسَّيِّد مُصْطَفَى اَلرَّافِعِيّ اَلَّذِي سَمِعْنَا قَرِيبًا بَعْض قَوْله اَلْمُسْرِف بلاحجة فِي اَلتَّهْذِيب اَللُّغَوِيّ لَا يَلْبَث فِي هَذَا اَلْمَقَام مِنْ كَمَال اَلْعَرَبِيَّة وَفَضْلهَا أَنْ يُلَخِّص مَا فَصَلَهُ اِبْن فَارِس فِي الصاحبي

مِمَّا اجتزأت مِنْهُ بِمِثْل اَلْإِعْرَاب اَلسَّابِق ثُمَّ لَا يَكْتَفِي بِذَلِكَ بَلْ يُضْفِي عَلَى اَلْعَرَبِيَّة مِنْ اَلْجَوّ اَلْفَنِّيّ مَا يَضَعك فِي غَمْرَة مِنْ إِنْجَاز اَلْعَرَبِيَّة وَخِلَافهَا عَلَى سُنَن اَللَّه فِي خُلُقه وَتَفَرُّد اَلطَّبِيعَة اَلْعَرَبِيَّة وَالْبِيئَة اَلْعَرَبِيَّة بِمَا شَاءَ اَللَّه وَلَهُ أَنْ يُفْرِدهَا بِهِ وَيَرْفَعهَا إِلَى مَا وَرَاء اَلطَّبِيعَة كَقَوْلِهِ بَيْدَ أَنَّ اَلْحِكْمَة أَلْقَتْ فِي طِبَاعهمْ هَذَا اَلنِّظَام اَللُّغَوِيّ وَجَعَلَتْهُمْ بِحَيْثُ يناسقون فِي سَبِيله إِلَى اَلْكَمَال، لَا تَعْتَرِضهُمْ عَقَبَة وَلَا يَصْرِف وُجُوههمْ عَنْهُ صَارِف مِنْ نِظَام اَلْمَدَنِيَّة فَمَضَوْا عَلَى ذَلِكَ وَاللُّغَة تَتَخَطَّى لَهُمْ دَرَجَات اَلِاجْتِمَاع وَاحِدَة فَوَاحِدَة حَتَّى اِنْتَهَتْ بِهِمْ إِلَى اَلْوَحْدَة اَلْجِنْسِيَّة فَتَغَيَّرَ مَجْمُوعهمْ وَانْصَبَّ عَلَى اَلْعَالَم بِقُوَّة جَدِيدَة فَنِّيَّة صَادَفَتْ دُوَلًا قَدِيمَة بَالِغَة فَصَدَمْتهَا تِلْكَ اَلصَّدْمَة اَلَّتِي هَدَمَتْ اَلتَّارِيخ وَبَنَى بَعْدهَا جَدِيدًا وَلَوْلَا اَللُّغَة مَا اِنْتَظَمَ أَمْر اَلْعَرَب.

وَهَكَذَا تَبِعَتْ اَلْحَيَاة اَللُّغَة وَلَمْ تَتْبَع اَللُّغَة اَلْحَيَاة وَصَارَتْ اَللُّغَة هِيَ اَلْعَامِل اَلِاجْتِمَاعِيّ اَلْأَوْحَد فِي نَهْضَة اَلْعَرَب اَلْإِسْلَامِيَّة وَلَوْلَا اَللُّغَة مَا اِنْتَظَمَ أَمْر اَلْعَرَب وَهَذَا شَيْء لَا يَدُلّنَا بِمُنَاقَشَتِهِ وَالْوُقُوف عِنْده لِأَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا يَدْخُل فِي حِسَاب اَلطَّبِيعَة وَنِظَام اَلتَّمَدُّن اَلَّذِي يُحَدِّث عَنْهُ اَلرَّافِعِيّ فِي اَللُّغَة..!!

وَمَا يَزَال اَلرَّجُل يَنْثُر فِي اَلْجَوّ اَلْغَرَائِب وَالْمُعْجِزَات مِنْ أَمْر هَذِهِ اَللُّغَة بِمثا قَوْله وَهَذِهِ اَللُّغَة يُوشِك أَنْ يَكُون أَمْرهَا مُعْجِزًا عَلَى مَا رَأَيْت بِحَيْثُ لَا يَغْلُو فِي رَأْينَا مَنْ يَقُول إِنَّهَا سَبِيل مَنْ اَلْأَوْضَاع اَلْإِلَهِيَّة

وَالتَّوْفِيق وَالْإِلْهَام لِأَنَّ أَثَر ذَلِكَ قَدْ ظَهَرَ فِي اَلْقُرْآن..!

كَمَا يَقُول "وَيُنْزِهُ أَنْ تَجِد ذَلِكَ كُلّه طُرُق اَلْوَضْع فِي لُغَة مِنْ اَللُّغَات عَلَى مِقْدَار مَا تَجِدهُ فِي اَلْعَرَبِيَّة فَلَا جَرَمَ كَانَتْ حَرِيَّة بِأَنْ تَكُون مَنَاط اَلْإِعْجَاز لِأَنَّهَا اَلْخِلْقَة اَللُّغَوِيَّة اَلْكَامِلَة ."

وَالْغَرِيب أَنَّ هَذَا اَلَّذِي يَتْرُك اَلْأَمْر لِلتَّوْفِيقِ وَالْإِلْهَام وَيَنْتَهِي بِهِ إِلَى اَلْإِعْجَاز يَمُرّ بِخَاطِرِهِ اَلْوَضْع اَلْعِلْمِيّ لِفَهْم خَصَائِص اَلْعَرَبِيَّة فَلَا يَجِدهُ إِلَّا أُمْنِيَة اَلْمُتَمَنِّي وَإِسْرَاف اَلْآمِل اَلْوَاهِم كَمَا تَجِدهُ فِي قَوْله عَنْ اَلِاشْتِقَاق:

"وَلَوْ أَنَّ أَحَد عَكَفَ عَلَى هَذِهِ اَللُّغَة فَتَتْبَع أَلْفَاظهَا وَتُدَبِّر وُجُوه اِشْتِقَاقهَا وَتَفْقِد مَوَاقِع كَلَام اَلْعَرَب وَرُتَب صِيَغهَا وَأَوْزَانهَا عَلَى مَا تَقْتَضِيه أَغْرَاضهَا بِحَيْثُ يَسْتَقِرّ كُلّ مِثَال فِي نِصَابه وَيَرُدّ إِلَى حَيِّزه لَجَاءَ مِنْ ذَلِكَ بِعِلْم يَكْشِف عَنْ كَثِير مِنْ أَسْرَار لِوَضْع ."

فَهُوَ بِمَا وَصَفَ مِنْ هَذَا اَلتَّتَبُّع قَدْ لَمَسَ مَوْضِع اَلْحَاجَة وَأَمْسَكَ بِأَوَّل اَلْخَيْط فَلَيْتَهُ عَلَى اَلْأَقَلّ قَدْ طَالَبَ اَلنَّاس بِمِثْل هَذَا اَلدَّرْس لَكِنَّهُ لَا يَلْبَث أَنْ يَدْخُل فِي غَيْبِيَّته بَعْد مَا مَضَى مُبَاشَرَة فِي وَصْف عَمَل هَذَا اَلْبَاحِث اَلْمُتَتَبِّع كَمَا وَصَفَ مَا عِبَارَته "وَيَهْتِك عَنْ أَسْرَار اَلْحِكْمَة المستكنة فِي دَقَائِق هَذِهِ اَللُّغَة اَلْعَجِيبَة اَلَّتِي يَزِيد مِنْهَا أَنَّهَا لُغَة تِلْكَ اَلْعُقُول اَلْفِطْرِيَّة وَالْفِطْرَة وَإِنْ كَانَتْ دَائِمًا تَخْتَصّ بِمَسْحَة إِلَهِيَّة، إِلَّا أَنَّهَا تَكُون أَصْل اَلْكَمَال فِي اَلنَّفْس لَا نَفْس اَلْكَمَال" وَهَكَذَا لَعِبَتْ

برؤوسنا اَلْأَلْفَاظ اَلْمُتَرَدِّدَة اَلْمُتَرَاقِصَة وَدَخْلنَا فِي جوّ مِنْ اَلشَّطْح تَحَدُّث فِيهِ عَنْ اَلْمَسْحَة اَلْإِلَهِيَّة اَلْعَجِيبَة وَالْعَجَب اَلزَّائِد وَنَسِينَا وَتَرَكْنَا كُلّ مَا رَنَوْنَا إِلَيْهِ رنوة خَاطِفَة مِنْ اَلْبَحْث وَالدَّرْس.

ذُلّكُمْ هُوَ مَا أَكْثَرَتْ فِيهِ لِأَلْفِتكُمْ إِلَى خَطِرَة وَأُمَثِّل لَكُمْ مَا أَخْشَاهُ مِنْ سُوء عَقِبَاهُ أَمْس وَالْيَوْم.

وَلَئِنْ كَانَ مِثْل هَذَا يَكُون مِنْ مُتَقَدِّمِي اَلْمُحْدَثِينَ مُنْذُ قُرَابَة نِصْف قَرْن مِنْ اَلزَّمَان فَلَيْسَ مِنْ اَلْيَسِير أَنْ يَكُون مِنْ متأخري أُولَئِكَ اَلْمُحْدَثِينَ بَعْد أَنْ اِسْتَوْثَقَتْ اَلصِّلَة بِالدُّنْيَا اَلْعَالِمَة ثُمَّ أَنْ يَكُون ذَلِكَ مِنْ لَغْوِي جَلِيل قَدْ تَمَثَّلَ اَلْمَنْهَج اَللُّغَوِيّ تَمَثُّلًا صَحِيحًا وَجَالَ فِي اَلْمَيْدَان اَللُّغَوِيّ جَوْلَات مُوَفَّقَات وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَقُول اَلْوَاقِع يَشْهَد بِأَنَّ اَلْعَرَبِيَّة تَنْفَرِد بِاعْتِبَارَات هَيَّأَتْ لَهَا مَذْهَبًا فَذًّا لَا يَتَأَتَّى تَفْسِيره بِمَذْهَب اَللُّغَات سِوَاهَا بَلْ رُبَّمَا كَانَ هَذَا اَلْمَنْحَى يَزِيدهَا غُمُوضًا مُطْلَقًا فَكَيْفَ يحيز مِثْل اَلسَّيِّد عَبْد اَللَّه اَلْعَلَايْلِيّ صَاحِب اَلْجُهْد اَلْكَبِير فِي اَلْمُعْجَم وَصَاحِب اَلدِّرَاسَة اَللُّغَوِيَّة اَلصَّحِيحَة أَنْ نُخْرُج اَلْعَرَبِيَّة عَلَى قَوَانِين اَللُّغَات اَلَّتِي هِيَ فِي حِسَاب اَلِاجْتِمَاع اَللُّغَوِيّ مِنْ وَادِي اَلْقَوَانِين اَلطَّبِيعِيَّة إِلَى حدّ كَبِير كَمَا أَنَّهُ يَقُول إِنَّ اَلْعَرَبِيَّة اَلْقَدِيمَة كَانَتْ أَسْمَى مِنْ تَفْكِير اَلْعَرَب اَلْقُدَامَى" فَكَيْفَ يَتَّفِق أَنْ تَكُون اَلصِّلَة بَيْن اَللُّغَة وَأَصْحَابهَا عَلَى هَذَا اَلْوَجْه مِنْ اَلِاضْطِرَاب والتعاكس وَهِيَ فِي اَلْحِسَاب اَلصَّحِيح لَيْسَتْ إِلَّا صَدَى وَانْعِكَاسهَا لِحَالِهِمْ وَمِنْ هَذَا

اَلْوَادِي قَوْله: "نَقِف مِنْهُ عَلَى مِقْدَار مَا تَزْخَر بِهِ اَلْأَلْفَاظ مِنْ حَضَارَة عَرَبِيَّة طَوَاهَا اَلتُّرَاب فِي غَفْلَة اَلتَّارِيخ واهتضمتها اَلرِّمَال فِي شرة وَشَرَه "فَمَا دَامَتْ لِلْقَوْمِ هَذِهِ اَلْحَضَارَة وَلَا بَأْس عَلَيْهِ فِي اِدِّعَائِهَا فَفِيمَ كَانَتْ لُغَة أَهْلهَا أَسْمَى مِنْ تَفْكِيرهمْ..!!

وَإِذَا كَانَتْ اَللُّغَة بِحَيْثُ تُمَثِّل حَيَاتهمْ ذَلِكَ اَلتَّمْثِيل وَتَكْشِف عَنْ نَهْضَتهمْ وَحَضَارَتهمْ فَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهَا تُسَايِر حَيَاتهمْ خُطْوَة خُطْوَة..

وَالسَّيِّد صَاحِب هَذِهِ اَلْكَلِمَات لُغَوِيّ مَنْهَجِيّ نَرْجُو أَنْ تَتَّسِع هَذِهِ اَلْمُحَاضَرَات نُعْرِض فِكْرَته عَنْ تَطَوُّر اَلْعَرَبِيَّة وَمُوَازَنَتهَا بِغَيْرِهَا مِنْ أَحَادِيث هَذَا اَلتَّطَوُّر.. لَكِنَّهُ رَغْم ذَلِكَ كُلّه يتسمح قَلَمه بِمِثْل هَذِهِ اَلْعِبَارَات اَلَّتِي ترفدها عِبَارَات كَثِيرَة لَهُ عَنْ سموق اَلْعَرَبِيَّة وَكَمَالهَا وَمَا نَخَال ذَلِكَ كُلّه إِلَّا صَدَى لِمَا يَتَنَفَّس بِهِ اَلْجَوّ مِثْل مَا سَمِعْتُمْ عَنْ فَضْل اَلْعَرَبِيَّة وَكَمَال اَلْعَرَبِيَّة وَانْتِهَاء اَلْعَرَبِيَّة إِلَّا مَا لَا شَيْء بَعْده..!

وَنَخْتِم هَذَا اَلْحَدِيث عَنْ كَمَال اَلْعَرَبِيَّة بِكَلِمَة لِلسَّيِّدِ اَللُّغَوِيّ أنستاس اَلْكَرْمَلِيّ فِي بَيَان حَيْلُولَة هَذَا اَلْقَوْل بِالْكَمَالِ وَالسُّمُوّ دُون اَلدَّرْس وَالْبَحْث إِذَا يَقُول إِنَّ اَلنَّاطِقِينَ بِالضَّاد اَلَّذِينَ أَمْعَنُوا فِي تَدَبُّر لُغَتهمْ وَتَقْلِيبهَا عَلَى مَنَاحٍ وَوُجُوه شَتَّى اِزْدَرَوْا بِكُلّ لِسَان سِوَاهَا ظَانِّينَ أَنَّهَا فَوْق كُلّ لُغَة لَا يُمْكِن أَنْ يُدَانِيهَا شَيْء مِنْ كَلَام اَلْبَشَر فَكَانَ هَذَا اَلِاعْتِزَاز دَاعِيًا بَلْ نَاعِيًا كُلّ تَبَحُّر فِي مُعَارَضَتهَا بِسَائِر اللغي وَالْأَلْسِنَة"

تِلْكَ حَقِيقَة جَرَى بِهَا قَلَم اَلرَّجُل وَإِنْ كَانَ فِي غَيْر ذَلِكَ اَلْمَوْطِن مِنْ مُسْرِفِي اَلْمُفَضَّلَيْنِ وَإِلَى هُنَا نَدَع كَذَلِكَ حَدِيث اَلتَّفْضِيل اَللُّغَوِيّ غَيْر مُسْتَمْسِكِينَ بِشَيْء مِنْهُ لِنُصْغِيَ فِي إِخْلَاص لِلْحَقّ صَادِق وَشُعُور قَوِيّ أَصِيل بِالْحَاجَةِ إِلَى اَلْمَنْهَج اَلْمُحَرّر فِي مُوَاجَهَة مُشْكِلَاتنَا اَللُّغَوِيَّة.. نُصْغِي لِلْكَلَامِ عَنْ: –

اَلتطوُّر اَللُّغوِيّ لِلْعَرَبِيَّةِ

وَمَا مِنْ شَكّ فِي أَنَّكُمْ فِي أَثْنَاء مَا عَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ هَذَا اَلتَّشْخِيص لِحَال اَلْعَرَبِيَّة وَالْفَحْص لِمُقَرّرَات اَلْأَقْدَمِينَ فِيهَا عَنْ تَكْوِينهَا وَاسْتِكْمَالهَا وَكَمَالهَا قَدْ اِنْتَبَهْتُمْ إِلَى أَيْنَ كُنْت أَدْفَع اَلْحَدِيث دَفْعًا وَاضِحًا بَيْن اَلْحِين وَالْحِين إِلَى هَذَا اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ.. وَأَلَّفَتْ إِلَيْهِ وَأَعْرِف بِهِ أَصْلًا وَاسْتَطْرَدَ وَذَلِكَ لِأَسْبَاب مِنْهَا:

أَوَّلًا: أَنَّ هَذَا اَلتَّطَوُّر هُوَ اَلْجِذْر اَلْعَمِيق لِلْمَنْهَجِ اَلْعِلْمِيّ اَللُّغَوِيّ فَفِي رُسُوخه وَتَأَصُّله رُسُوخ وَتَأَصُّل لِهَذَا اَلْمَنْهَج.

ثَانِيًا: أَنَّ هَذَا اَلتَّطَوُّر يقتضينا عَمَلًا جَلِيلًا جَبَّارًا فِي اَلدَّرْس اَللُّغَوِيّ لِلْعَرَبِيَّةِ كَشْفًا لمسارب سِيرَة وَمَسَالِك تَنَقُّله لِيَكُونَ حَدِيثًا عَنْ هَذِهِ اَلْعَرَبِيَّة حَدِيثًا صَحِيح اَلْأَصْل سَدِيد اَلْخُطُوَات وَلِيَكُونَ عَمَلنَا فِي خِدْمَتهَا أَوْ إِصْلَاح شَيْء مِنْ أَمْرهَا صَحِيح اَلْأَسَاس مُوَفَّق اَلِاتِّجَاه مُحَقَّقًا لِغَايَة حِين يَأْخُذ اَلْوُجْهَة اَلَّتِي يَدُلّ اَلتَّطَوُّر عَلَى اِتِّجَاههَا إِلَيْهَا.

ثَالِثًا: وَهُوَ اَلْأَقْرَب – إِنَّ هَذَا اَلتَّطَوُّر يُوَاجِه بِالْمُعَارَضَةِ تِلْكَ اَلْمُقَرَّرَات اَلَّتِي يَقُول غَيْر قَلِيلِينَ عَنْهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمّه وَإِنَّا عَلَى آثَارهِمْ مُقْتَدُونَ فطَمِعَتْ أَنْ يَكُون هَذَا اَلدَّأْب فِي حَدِيث اَلتَّطَوُّر مَا رَجَوْت وَأَرْجُو لَهُ مِنْ تَأْصِيل شُعُورِكُمْ بِأَهَمِّيَّة تَصْحِيح اَلْمَنْهَج اَللُّغَوِيّ وَبِأَنَّهُ ضَرُورَة اِجْتِمَاعِيَّة حَيَوِيَّة يَجِب أَنْ تَسْبِق كُلّ مُحَاوَلَة لَنَا فِي دَرْس مُشْكِلَات حَيَاتنَا اَللُّغَوِيَّة أَوْ مُحَاوِلَة إِصْلَاحهَا.

وَمِنْ أَجْل ذَلِكَ أَخُصّ هَذَا اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ لِلْعَرَبِيَّةِ بِالْحَدِيثِ غَيْر اَلْمُوجَز فِيمَا بَقِيَ مِنْ هَذِهِ اَلْمُحَاضَرَات رَاجِيًا أَنْ تَنْتَهِي مِنْهُ إِلَى مَا يُحَقِّق اَلْمَرْجُوّ مِنْ بَعْث شُعُورِكُمْ وَاسْتِثَارَة وَعْيكُمْ.

وَأَبْدَأ مِنْ هَذَا اَلْحَدِيث بِأَنْ أَضَع بَيْن أَيْدِيكُمْ: قَضَايَا تَطَوُّرِيَّة لَعَلَّ أَكْثَرهَا مِنْ غَيْر مَا الفتم سَمَّاعَة عَنْ اَلْعَرَبِيَّة وَحَيَّاتهَا وَسَيْر اَلدُّنْيَا بِهَا فَمِنْ ذَلِكَ:

١ – أَخَذَتْ اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة طَرِيقهَا اَلتَّطَوُّرِيّ فِي اَلْحَيَاة تَمُرّ مِنْ دَوْر إِلَى دَوْر وَتَنْتَقِل مَنْ حَالَ إِلَى حَال فَتَتَغَيَّر تَغَيُّرًا عَامَا شَامِلًا فِي أُصُولهَا وَكَلِمَاتهَا وَدَلَالَتهَا وَأُسْلُوبهَا وَمَنْهَجهَا اَلْبَيَانِيّ فِي شَتَّى أَوْضَاعه وَمُخْتَلِف صُوَره وَحَتَّى ظُهُور اَلْإِسْلَام لَمْ تَكُنْ قَدْ اِسْتَقَرَّتْ عَلَى وَجْه اَلتَّمَام بَلْ ظَلَّتْ غَيْر خَالِصَة مِنْ علائق اَلْفَوْضَى فِي غَيْر نَاحِيَة كَالْمَوَازِينِ وَصِيَغ اَلْجُمُوع وَأَبْوَاب اَلْأَفْعَال.. الخ.

وَذَلِكَ اَلنَّقْص لِأَسْبَاب اِنْقِلَابِيَّة مُفَاجِئَة وَقَفَتْ بِهَا عِنْد حَدّ مَا نَرَاهَا مَسْطُورَة فِي اَلْكُتُب اَلْعَجَمِيَّة وَقَفَتْ اَللُّغَة وَلَمْ تَنْتَهِ فَكَانَ لَهَا بِالْإِغْوَاءِ مُفَاجِئ أَوْقَفَ مَا فِيهَا مِنْ عَنَاصِر فَعَّالَة.. وَقَدْ بقى فِيهَا شَيْء مِنْ مَظَاهِر اَلطُّفُولِيَّة اِجْتَهَدَتْ اَلْعَرَبِيَّة بِالتَّخَلُّصِ مِنْهُ لَكِنْ بقى عَلَّ بَعْض صُوَره وَالْمَسَافَات اَلْوَاسِعَة اَلَّتِي بَقِيَتْ وَاضِحَة فِي مَنْطِق اَلْقَبَائِل اَلشَّتَّى وَمَنْطِق اَلْقَبِيلَة اَلْوَاحِدَة حَتَّى ذُهِلَ مِنْ كَثْرَتهَا عُلَمَاء اَللُّغَة جَمِيعًا وَرَاحُوا فِي تَعْلِيلهَا عَلَى مَذَاهِب مُتَبَايِنَة وَابْتَدَعُوا لَهَا وُجُوهًا مِنْ اَلِاخْتِلَاف اَلْقِبْلِيّ وَتَدَاخُل اَللُّغَات وَالضَّرَائِر وَالشُّذُوذ وَالْغَلَط وَهِيَ مِنْ اَلْوَجْه اَلْحَقّ لَيْسَتْ بِأَكْثَر مِنْ كَوْنهَا أَثَرَا مِنْ آثَار اَلتَّطَوُّر اَلْعَامَّة اَلَّذِي تَخْضَع لَهُ كُلّ لُغَة فِي سَيْرهَا اَلِارْتِقَائِيّ وَتُبْقَى هَذِهِ اَلْبَوَاقِي وَالْمُتَخَلِّفَات لِأَسْبَاب مَكَانِيَّة وَظَرْفِيَّة أَوْ لِأَنَّ اَلتَّطَوُّر لَمْ يَتِمّ دَوْرَته.

وَالشَّيْء اَلَّذِي لَا يُمْكِن إِبْدَاء اَلشَّكّ فِيهِ: أَنَّ اَلْعَرَبِيَّة لَمْ تَسْتَقِرّ لِعَهْد اَلْقُرْآن عَلَى وَجْه نِهَائِيّ وَكَانَتْ تَصِل إِلَى مُسْتَوَى بَعْد ذَلِكَ فِي مُحِيطهَا بِجَزِيرَتِهَا دُون خُرُوج لَكِنَّ خُرُوج اَلْعَرَب مِنْ اَلْجَزِيرَة فِي اَلْحَرَكَة اَلْإِسْلَامِيَّة مَنَعَ ذَلِكَ. اَلْعَرَبِيَّة اَلَّتِي لَمْ تَسْتَقِرّ لِعَهْد اَلْقُرْآن عَلَى وَجْه نِهَائِيّ كَانَ أَزْهَى عُصُورهَا فِي خِلَال اَلْقُرُون اَلْأُولَى بَعْد اَلْهِجْرَة عَلَى رَأَى.

ظَلَّتْ اَلْعَرَبِيَّة عُرْضَة لِلتَّطَوُّرِ اَلْمُطَّرِد فِي مُخْتَلِف عَنَاصِرهَا أَصْوَاتهَا وَقَوَاعِدهَا وَمَتْنهَا وَدَلَالَتهَا.. وَمِنْ اَلتَّطَوُّر اَلطَّبِيعِيّ اَلْمُطَّرِد مَا يَكُون مِنْ

تَطَوُّر أَعْضَا اَلنُّطْق فِي اَلْإِنْسَان فَأَعْضَاء نُطْقنَا تَخْتَلِف عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ عِنْد آبَائِنَا اَلْأَوَّلِينَ بَلْ عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ لُغَة اِنْحِرَاف مَا فِي أَثْنَاء اِنْتِقَالهَا مِنْ اَلسَّلَف إِلَى اَلْخَلَف وَفِي هَذَا اَلتَّطَوُّر تَتَغَيَّرّ أَصْوَات وَقَدْ أُحَدِّث هَذَا اَلتَّطَوُّر لِلْأَصْوَاتِ اِنْقِلَابًا كَبِيرًا فِي عِلْم اَللُّغَات اَلَّتِي كَانَتْ تَسِير عَلَيْهَا كَالْعَرَبِيَّةِ وَاللَّاتِينِيَّة وَمَا إِلَيْهِمَا.

وَلَعَلَّ أَكْبَر اِنْقِلَاب حَدَث فِي اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة هُوَ مَا أَتَى جَمِيع اَلْكَلِمَات اَلْعَرَبِيَّة وَانْتَقَصَهَا مِنْ أَطْرَافهَا وَجَرَّدَهَا مِنْ اَلْعَلَامَات اَلدَّالَّة عَلَى وَظَائِفهَا فِي اَلْجُمْلَة وَقَلْب قَوَاعِدهَا اَلْقَدِيمَة رَأْسًا عَلَى عَقِب فَإِنَّ أَصْوَات اَللِّين اَلْقَصِيرَة (اَلْمُسَمَّاة بِالْحَرَكَاتِ وهى اَلْفُتْحَة وَالْكَسْر وَالضَّمَّة) اَلَّتِي تُلْحِق أَوَاخِر اَلْكَلِمَات قَدْ اِنْقَرَضَتْ فِي جَمِيع اَللَّهَجَات اَلْعَامَّة اَلْمُتَشَبِّعَة عَنْ اَلْعَرَبِيَّة" عاميات مِصْر وَالْعِرَاق وَالشَّام وَفِلَسْطِين وَالْحِجَاز وَالْيَمَن وَالْمَغْرِب.. الخ) سَوَاء فِي ذَلِكَ مَا كَانَ عَلَامَة إِعْرَاب وَمَا كَانَ مِنْهَا حَرَكَة بِنَاء فَيَنْطِق اَلْآن فِي هَذِهِ اَللَّهَجَات بِجَمِيع اَلْكَلِمَات سَاكِنَة اَلْأَوَاخِر.

هَذَا اَلتَّطَوُّر اَلْمُطَّرِد يَخْضَع فِي سِيرَة لِقَوَانِين ثَابِتَة مُطَّرِدَة اَلنَّتَائِج وَاضِحَة اَلْمَعَالِم مُحَقِّقَة اَلْآثَار لَابُدَّ لِأَحَد عَلَى وَقْف عَمَلهَا وَتَغْيِير مَا تُؤَدِّي إِلَيْهِ فَلَيْسَ فِي قُدْرَة اَلْأَفْرَاد أَنْ يَقِفُوا تَطَوُّر لُغَة مَاء أَوْ يَجْعَلُوهَا تَجَمُّد عَلَى وَضْع خَاصّ أَوْ يَسِيرُوا بِهَا فِي سَبِيل غَيْر اَلسَّبِيل اَلَّتِي رَسَمَتْهَا لَهَا سِنِينَ اَلتَّطَوُّر اَلطَّبِيعِيّ اَلْمُقَرَّرَة.

وَاللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة مَثَل لِذَلِكَ فَعَلَى اَلرَّغْم مِمَّا بَذَلَ فِي صِيَانَتِهَا وَالِاحْتِفَاظ بِوَحْدَتِهَا وَمُحَارَبَة مَا يَطْرَأ عَلَيْهَا مِنْ تَحْرِيف وَلَحْن وَخَطَأ عَلَى اَلرَّغْم مِنْ اَلْأَسْوَار اَلْمَنِيعَة اَلَّتِي أُقِيمَتْ لِحِمَايَتِهَا مِنْ عُلُوم اَللُّغَة وَمَا وَضَعَ لِمَتْنِهَا مِنْ مِئَات المعجمات اَلَّتِي وَصَلَتْ بِهَا لِضَبْط اَلْأَصْوَات وَتَحْدِيد اَلْأَلْفَاظ وَالدَّلَالَات بِذَلِكَ وَبِتَسْجِيل اَلْآثَار اَلْأَدَبِيَّة إِلَى دَرَجَة مُنْقَطِعَة اَلنَّظِير وَعَلَى اَلرَّغْم مِنْ أَنَّ هَذِهِ اَلْجُهُود كَانَتْ مُؤَيَّدَة بِالْعَقِيدَةِ وَمُرْتَكِزَة عَلَى دِعَامَة مِنْ اَلدِّين فَأَنَّ اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة عَلَى اَلرَّغْم مِنْ هَذَا كُلّه لَمْ تَلْبَث أَنْ أَفْلَتَتْ مِنْ جَمِيع اَلْأَغْلَال وَتَسَلَّقَتْ اَلْأَسْوَار فِي اَلسَّبِيل اَلَّتِي أَرَادَتْهَا عَلَى اَلسَّيْر فِيهَا سُنَن اَلتَّفَرُّع اَللُّغَوِيّ فَأَصْبَحَتْ عَلَى اَلْحَالَة اَلَّتِي هِيَ عَلَيْهَا اَلْآن فِي اَللُّغَات اَلْعَامِّيَّة.

ثَبَات نَوَامِيس لِهَذَا اَلتَّطَوُّر يُوجِب عَلَى كُلّ مَنْ يُحَاوِل إِصْلَاحًا لُغَوِيًّا أَنْ يَعْمِد قَبْل كُلّ شَيْء إِلَى دِرَاسَة حَيَاة اَللُّغَة وَمَنَاهِج تَطَوُّرهَا حتي يَتَمَيَّز لَهُ اَلْمُمْكِن مِنْ اَلْمُسْتَحِيل وَيَتَبَيَّن لَهُ مَا يَتَّفِق مَعَ اَلسُّنَن اَلْكَوْنِيَّة وَمَا يَتَنَافَر مَعَ طَبِيعَة اَلْأَشْيَاء حاى إِصْلَاحَاته مُسَايَرَة لِهَذِهِ اَلطَّبِيعَة.

تِلْكَ قَضَايَا تَطَوُّرِيَّة قُصِدَتْ أَنْ تَكُون مِمَّا وَرَدَ فِي اَلْبِيئَة اَلْعَرَبِيَّة بِمِصْر أَوْ بِغَيْرِهَا فِي خُفُوت أَوْ جَهْرَة وَسَقَتْهَا إِلَيْك بِعِبَارَات أَصْحَابهَا وجمرتهم شَرْقِيُّونَ عَرَب لِئَلَّا تَكُون مَعَ ذَلِكَ غَرِيبَة اَلْوَجْه وَاللِّسَان عَنْك فَنَنْظُر فِيهَا بِإِزَاء مَا سَلَفَ مِنْ مُقَرَّرَات لُغَوِيَّة سَابِقَة تَبْتَعِد عَنْ تِلْكَ

اَلْقَضَايَا بُعْدًا وَاضِحًا فَيَلْفِتك هَذَا اَلاِخْتِلَاف اَلْبَيِّن ذَلِكَ اَللَّفْت اَلْقَوِيّ بَلْ اَلْعَنِيف اَلَّذِي رَجَوْت أَنْ أَصِل إِلَيْهِ مُنْذُ صَحَّ اَلْعَزْم عَلَى إِلْقَاء هَذِهِ اَلْمُحَاضَرَات اَلْقَصِيرَة اَلْمَدَى فَيَكُون ذَلِكَ اَلِالْتِفَات بَاعِثًا عَنِيفًا لِإِصْغَائِك إِلَى اَلْحَدِيث اَلْمُصَحَّح لِلْمَنْهَجِ اَللُّغَوِيّ وَإِلَى قَضِيَّة اَلتَّطَوُّر مِنْهُ بِخَاصَّة وَلَا أَدْخُل فِي تَفْصِيل أَوْ تَقْيِيد لِهَذَا اَلتَّطَوُّر وَقَضَايَاهُ إِلَّا بَعْد أَنْ نَسَلْك فِيهِ مَا سَلَكْنَا فِي عَرْض اَلْمُقَرّرَات اَلْقَدِيمَة فَتَلْتَمِس فِيهِ رَأَى اَلْإِخْصَائِيّينَ اَلَّذِي عَوَّلْنَا مُنْذُ أَوَّل اَلْأَمْر عَلَى أَنْ تَنْتَفِع بِتَذَاكِرِهِمْ اَلَّتِي أَعْطَوْهَا هَذَا اَلْكَائِن اَلْمَفْحُوص ثُمَّ نَلْتَمِس كَذَلِكَ مَا فِي اَلْبِيئَة اَلْعَرَبِيَّة مِنْ أَصْدَاء لِلْحَدِيثِ عَنْ اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ وَكَيْفَ تُلْفِتهُ وَإِلَى أَيّ حَدّ بَلَغَتْ فِي فَهْمه وَعَرْضه وَبِذَلِكَ نَكُون قَدْ مَهَّدْنَا اَلتَّمْهِيد اَلْكَافِي لِعَرْض مَفْصِل إِلَى حَدّ مَا عَنَّ فِكْرَة اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ لِلْعَرَبِيَّة. وَاسْتَمَعَ لِلْحَدِيثِ عَنْ: تَقْدِير اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ فَفِي سِجِلّ أُولَئِكَ اَلْإِخْصَائِيّينَ مَقَال أَحْسَبهُ اَلْوَحِيد بِعُنْوَان فِي هَذَا اَلتَّطَوُّر هُوَ:

تُطَوِّر اَلْأَلْفَاظ وَالتَّرَاكِيب وَالْمَعَانِي وَتَخَالك سَتَسْتَقْبِلُ تَحْت هَذَا اَلْعُنْوَان اَلْجَامِع رَوَائِع مِنْ اَلْفِكْر مَا دَامَ اَلْحَدِيث عَنْ تَطَوُّر اَلْأَلْفَاظ وَالْمَعَانِي جَمِيعًا وَالْمَنْسُوب اَلَّذِي جَاءَ بِهِ اَلثَّعَالِبِيّ فِي كِتَابه اَلْمَعْرُوف بِهَذَا اَلِاسْم وَإِنَّهُ كُلّه مَا خَرَجَ عَنْ سَحَر كَيْد عَرَبِيّ وَلَفْظ عَرَبِيّ أَمَّا فِي هَذَا اَلْعَصْر فَالسَّيِّد اَلْخَالِد يَقُول: وَأَكْثَرَ اَلتَّرَاكِيب اَلَّتِي جَاءَنَا بِهَا اَلْعَصْر اَلْجَدِيد إِذَا أَلْقَيْته عَلَى مَسَامِع اَلْعَرَبِيّ اَلْأَصِيل اُضْطُرَّ إِلَى أَنْ

يُفَكِّر سَاعَة وَرُبَّمَا مَا خَرَجَ بَعْدهَا بِشَيْء يُصَوِّر اَلْمَعْنَى تَصْوِيرًا حَقِيقِيًّا.

وَمَا يَلْبَث أَنْ يَصْرُخ اَلْخَالِد: "لَا يَا سَادَتِي أَنَّ سمعس لَمْ يَتَأَلَّم قَطُّ أَكْثَر مِنْ تَأَلُّمه مِنْ لَفْظ أَوْ إِضَافَة" جَاءَنَا بِهَا اَلْمُشْتَغِلُونَ بِعِلْم اَلتَّرْبِيَة فَنَسَبُوا إِلَى اَلتَّرْبِيَة "تَرْبَوِيّ" وَأَتَوْنَا بَعْد ذَلِكَ بِأَلْفَاظ وَتَرَاكِيب لَوْ حَلَفْنَا لِأَهْلِ عُصُور زُهُور اَلْعَرَبِيَّة بِالطَّلَاقِ والعتاق أَنَّهَا عَرَبِيَّة مَا صَدَقُوا وَلَا آمَنُوا جَاءَنَا متفاصحو اَلْمُتَرْجِمِيْنِ بِتَرْكِيب اَلنَّزْعَة اَلْوَاقِعِيَّة اَلْقُوَّة اَلْوِجْدَانِيَّة اَلذَّاتِيّ اَلْمَوْضُوعِيّ اَلْإِقْلِيمِيّ اَلْفِكْرَة اَلْأَسَاسِيَّة اَلْفِكْرَة اَلرَّئِيسِيَّة وَيُمْضِي بِسَرْد فِي نَحْو صَفْحَة كَامِلَة تَعْبِيرَات مِنْ هَذَا اَلطِّرَاز لَا ذَنْب لَهَا وَلَا عَيْب فِيهَا إِلَّا أَنَّ اَلسَّيِّد اَلْخَالِد رَحْمَة اَللَّه يَعِيش فِي عَصْر اَلرَّقِيق والحريم وَيَحْلِف بِالطَّلَاقِ والعتاق وَيُحَدِّث عَنْ اَلتَّطَوُّر لِيُمَجِّد اَلثَّعَالِبِيّ وَالْجَاحِظ وَيُقَرِّر أَنَّ اَلْوَاجِب أَلَّا تَنْشُر إِلَّا مَا سَلِمَ كُلّ اَلسَّلَامَة مِنْ اَلْعِوَج وَلَمْ يَسْبِق اَللِّسَان اَلْعَرَبِيّ أَنْ جَرَى بِهِ ثُمَّ يَسْتَنْجِد مُرْتَعِدًا بِزُمَلَائِهِ قَائِلًا فَبِاَللَّهِ أَلَّا تصابون بالبرداء وَقَاكُمْ اَللَّه شَرّهَا إِذَا سَمِعْتُمْ مُتَرْجِمًا يَقُول: هَذَا اَلشُّعُور لَيْسَ سَلْبِيًّا بَلْ إِيجَابِيًّا تَرْبِيَة اَلْإِيجَابِيَّة اَلْعَالِيَة اَلْمَرْكَز اَلِاسْتِثْنَائِيّ اَلْمَبْدَأ اَلِانْقِلَابِيّ دَلَّلَ بِهَا عَلَى جَوْهَر قَوْمِيّ مَرْكَز اَلتَّرْكِيز فِي اَلتَّقْسِيمَات وَمَا يَزَال فِي مِثْل هَذَا حَتَّى يَقُول: وَتَكْثُر اَلتَّرَاكِيب وَالْأَلْفَاظ اَلنَّابِيَة عَنْ مُنَاجِي اَلْبُلَغَاء فِي كَلَام أَهْل اَلْقَرْن اَلْمَاضِي وَلَا نَرَى كُلّ وَسَط فِي نَقْله وَتَصْنِيفه إِلَّا مُعْتَذِرًا عَنْ جَهْله بِأَنَّهُ يَكْتُب اَلْكِتَابَة اَلَّتِي تَرُوق جُمْهُور اَلنَّاس وَيَهْزَأ فِي بَاطِنه كُتَّابه جَامِعِيَّة أَوْ مشايخية نِسْبَة لِلْجَامِعَةِ أَوْ لِدَار اَلْعُلُوم.

وَلَا نَدْرِي مَتَى كَانَتْ اَلْجَامِعِيَّة إِمْعَانًا فِي اَلْعَرَبِيَّة اَلصَّحِيحَة مَقْرُونَة بِالْمَشْيَخَةِ وَيَعُود اَلسَّيِّد لِيَتَحَدَّث عَنْ اَلتَّعْبِيرات اَلْمُمْتِعَة اَلْمُسْعِدَة اَلَّتِي هِيَ مِنْ أَلْفَاظ وَتَرَاكِيب اَلْقَرْنَيْنِ اَلْأَوَّلِينَ لِلْإِسْلَامِ وَقَدْ اِسْتَمْتَعَ بِهَا فِي خَمْسَة كُتُب لِلْقُدَمَاءِ نَشْرهَا وَقَدْ حَوَتْ مِنْ هَذِهِ اَلْمَعَانِي أَشْيَاء كَثِيرَة وَيَذْهَب فَيُشَنِّف اَلْأَسْمَاع ويدفىء اَلْأَجْسَام فَلَا تُصَاب بالبرداء – بِذِكْر مَا فِي هَذِهِ اَلْكُتُب وَاحِدًا وَاحِدًا مِنْ تِلْكَ اَلْأَلْفَاظ اَلَّتِي صَارَتْ مِنْ هَذَا اَلْعَصْر ذَا سَمْع بَعْضهَا فَكَأَنَّهُ يَسْمَع أَلْفَاظًا أَعْجَمِيَّة وَإِذَا حَاوَلَ اَلْكَشْف عَنْهَا فِي اَلْمِيزَان مَلَّ وَكُلّ وَيَشْكُو مَنْ أَنَا قَدْ بَلَّغَ بِنَا اَلضَّعْف فِي لُغَتنَا أَحْيَانًا أَنْ صِرْنَا إِلَى حَالَة إِذَا جاولنا قِرَاءَة شِعْر جَاهِلِيّ نَقْرَأ لُغَة غَيْر لُغَتنَا وَتَقَع فِيهِ عَلَى أَلْفَاظ نَجْد فِي بَعْض اَلْأَلْفَاظ اَلْفِرِنْجِيَّة بِهَا أَكْثَر مِمَّا نَجِدهُ فِي هَذِهِ اَلْأَلْفَاظ اَلْعَرَبِيَّة وَبَعْد أَنْ يُورِد هَذِهِ اَلْحَقِيقَة اَلصَّادِقَة فِي مَعْرِض اَللَّوْم اَلَّذِي لَا يَعْتَرِف بِالْوَاقِعِ يَتَقَدَّم فَيَمْلَأ صَفَحَات بِالْأَلْفَاظِ اَلسَّهْلَة مِمَّا فِي هَذِهِ اَلْكُتُب اَلْخَمْسَة اَلَّتِي نَشَرَهَا فَتَرَى مِنْ هَذِهِ اَلْأَلْفَاظ اَلَّتِي هِيَ عِنْده أَسْهَل اَلْأَلْفَاظ مِثْل اَلْعُقْدَة: اَلْعَقَار يُقَال تَعْتَقِد فُلَان عُقْدَة إِذَا اِشْتَرَى ضَيْعَة...

والحقرية اَلْمَذَلَّة والكسى بِالضَّمِّ مُؤَخَّر اَلْعَجْز فِي كُلّ شَيْء وَالْجَمْع أكساء والبزيون ضَرْب مِنْ نَسِيج البز أَوْ مِنْ رَقِيق اَلدِّيبَاج كَمَا يَذْكُر الزيرباج – اَلْوَارِد مِنْ اَلْمَأْكُولَات وَيَصِف طَبْخهَا – وَفِي أَسْمَائِهَا مَا يَشْعُر بِطَعْمِهَا وَبَعْد صَفَحَات يَخْتِم بِقَوْلِهِ: وَهَذَا مَا أُمَكِّن

اِقْتِبَاسه مِنْ أَلْفَاظ اَلْأَسْفَار اَلْخَمْسَة اَلَّتِي نَشَرَتْهَا فَكَمْ فِي اَلْكُتُب اَلْمَطْبُوعَة وَالْمَخْطُوطَة مِنْ أَلْفَاظ أَنْسَيْنَاهَا وَنَحْنُ لَهَا مُحْتَاجُونَ كَمَا أَنْسَيْنَا مِنْ اَلْحَلَوِيَّات اِسْم العصيدة والخبيصة لِمَا جَاءَنَا مِنْ اَلْفَرَس الفالوذج واللوزينج، ثُمَّ أَنْسَيْنَاهَا لِمَا جَاءَنَا اَلتُّرْك بَرُّوِنِي وكلاج ثُمَّ أَنْسَيْنَاهَا جُمْلَة لَمَّا أَتَانَا اَلْإِفْرِنْج بِجُيُوش وبودنج وَاَللَّه أَعْلَم مَا يَدَّخِر اَلْغَيْب لَنَا مِنْ أَلْفَاظ فِي اَلْمُسْتَقْبَل لَكِنَّهُ وَهُوَ يُحَدِّث عَنْ ضَرُورَة سَيْر اَلْحَيَاة وَتَجَدُّدهَا وَتَغَيُّرِهَا وَقَدْ حَدَّثَ قَبْل عَنْ مَوْت اَلْأَلْفَاظ أَوْ اَلِاسْتِعْدَاد لِدَرْسِهَا والخ بَلْ هُوَ يَغْتَبِط بِتَجْمِيد لُغَة اَلْكِتَابَة وَاسْتِطَاعَتهَا أَنْ تَسْمَع هَذِهِ اَلْكَلِمَات اَلْمُتَجَدِّدَة كَتَجَدُّد أَصْنَاف اَلْحَلْوَى وَإِنْ لَمْ تَتَعَامَل مَعَ شَيْء مِنْهَا بَلْ تَظَلّ جَامِدَة مُحْتَفِظَة بِأُصُولِهَا وَذَلِكَ إِذْ يَقُول فِي وُضُوح مَا نَصَّهُ: "وَفِي هَذَا دَلِيل آخَر عَلَيَّ حَيَوِيَّة هذ اَللُّغَة وَقَابِلِيَّتهَا لِلتَّطَوُّرِ بِحَسْب اَلزَّمَن مَعَ اَلِاحْتِفَاظ بِأُصُولِهَا وَقَوَاعِدهَا وَبِالْفَصِيحِ مِنْ مُفْرَدَاتهَا وَشَوَارِدهَا وَلَا نَدْرِي أَيّ تَطَوُّر هَذَا اَلَّذِي يَكُون بِلَا تَغَيُّر.

وَمُخْرَج مِنْ اَلْعُنْوَان اَلضَّخْم عَنْ تَطَوُّر اَلْأَلْفَاظ وَالْمَعَانِي وَالتَّرَاكِيب بِغَيْر مَعْنَى فِي اَلتَّطَوُّر وَذَلِكَ مِنْ اَلْمَقَال اَلْوَحِيد مَا عَرَفْتَ مِنْ أَعْمَال اَلْمَجْمَع.

عَلَى أَنَّك لَا تَسْتَطِيع أَنْ تَنْسَى أَنَّ هَؤُلَاءِ اَلْمَجْمَعِيِّينَ قَدْ أَلْقَى إِلَيْهِمْ وَقِيلَ فِي نَادِيهِمْ مَا هُوَ مِنْ دَقَائِق اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ وَمَظْهَر اَلْإِحْسَاس اَلدَّقِيق فِيهِ وَمِنْ ذَلِكَ مَا حَدَّثَهُمْ بِهِ اَلدُّكْتُور إِبْرَاهِيم أَنِيس

– وَهُوَ عِنْدهمْ خَبِير بِلَجْنَة اَللَّهَجَات تَحْت عُنْوَان أَبْوَاب اَلثُّلَاثِيّ وَنَاقَشُوهُ فِيهِ وَهُوَ يَحْوِي مَعَانِي فِي اَلتَّطَوُّر تَلْفِت اَلنَّظَر مِثْل قَوْله إِنَّ اَلْأَفْعَال اَلْمُعْتَلَّة قَدْ مَرَّتْ بِهَا أَطْوَار بَاعَدَتْ بَيْنهَا وَبَيْن أَبْوَاب اَلْفِعْل اَلصَّحِيح وَصِبْغَتهَا بِصِبْغَتِهَا اَلْخَاصَّة.

وَمِثْل مَا حَدَّثَهُمْ بِهِ عَنْ اَلْقِيَاس اَلْخَاطِئ وَعَمِلَهُ فِي اِنْتِقَال اَللُّغَة بَيْن اَلْأَجْيَال كَمَا أَشَرْنَا إِلَى بَعْضه قَرِيبًا فَقَالَ عَنْ هَذَا اَلْقِيَاس هُوَ مَا تَقَع فِيهِ اَلْأَجْيَال اَلنَّاشِئَة ثُمَّ يَشِيع بَعْد ذَلِكَ حِين يُصْبِح اَلصِّغَار كِبَارًا.

وَهَذَا مِمَّا نَشَرَ وَلَا عُرْف شَيْئًا عَمَّا لَمْ يَنْشُر مِنْ أَبْحَاث رُبَّمَا تَكُون قَدْ أَلَمَّتْ مِنْ هَذَا اَلتَّطَوُّر بِشَيْء لَكُنَّا فِي حُدُود مَا نَشَرَ لَا نَرَى لِلْمَجْمَعِيِّينَ اِتِّجَاهًا عَامِلًا نَحْو دَرْس اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ لِلْعَرَبِيَّةِ وَالِانْتِفَاع بِمَا يَكْشِف عَنْ هَذَا اَلدَّرْس مِنْ حَقَائِق ذَات أَثَر كَبِير فِي فَهْم مُشْكِلَات اَللُّغَة وَعُلُومهَا – كَمَا أَنَّهَا ذَات أَثَر كَبِير فِي اَلْمُحَاوَلَات اَلْإِصْلَاحِيَّة لِلُغَة وَعُلُومهَا.

عَلَى أَنَا إِسْرَافًا فِي اَلْإِنْصَاف لَا نَدْعُ هَذَا اَلْمَقَام دُون أَنْ نَتَحَدَّث عَمَّا لِرَجُل مِنْهُمْ يَبْدُو صَاحِب اِتِّجَاه إِلَى فِكْر اَلتَّطَوُّر وَإِنْ كَانَ نَشَاطه خَارِج هَذَا اَلْمُجَمَّع إِلَّا أَنَا نَحْسَبهُ لِلْقَوْمِ وَإِنْ لَمْ يُحَدِّث فِيهِمْ أَثَرًا هَذَا اَلرَّجُل هُوَ اَلْأَب أنستاس اَلْكَرْمَلِيّ فَإِنَّ لِلرَّجُلِ مِنْ اَلثَّقَافَة اَللُّغَوِيَّة نَصِيبًا وَاضِحًا وَلَهُ مِنْ اَلنَّشَاط فِي خِدْمَة اَلْعَرَبِيَّة لُغَة اَلْعَرَب وَمَا كَتَبْته فِي هَذَا اَلسَّبِيل مَا يَنْبَغِي اَلْوُقُوف عِنْده وَالنَّظَر فِيهِ وَلَاسِيَّمَا كِتَابه

اَلَّذِي يَحْمِل عُنْوَانًا مِنْ صَمِيم هَذَا اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ وَذَلِكَ هُوَ اَلْكِتَاب اَلْمُسَمَّى "نُشُوء اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة وَاكْتِمَالهَا" وَهُوَ اِسْم يَشْمَل اَلْحَيَاة كُلّهَا بَلْ يُوشِك أَنْ يَمْتَدّ إِلَى اَلْحَيَاة اَلثَّانِيَة لِلْعَرَبِيَّةِ فِي اَلدَّار اَلْآخِرَة فَلَيْسَ بَعْد الاكتهال إِلَّا اَلشَّيْخُوخَة اَلْفَانِيَة.

تَنْظُر فِي هَذَا اَلْكِتَاب فَتَرَى فِيهِ أثارات قَصِيرَة مُوجِزَة عَنْ نُشُوء اَلْعَرَبِيَّة يَخْلِط فِيهَا بَيْن بَيَان اَلْفِكْرَة وَادِّعَائِهَا لِلْأَقْدَمِينَ فِي غَيْر وُضُوح ثُمَّ لَا شَيْء عَنْ تَطَوُّر لُغَوِيّ يُحَدِّث عَنْ عُصُور حَيَاة اَلْعَرَبِيَّة وَمَا تَنَقَّلَتْ بِهِ فِي كُلّ عَصْر فَتَغَيَّرَتْ أَيّ تَطَوُّرَات وَلَا فِكْرَة جَامِعَة تَرْبُط بَيْن مَا فِيهِ مِنْ فُصُول مُتَفَرِّقَة لَوْ اِلْتَمَسَتْ لَهَا مَعْنَى جَامِعًا لوجدته شَيْئًا غَيْر اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ وَتَقَلُّبَاته وَانْتِقَالَاته وأوداره وَعُصُوره وَمَا إِلَى ذَلِكَ وَهَذَا اَلْمَعْنَى اَلْجَامِع لِمَا فِي اَلْكِتَاب هُوَ مَا خُصِّصَ بِهِ اَلْمُؤَلِّف كِتَابه فِي ص١٥٥، وَهُوَ اَلْمُعَارَضَة لِلْعَرَبِيَّةِ بِسِوَاهَا مِنْ اَللُّغَات وَهُوَ مَا كَتَبَ فِيهِ اَلْفُصُول اَلْعِدَّة: عَنْ تَنَاظُر اَلْعَرَبِيَّة وَاللُّغَات تَنَاظُرهَا وَالْيُونَانِيَّة تَنَاظُرهَا وَاللَّاتِينِيَّة، وَهَذَانِ التناظران مَنْشُورَانِ فِي مَجَلَّة اَلْمُجَمَّع ثُمَّ تُنَاظِرهَا اَلْفَارِسِيَّة وَاللُّغَات اَلْمُنْدَثِرَة اَلْقَدِيمَة والسكسونية، الخ كُتِبَتْ بِطَرِيقَتِهِ وَاتِّجَاهه اَلْمَعْرُوف مِنْ رَدّ كَلِمَات هَذِهِ اَللُّغَات اَلْأُخْرَى إِلَى جُذُور لُغَوِيَّة عَرَبِيَّة مِمَّا يَطْمَئِنّ إِلَيْهِ غَيْر وَاحِد مِنْ اَلْكِتَاب وَأَخَذُوهُ عَلَى اَلرَّجُل فِي مَجَلَّة مَجْمَع اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة نَفْسه وَهُوَ مَالَا تُتْبِعهُ بِشَيْء فَنَخْرُج عَنْ اَلْأَصْل اَلْأَوَّل اَلَّذِي فَرَغْنَا لِلْحَدِيثِ عَنْهُ وَهُوَ اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ فِي

أُولَئِكَ اَلْإِخْصَائِيِّينَ وَمِنْ أَجْله عَرَجنَا عَلَى كِتَاب اَلْأُسْتَاذ أنستاس مِنْهُمْ فَإِذَا هُوَ كَمَا اِنْتَهَيْنَا – لَا يَبْلُغ فِي اَلْحَدِيث عَنْ اَلتَّطَوُّر مَبْلَغًا مِمَّا عَرَفَتْ اَلْعَرَبِيَّة مَثَله فِي دَرْس اَلْغَرْبِيِّينَ بَلْ فِي دُرُوس بَعْض اَلشَّرْقِيِّينَ أَنْفُسهمْ عَلَى مَا سَنَضَعُ بَيْن يَدَيْك مِنْ ذَلِكَ قَرِيبًا وَسَنَعُودُ إِلَى بَيَان مَا خَسِرَتْ اَلْحَيَاة اَللُّغَوِيَّة وَالْإِصْلَاح اَللُّغَوِيّ بِإِهْمَال هَؤُلَاءِ اَلْإِخْصَائِيِّينَ اَلْعِنَايَة اَلْمَوْفُورَة بِتَطَوُّر اَللُّغَة تَفْكِيرًا وَدَرْسًا بَعْد أَنْ نَنْظُر إِلَى: اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ فِي اَلْبِيئَات اَلْأُخْرَى وَنُرِيد بِهَا مَا عَدَّا بِيئَة أُولَئِكَ اَلْإِخْصَائِيِّينَ اَلْمَجْمَعِيِّينَ نُقَسِّم تِلْكَ اَلْبِيئَات إِلَى عَامَّة وَخَاصَّة.. وَنُرِيد بِالْعَامَّةِ بِيئَات اَلتَّأْلِيف وَالتَّفْكِير وَالتَّنْظِيم لِلُّغَةِ اَلْعَرَبِيَّة فِي اَلْحَيَاة وَمَرَاحِل اَلتَّعْلِيم اَلَّتِي قَبْل اَلْعَالِيَة ثُمَّ نُرِيد بِالْخَاصَّةِ اَلْبِيئَة اَلْعُلْيَا فِي دِرَاسَة اَلْعَرَبِيَّة وَبَحْثِهَا كَالْجَامِعَاتِ وَمَا إِلَيْهَا إِذْ عِنْدهَا يُرْجَى اَلطُّمُوح لِلْغَدِ اَلْأَرْقَى والتشوف لِلْمُسْتَقْبَلِ اَلْأَسْمَى.

وَسَتُلِمُّ مِنْ أَمْر هَذِهِ اَلْبِيئَات بِالْمِصْرِيَّاتِ مِنْهَا وَبِمَا نَعْرِف مِنْ غَيْر اَلْمِصْرِيَّات مِنْ اَلْأَقْطَار اَلْعَرَبِيَّة مُقَدِّرِينَ أَنَا لَا نَعْرِف مِنْ تِلْكَ اَلْبِيئَات غَيْر اَلْمِصْرِيَّة كُلّ شَيْء رَغْم قُوَّة اَلِاتِّصَال اَلْفَرْدِيّ وَالِاجْتِمَاعِيّ فَلَا يَبْتَئِس أَبْنَاء تِلْكَ اَلْبِيئَات إِذَا مَا فَاتَنَا مِنْ نَشَاطهَا شَيْء أَوْ خفى عَلَيْنَا مِنْ اَلتَّيَّارَات اَللُّغَوِيَّة شَيْء فَذَلِكَ شَيْء نُقَدِّرهُ مُنْذُ اَلْآن وَنَشْعُر بِهِ شُعُورًا وَاضِحًا.

وَفِي اَلْبِيئَات اَلْعَامَّة مِنْ حَيْثُ اَلتَّأْلِيف اَلْمَدْرَسِيّ أَوْ مَا إِلَيْهِ فِي الشئون اَللُّغَوِيَّة لَا تَجِدُّد ذَا قِيمَة مِنْ اَلْحَدِيث عَنْ اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ لِلْعَرَبِيَّةِ بَلْ نَجِد عَكْس هَذِهِ اَلنَّظْرَة الصَّحِيحَة فَجَمْهَرَة اَلْكَاتِبِينَ يَشْعُرُونَ أَنَّ لُغَة اَلْحَدِيث وَالْحَيَاة اَلَّتِي تُحَيَّا بِهَا اَلْمَلَايِين فِي اَلْأَقْطَار اَلْعَرَبِيَّة لَيْسَتْ فِي شَيْء مِنْ اَلصِّلَة بِالْفُصْحَى فَضْلًا عَنْ أَنْ تَكُون تَطَوُّرًا لَهَا وَإِنَّمَا هَذِهِ اَلْعَامِّيَّة رِجْس وَوَبَاء يُتَّقَى وَهَكَذَا تَسْمَع اَلْكَثِير مِنْ قَبْل قَوْل اَلْقَائِل عَنْ اَلْعَامِّيَّة.

وَكَانَ منشئوها مِنْ اِضْطِرَاب اَلْأَلْسِنَة وخبالها وانتقاض عَادَة اَلْفَصَاحَة وَكَانَ رِجَال اَلْعَرَبِيَّة فِي وِزَارَات اَلْمَعَارِف اَلْعَرَبِيَّة إِلَى عَهْد غَيْر بَعِيد يَعْتَبِرُونَ لُغَة اَلْحَيَاة ذَلِكَ اَلِاعْتِبَار اَلْوَبَائِيّ وَيُطَارِدُونَهَا مُطَارَدَة قَاسِيَة فِي مُحَادَثَة لِتَلَامِيذ حَتَّى اَلْأَطْفَال مِنْهُمْ وَفِي حَدِيث أُولَئِكَ وَكِتَابَاتهمْ وَلَا يَدْعُونَ فِي هَذِهِ اَلْمُطَارَدَة شَيْئًا مِنْ اَلْهَوَادَة أَوْ التسمح يُعِين عَلَى عَقْد هُدْنَة بَيْن اَللُّغَتَيْنِ أَوْ يهيء لِلْفُصْحَى نَفْسهَا فُرْصَة اَلِاسْتِفَادَة بِشَيْء مِنْ تَوْسِيط تِلْكَ اَللُّغَة اَلْحَيَّة اَلْعَامَّة.

وَكَانَ اَلرَّأْي اَلسَّائِد إِلَى مَدَى قَرِيب أَنَّ اَلْقَضَاء عَلَى هَذِهِ اَللُّغَة اَلْحَيَّة وَاجِب مُقَدَّس وَفَرْض عَيْن وَكَانَ ذَلِكَ اَلْقَضَاء يَبْدُو مُمْكِنًا لِأَصْحَاب اَلْعَرَبِيَّة فِي كُلّ مَجَال بَلْ مَازَالَ هَذَا هُوَ مَنْطِق اَلْإِخْصَائِيِّينَ اَلْمَجْمَعِيِّينَ إِلَى عَهْد قَرِيب أَيْضًا وَلَعَلَّهُ قَدْ تَغَيَّرَ أَخِيرًا عِنْد بَعْضهمْ لَا عِنْدهمْ جَمِيعًا.

وَكَذَلِكَ كَانَ اَلتَّأْلِيف وَالتَّفْكِيك وَالتَّنْظِيم لِتَعْلِيم اَلْعَرَبِيَّة يُعَادِي فِكْرَة اَلتَّطَوُّر وَيُنْكِر كُلّ مَظْهَر لَهَا فَضْلًا عَنْ أَنْ يَشْعُر بِالتَّطَوُّرِ أَوْ يَخْدِمهُ بِالدَّرْسِ أَوْ مَا يُشْبِههُ حَتَّى هَبَّتْ رِيَاح فَنِّيَّة وَاجْتِمَاعِيَّة تَشَجَّعَتْ عَلَى مُخَالَفَة هَذِهِ اَلْخُطَّة فَتُغَيِّر اَلِاتِّجَاه نَوْعًا مَا وَإِنْ كَانَ لَا يَزَال فِي اَلْمَيْدَان اَلْيَوْم مَنْ لَا يُدَنْدِن إِلَّا بِالْفِكْرَةِ اَلْقَدِيمَة فِي إِبَادَة لُغَة اَلْحَيَاة وَإِنْكَار أَنْ يَكُون لَهَا فَنّ قَوْلِي... بَلْ إِنْكَار أَنْ يَكُون لَهَا – فِي وَاقِع اَلْأَمْر – صِفَة اَللُّغَة أَوْ شَيْئًا مِنْ صِلَة بِمَا يُسَمُّونَهُ اَلْفُصْحَى وَلَا نُطِيل بِبَيَان شَيْء مِنْ هذ اَلْعَوَامِل لِأَنَّتْ لَسْنَا فِي مَجَال اَلْحَيَاة اَللُّغَوِيَّة بِقَدْر مَا نَحْنُ مَعْنِيُّونَ بِتَفَهُّم مُشْكِلَاتهمْ وَاللِّفْت إِلَى مَا يُبَصِّر بِأَسْبَابِهَا وَيَهْدِي إِلَى اَلتَّوْفِيق فِي عِلَاجِهَا – وَقَدْ آثَرْنَا فِي ذَلِكَ اَلْعِنَايَة بِالتَّطَوُّرِ قَبْل غَيْره مِنْ تَصْحِيحَات اَلْمَنْهَج. وَعَلَى رَغْم مَا فِي اَلْبِيئَات اَلْعَامَّة مِنْ ازورار عَنْ اَلتَّطَوُّر كَمَا رَأَيْنَا فَقَدْ ظَهَرَ تَأْلِيف عَنْ فِكْرَة نَاضِجَة فِي اَلتَّطَوُّر نَفْسهَا لُبْنَان وَتَبَنَّتْهَا مِصْر وَفِيهَا طُبِعَتْ وَلَمْ تَتَأَثَّر بِهَا هَذِهِ اَلْبِيئَات اَلْعَامَّة وَلَمْ يُبَدِّلهَا فِيهَا تَوْجِيه وَسَنَعْرِضُ لَهَا قَرِيبًا وَنَقِف عِنْدهَا طَوِيلًا بَعْد اَلْحَدِيث عَنْ: اَلتَّطَوُّر فِي اَلْبِيئَات اَلْخَاصَّة: وَهِيَ بِيئَات اَلدَّرْس اَلْعَالِي فَلَا تَحْسَب أَنَّ اَلْمَعَاهِد غَيْر اَلْجَامِعَة كَدَار اَلْعُلُوم أَوْ اَلْأَزْهَر مَثَلًا مَنْ اِتَّجَهَ إِلَى شَيْء مِنْ أَمْر هَذَا اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ– لِأَنَّ هَؤُلَاءِ اَلْقَوْم فِي اَلْمَعْهَدَيْنِ يُضْفُونَ عَلَى اَللُّغَة مِنْ اَلِاعْتِبَارَات اَلْقُدْسِيَّة اَلدِّينِيَّة وَالتَّفْضِيل اَلْمُسْرِف يَتَّجِهُونَ وَأَمَّا اَلْجَامِعَات فَأَنَّ جَامِعَة اَلْقَاهِرَة وَهِيَ أَقْدَمهَا – قَدْ سَبَقَتْ

كُلِّيَّة اَلْآدَاب فِيهَا بِنَشَاط قِسْم اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة إِلَى نَشْر هَذِهِ اَلْآفَاق اَلْعِلْمِيَّة فِي دَرْس وَأَسَاتِذَة أَصْلِيِّينَ حِينًا وَأَسَاتِذَة زَائِرِينَ حِينًا كُلَّمَا سَنَحَتْ لَهَا بِذَلِكَ فُرْصَة.

وَكَانَ مِنْ أَجِلَّاء أُولَئِكَ اَلْأَسَاتِذَة اَلزَّائِرِينَ اَلْمَغْفُور لَهُ اَلْمُسْتَشْرِق اَلْكَبِير ببير خستراسر أُسْتَاذ اَللُّغَات اَلسَّامِيَة بِجَامِعَة ميونيخ اَلَّذِي أَلْقَى فِي قِسْم اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة سَنَة **٩٢٩١** سِلْسِلَة مُحَاضَرَات عَنْ اَلتَّطَوُّر اَلنَّحْوِيّ لِلُّغَةِ اَلْعَرَبِيَّة تَعْتَمِد عَلَى تِلْكَ اَلْخِبْرَة اَلصَّادِقَة بِاللُّغَاتِ اَلسَّامِيَة وَمُقَابَلَاتِهَا وَعَرْض اَلْمُحَاضِر فِيهَا لِلْحَدِيثِ عَنْ اَلْحُرُوف وَالْأَبْنِيَة وَالتَّرَاكِيب كَمَا تَحَدَّثَ أَخِيرًا عَنْ اَلْمُفْرَدَات اَللُّغَوِيَّة فَأَجْمَل مَنْهَج دِرَاسَتها وَأَلَمّ بِطَرَف اِحْتَلَّهُ اَلْوَقْت وَلَمْ يَتَّسِع لِلْوَفَاءِ بِهِ وَكَانَ أَسَاس مَنْهَجه فِي هَذَا اَلتَّنَازُل هُوَ اَلْحَرَكَة اَلتَّطَوُّرِيَّة لِكُلّ مَا عَرَضَ لَهُ.

فَهُوَ يُصَوِّر هَذَا اَلتَّطَوُّر بِقَوْلِهِ: "إِنَّ اَلْغَرَض مِنْ مُحَاضَرَاتِي اَلَّتِي سَأُلْقِيهَا عَلَيْكُمْ هُوَ دَرْس اَللِّسَان اَلْعَرَبِيّ مِنْ اَلْوُجْهَة اَلتَّارِيخِيَّة أَيّ مِنْ جِهَة نَشْأَته وَأُصُول حُرُوفه وَأَبْنِيَته وَأَشْكَال اَلْجُمْلَة فِيهِ وَالتَّغَيُّرَات اَلَّتِي وَقَعَتْ مَعَ تَوَالِي اَلْأَزْمَان وَاسْتِنْتَاج اَلْعَوَامِل اَلَّتِي سَبَّبَتْ خَصَائِص اَللِّسَان اَلْعَرَبِيّ اَلَّتِي تُمَيِّز بِهَا فِي أَزْهَى عُصُوره يَعْنِي فِي خِلَال اَلْقُرُون اَلْأُولَى بَعْد اَلْهِجْرَة ."

وَعَلَى هَذَا اَلْأَسَاس يُحَدِّث عَنْ تَطَوُّر اَلْحُرُوف وَاخْتِلَاف نُطْق بَعْض اَلْحُرُوف اَلْحَالِيّ عَنْ نُطْقهَا فِي اَلزَّمَن اَلْقَدِيم وَهِيَ ق، ج، ط، ض،

ظ، وَيَشْرَح هَذَا اَلِاخْتِلَاف بِمَا لَا يَتَّسِع لَهُ مَجَالنَا هُنَا..

ثُمَّ هُوَ بَيْن عِلَل تَغْيِيرَات اَلصَّوْت فَيَذْكُر مِنْ بَيْنهَا مَثَلًا ذَوْق اَلْعَصْر وَمِثَال ذَلِكَ فِي اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة أَنَّ بَعْض أَهْل اَلْقَاهِرَة كَانَ بِالْإِغْوَاءِ نَطَقَ اَلْقَاف واستغلظه فَأُبَدِّلهُ بِالْهَمْزَةِ وَهَذِهِ اَلْعَادَة سَادَتْ بَيْن أَهْل اَلْقَاهِرَة اَلْخَاصَّة ثُمَّ سِرْت مِنْهَا إِلَى بَعْض اَلْمُدُن اَلْكَبِيرَة كَدِمَشْق ثُمَّ إِلَى أَصْغَر مِنْهَا كَالْقِدِّيسِ اَلشَّرِيف فَهَذِهِ أَيْضًا عِلَّة مُهِمَّة لِتَغْيِير اَللُّغَات لَكُنَّا كَثِيرًا مَا لَا يُمْكِننَا إِثْبَاتهَا، وَخَاصَّة فِي اَلْأَزْمَان اَلسَّالِفَة اَلَّتِي لَا نَعْرِف كَيْفَ كَانَ ذَوْق أَهْلهَا.

وَهُوَ يُؤَرِّخ اَلصِّيَغ وَالْعَوَامِل، وَطَرَائِق نَظْم اَلْجُمْلَة، وَيُبَيِّن تَطَوُّرهَا وَيَسْتَدِلّ لِذَلِكَ – وَعَنْ طَرِيق اَلْبَيَان اَلْمُعْتَمِد عَلَى اَلْمُقَارَنَات اَلْوَاسِعَة بَيْن اَلْعَرَبِيَّة وَإِخْوَانهَا اَلسَّامِيَّات يُبَيِّن خَصَائِص اَلْعَرَبِيَّة وَمَزَايَاهَا اَلَّتِي تَنْفَرِد بِهَا عَنْ أَخَوَاتهَا اَلْمَعْرُوفَات لَهُ فَيَكُون بَيَانًا ذَا دَلِيل، ثُمَّ يُبَيِّن لِذَلِكَ عَنْ هَذَا اَلطَّرِيق أَخْطَاء اَلنَّحْوِيِّينَ فِي تَفْسِيرَاتهمْ اَلنَّحْوِيَّة وَالصَّرْفِيَّة فَيَقُول مَثَلًا:

وَإِنَّ اَلزَّمَخْشَرِيّ ذَكَرَ أَنَّ اَلْهَمْزَة فِي مَاء وأمواء أَبْدَلَتْ مِنْ اَلْهَاء مُسْتَنِدًا فِي حُكْمه عَلَى وُجُود اَلْهَاء فِي مِيَاه جَمْع مَاء وَهَذَا خِلَاف اَلْحَقِيقَة إِذَا أَنَا نَسْتَنْتِج مِنْ اِسْتِعْرَاض اَللُّغَات اَلسَّامِيَة اَلْأُخْرَى أَنَّ اَلصُّورَة اَلْأَصْلِيَّة لِكَلِمَة مَاء كَانَتْ ماي أَوْ قَرِيبَة مِنْهَا وَإِنَّ اَلْوُقُوع فِي هَذَا اَلْخَطَأ وَكَذَلِكَ يَرَى أَنَّ أَكْثَر ضَلَالَات اَلنَّحْوِيِّينَ وَاللُّغَوِيِّينَ اَلْقُدَمَاء نَشَأَ مِنْ جَهْلهمْ بِاللُّغَاتِ اَلسَّامِيَة عَلَى أَنْ بَعْضهَا كَانَ شَائِع

اَلِاسْتِعْمَال فِي زَمَانِهِمْ هَذِهِ نَاحِيَة مَنْهَجِيَّة أَشَرْت إِلَيْهَا اِسْتِطْرَادًا لِأُبَيِّن اَلْأَسَاس اَلصَّحِيح اَلَّذِي يُقِيم مَثَل لِهَذَا اَلْأُسْتَاذ دِرَاسَته عَلَيْهِ وَلَيْتَ اَلْمَقَام يَتَّسِع لِأَحْدَثِكُمْ عَنْ بَعْض دِرَاسَاته اَلتَّطَوُّرِيَّة اَلْعَرَبِيَّة وَبِحِسِّنَا تَصْوِير اَلْمَنْهَج اَلصَّحِيح مِنْ نَاحِيَته اَلتَّطَوُّرِيَّة.

وَلَمْ تَتِمّ تِلْكَ اَلدِّرَاسَة اَللُّغَوِيَّة اَلصَّحِيحَة فِي اِتِّجَاهِهَا اَلتَّطَوُّرِيّ بِكُلِّيَّة اَلْآدَاب إِذَا لَمْ يَتَهَيَّأْ لَهَا مِنْ اَلْمُسْتَشْرِقِينَ مَنْ يُتَابِعهَا مِنْ بَعْده وَلَمْ يَتَّجِه إِلَيْهَا أَصْحَاب اَلدَّرْس اَللُّغَوِيّ اَلْخَاصّ.

وَتَجَمَّعَتْ دَار اَلْعُلُوم فَصَارَتْ كُلِّيَّة جَامِعِيَّة وَدَرَسَتْ مِنْ عِلْم اَللُّغَة مَا دَرَسْت غَيْرهَا وَقَرَّرَ كُلّ أُولَئِكَ مِنْ أُصُول اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ مَا قَرَّرُوا لَكِنَّ دَرْس تَطَوُّر اَلْعَرَبِيَّة دَرْسًا تَطْبِيقِيًّا عَلَى هذ اَلْأُصُول اَلْعَامَّة لَمْ يَتِمّ مِنْهُ شَيْء يُؤَثِّر بَلْ نَسْمَع بَعْض المدارسين اَلَّذِينَ اِقْتَبَسُوا مِنْ مَنَاهِج اَلْغَرْب وَدِرَاسَته قَدْرًا صَالِحًا يَشْكُو صُعُوبَة دَرْس هَذَا اَلتَّطَوُّر اَلْقَدِيم لِلْعَرَبِيَّةِ وَيَقُول: "وَإِذَا كُنَّا لَا نَسْتَطِيع اَلْوُقُوف عَلَى طَبِيعَة تَطَوُّر هَذِهِ اَلضَّوَابِط فِي اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة وَلَا عَلَى طَرِيقَة ذَلِكَ اَلتَّطَوُّر لِجَهْلِنَا بِتَارِيخ اَللُّغَة نَفْسهَا وَلِقِلَّة مَا اِكْتَشَفَ حَتَّى اَلْآن مِنْ آثَار قَدِيمَة تُقَدَّم لَنَا صُوَرًا عَنْ حَالَة اَللُّغَة يَوْم أَنْ كَانَتْ مُضْطَرِبَة فِي أَلْفَاظهَا وَفِي مَعَانِيهَا وَفِي أَسَالِيبهَا وَفِي ضَوَابِطهَا نَقُول: إِذَا كُنَّا نَجْهَل كُلّ ذَلِكَ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْنَا مِنْ اَلْأَدِلَّة اَلْمَادِّيَّة مَا يُسَاعِدنَا عَلَى مَعْرِفَته فَأَنَّنَا نَلْجَأ مَرَّة أُخْرَى إِلَى اَللُّغَة اَللَّاتِينِيَّة..... إِلَخْ ."

وَالسَّيِّد اَلدُّكْتُور عَوْن حِين لَا يَجِد اَلسَّبِيل اَلْمُيَسِّرَة لِهَذَا اَلتَّطَوُّر اَلْعَرَبِيّ فِي اَلْقَدِيم لَايَزَالُ يُقَدِّر أَهَمِّيَّة اَلتَّطَوُّر تَقْدِير مِنْ تَمَثُّل المنه اَلصَّحِيح تَمَثُّلًا صادِقًا فَهُوَ يَأْخُذ عَلَى اَلنُّحَاة اَلْقُدَامَى عَلَى تَقْدِيرهِمْ لِلتَّطَوُّرِ فِي غَيْر مَوْضِع مِنْ كِتَابه وَهُوَ يُعَانِي شَرْح شَيْء مِنْ تَطَوُّر اَللُّغَة فِي اَلْعَهْد اَلْمَعْرُوف مِنْ تَارِيخهَا إِلَى اَلْيَوْم.

وَمِنْ هُنَا يَبْدُو أَنَّ اَلْعِنَايَة بِالتَّطَوُّرِ فِي اَلْبِيئَات اَلْخَاصَّة قَدْ وَجَدَتْ لِمَا صَحَّحَ مَنْهَج اَلدِّرَاسَة اَللُّغَوِيَّة لَكِنَّ هَذِهِ اَلْعِنَايَة لَمْ تُكَثَّف لِإِيجَاد دِرَاسَة ذَات قِيمَة لِتَطَوُّر اَلْعَرَبِيَّة وَالْتِمَاس دَلَائِل ذَلِكَ مِنْ اَلْبَقَايَا اَلَّتِي خَلْفهَا اَلتَّطَوُّر فِي كِيَان اَلْعَرَبِيَّة نَفْسهَا أَوْ اَلْجُرْأَة عَلَى فَرْض خُطُوَات ذَلِكَ اَلتَّطَوُّر فَرْضًا وَتَكْمِيل فَهْمهَا بِظَوَاهِر وَشَوَاهِد مِنْ حَيَاة أَخَوَاتهَا اَلسَّامِيَّات اَلْأُخْرَى أَوْ مِنْ مُتَفَرِّقَات اَلْبَقَايَا اَللُّغَوِيَّة اَلَّتِي اِحْتَفَظَ بِهَا اَلْجَمْع اَللُّغَوِيّ وَتَنَاثَرَتْ فِي اَلْمُجَمَّعَات أَوْ اَلْأُمَّهَات اَللُّغَوِيَّة شَوَارِد بَدَّدَا ثُمَّ اَلِاسْتِعَانَة فِي ذَلِكَ بِمُخْتَلِف اَلْمُحَاوَلَات اَلَّتِي قَامَ بِهَا اَلْمُسْتَشْرِقُونَ وَرَأَيْنَا مِنْهَا شَاهِدًا قَرِيبًا فِي دِرَاسَة يرجسترا لِلتَّطَوُّرِ اَلنَّحْوِيّ فِي مِصْر وَتَعْرِيفه بِمَرَاجِع مِنْ عَمَل قَوْمه فِي دِرَاسَة اَلسَّامِيَّات دَرْسًا مَنْهَجِيًّا عَمِيقًا.

عَلَى أَنَا رَغْم ذَلِكَ نَجْد مُحَاوَلَة جَرِيئَة تَامَّة لِشَرْح تَطَوُّر اَلْعَرَبِيَّة مُنْذُ عَهْدهَا اَلْفِطْرِيّ إِلَى يَوْمهَا اَلْحَاضِر فِي تَوَسُّع وَجُرْأَة قَسَّمَتْ ذَلِكَ اَلتَّطَوُّر أَدْوَارًا وَقَسَّمَتْ اَلْأَدْوَار حَلَقَات كَمَا وَصَفَتْ تَطَوُّر اَلْعَرَبِيَّة

اَلْمَادِّيّ وَتَطَوُّرِهَا اَلشَّكْلِيّ وَبَيَّنَتْ مُسَايَرَة هَذَا لِذَلِكَ وَتَقَابُل أَدْوَارِهَا وَحَلَقَاتِهِمَا – وَأَهَمّ مِنْ ذَلِكَ كُلّه أَنَّ اَلدِّرَاسَة قَدْ حَقَّقَتْ اَلْغَرَض اَلْعَمَلِيّ اَلْمَطْلُوب مِنْ تَصْحِيح اَلْمَنْهَج اَللُّغَوِيّ وَتَبْيِين وُجْهَة سَيْر اَلْعَرَبِيَّة فِي اَلْحَيَاة وَعَنْ طَرِيق مُعَرّفَة اِتِّجَاه تَطَوُّر اَلْعَرَبِيَّة أَمْكَنَهَا أَنْ تُسَاعِد سَيْر اَلتَّطَوُّر وَتُعِين اَلْعَرَبِيَّة عَلَى مُتَابَعَة نَمَائِهَا مُتَابَعَة لَا تَعُدْ إِلَّا اَلِامْتِدَاد اَلطَّبِيعِيّ لِمَا أَرَادَ لَهَا أَهْلهَا وَالتَّحْقِيق اَلْعِلْمِيّ لِمَا تُمَثِّلُوهُ وَكَانُوا لَوْ ظَلَّتْ لُغَتهمْ تَأْخُذ طَرِيقهَا فِي بِيئَتهَا وَلَا تُزْعِج عَنْهَا وَتَخْرُج مِنْهَا.

وَأَحْسَب أَنَّ عَرْض هَذَا اَلتَّطَوُّر هُنَا – وَلَوْ فِي إِجْمَال تَامّ – يُعْطِينَا اَلْمَثَل اَلْعَمَلِيّ لِمَا نَرْجُوهُ مِنْ أَثَر جَلِيل لِإِصْلَاح اَلْمَنْهَج اَللُّغَوِيّ وَيَفْتَح لَنَا اَلطَّرِيق اَلسَّوِيّ إِلَى مُعَالَجَة مُشْكِلَات حَيَاتنَا اَللُّغَوِيَّة عِلَاجًا أَهْدَى بَصِيرَة وَأَصَحّ تَشْخِيصًا وَأَدَقّ تَنَاوُلًا وَلَئِنْ لَمْ يَتَّسِع اَلْوَقْت لِلْعَرْضِ اَلْوَافِي لهذ اَلْمُحَاوَلَة اَلتَّطَوُّرِيَّة فَإِنَّ اَلْمُسْتَكْمِل يَسْتَطِيع اَلرُّجُوع إِلَيْهَا فِي مظنتها دُون صُعُوبَة ثُمَّ إِذَا لَمْ نُعَقِّب هُنَا عَلَى هذ اَلْمُحَاوَلَة بِنَقْد أَوْ تَقْدِير لِضَيِّق اَلْوَقْت أَيْضًا فَإِنَّا نرتقب لِذَلِكَ فُرْصَة أُخْرَى مُوَاتِيَة غَيْر آسِفِينَ عَلَى عَدَم وُجُودهَا اَلْآن لِأَنَّنَا لَا نُرِيد مِنْ عَرْض هَذِهِ اَلْمُحَاوَلَة إِلَّا إِكْمَال اَلْبُرْهَان عَلَى عَدَم صِحَّة اَلْمُقَرَّرَات اَلَّتِي أَسْلَفْنَا نَقْدهَا فِي تَكْوِين اَلْعَرَبِيَّة وَفِي اِسْتِكْمَالهَا وَفِي كَمَالهَا عَلَى مَا سَمِعْتُمْ..

هَذَا إِلَى مَا فِي هَذَا اَلْعَرْض اَلْعَام لِشَرْح اَلتَّطَوُّر مِنْ تَقْدِيم اَلْعِلَاج

وَالْحَلّ لِأَزْمَة اَلْعَرَبِيَّة مِنْ حَيْثُ اَلْوُقُوف عَلَى مُسَايَرَة اَلْحَيَاة وَالْوَفَاء بِحَاجَتِهَا إِذَا سَيَنْتَهِي بَيَان اَلتَّطَوُّر إِلَى نَتِيجَة طَيِّبَة فِي نَمَاء اَلْعَرَبِيَّة فِعْلًا وَزِيَادَتَهَا اِشْتِقَاقًا وَوَضْعًا زِيَادَة هِيَ خَيْر صُنُوف اَلزِّيَادَات وَأَكْفَأَهَا لِلْحَاجَةِ.

وَهَذِهِ اَلْمُحَاوَلَة لِدَرْس اَلتَّطَوُّر هِيَ اَلَّتِي سَبَقَتْ إِشَارَتنَا إِلَى ظُهُورهَا فِي اَلْبِيئَات اَلْعَامَّة رَغْم عُزُوف هذ اَلْبِيئَات عَنْ فِكْرَة اَلتَّطَوُّر بَلْ مُحَارَبَتهَا لَهَا.

وَالْمُحَاوَلَة اَلَّتِي كَرَّرْنَا اَلْحَدِيث عَنْهَا مُحَاوَلَة لِبِنَايَة اَلدَّم مِصْرِيَّة اَلْمَظْهَر أَخْرَجَهَا اَلسَّيِّد عَبْد اَللَّه اَلْعَلَايْلِيّ فِي غَيْر مُنَاسِبَة وَآخِر ذَلِكَ كِتَابه مُقَدِّمَة لِدَرْس لُغَة اَلْعَرَب اَلَّذِي طَبَعَهُ اَلسَّيِّد إِلْيَاس أَنْطُون إِلْيَاس بِالْمَطْبَعَةِ اَلْعَصْرِيَّة فِي مِصْر سَنَة ١٣٩٨ هـ، وَالسَّيِّد اَلْعَلَايْلِيّ صَاحِب هَذِهِ اَلْمُحَاوَلَة اَلتَّطَوُّرِيَّة تَطْبِيق عَمَلِيّ وَاسِع لَهَا مُعْجَمه اَلَّذِي سَمَّاهُ اَلْمُعْجَم وَجَرَّبَ فِيهِ هَذَا اَلنَّمَاء اَلْمَنْشُود لِلْعَرَبِيَّةِ مِنْ مَعْرِفَة اِتِّجَاه تَطَوُّرهَا وَقَدْ أَخْرَجَ مِنْ هَذَا اَلْمُعْجَم أَرْبَعَة أَجْزَاء.

وَلَئِنْ لَمْ يَكُنْ لِهَذِهِ اَلْمُحَاوَلَة صَدَاهَا المظنون فِي اَلْبِيئَات اَلْخَاصَّة بِالدِّرَاسَةِ اَلْعَرَبِيَّة اَلْعُلْيَا وَلَا عِنْد اَلْإِخْصَائِيِّينَ اَلْمُنْفَرِدِينَ بِالسُّلْطَةِ اَلتَّشْرِيعِيَّة اَلْعُلْيَا لِلُّغَةِ اَلْعَرَبِيَّة نَعْتَقِد أَنَّ عَرْضهَا ضَرُورِيّ مَهْمَا يَكُنْ اَلرَّأْي فِيهَا وَالنَّقْد لَهَا لِأَنَّهَا عَلَى أَيِّ حَال وَرَغْم كُلّ شَيْء فَتْح لِلْبَابِ وَتَثْبِيت لِلْمَنْهَجِ وَتَيْسِير لِنَمَاء اَلْعَرَبِيَّة ذَلِكَ اَلنَّمَاء اَلَّذِي نَرْجُوهُ لَهَا

وَنَوَدّهُ بِأَيّ ثَمَن وَأَيّ جُهْد فِإِلَيْكُمْ هَذِهِ اَلْمُحَاوَلَة اَلْخَيّرَة عَلَى أَنَّهَا:

رَأْي فِي تَطَوُّر اَللُّغَة وَلَعَلَّنَا نَتَعَجَّل فَائِدَتَهَا بِتَرْكِيز اَلْفِكْرَة فِيهَا تَرْكِيزًا يُبْرِز صُورَتَهَا وَيُمَثِّل أَهْدَافهَا جَلِيَّة فِي ئجمال نَتَوَلَّاهَا بَعْده بِشَيْء مِنْ تَفْصِيل يَزِيد مَلَامِحهَا وُضُوحًا وَيَكْشِف عَنْ قَسَمَاتَهَا كَشْفًا يُؤَكِّد اَلتَّعْرِيف بِهَا وَلِمَنْ شَاءَ اَلتَّحْقِيق اَلْأَطْوَل أَنْ يَرْجِع إِلَى مَا كَتَبَ صَاحِبهَا فِي اَلْمُقَدّمَة وَهَذَا هُوَ: اجمال اَلرَّأْي: –

إِنَّ اَلتَّقَدُّم سَنَة طَبِيعِيَّة خَضَعَتْ لَهَا اَلْعَرَبِيَّة فِي كُلّ شَيْء أَصْوَاتَهَا وَحُرُوفهَا وَكَلِّمَهَا، وَجَمَّلَهَا وَأُسْلُوبهَا، وَبَيَانهَا.... إِلَخْ، وَقَدْ تَوَلَّى اَلْبَيَان تَطَوُّرهَا اَللُّغَوِيّ وَأَشَارَ إِلَى تَطَوُّرهَا اَلْبَيَانِيّ.

وَجَعَلَ اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ تَطَوُّرًا مَادِّيًّا يَخُصّ بِنَاء وَمَوَادّهَا وَتَطَوُّرًا شَكْلِيًّا يَخُصّ صُوَر كَلِّمَهَا وَسَمَّاهُ تَطَوُّر اَللَّهْجَة.

وَجُمْلَة اَلتَطَوُّر اَلْمَادِّيّ:

أَنَّ اَلْعَرَبِيَّة بَدَأَتْ أُحَادِيَّة وَتَطَوَّرَتْ إِلَى اَلثُّنَائِيَّة وَالثُّلَاثِيَّة فَالرُّبَاعِيَّة وَالْخُمَاسِيَّة وَالسُّدَاسِيَّة وَمَضَّتْ اَلْعَرَبِيَّة فِي ذَلِكَ عَلَى مَذْهَب خَاصّ وَمَعْقُول عَرَبِيّ لَوْ أَدْرَكْنَاهُ لَاسْتَطَعْنَا أَنْ نَجْعَل اَلْعَرَبِيَّة تُتَابِع نَمَاءَهَا وَتُحَقِّق مَا اِتَّجَهَ إِلَيْهِ اِرْتِقَاؤُهَا وَلَكِنَّهُ تَنَاوَلَ اَللُّغَوِيِّينَ لِلْعَرَبِيَّةِ تَنَاوُلًا طَابِعَة اَلْجَمْع فَقَطْ وَفِقْدَان اَلنَّظْرَة اَلْعَامَّة إِلَى اَللُّغَة وَالْوُقُوف فِي وَجْه كُلّ اِجْتِهَاد..

وَهُوَ يَشْرَح اَلتَّكَوُّن اَلِارْتِقَائِيّ لِلْعَرَبِيَّةِ وَيُبَيِّن أَدْوَاره بَيَانًا تَطَوُّرِيًّا وَيَصِف كُلّ دَوْر مِنْ اَلْأَدْوَار وَكُلّ حَلْقَة مِنْ حَلَقَات اَلْعَرَبِيَّة مِنْ بَقَايَا شَوَاهِد عَلَيْهِ أَوْ مُفْتَرَضًا مِنْ ذَلِكَ مَا يَفْتَرِض مُتَشَبِّهًا بِأَصْحَاب اَلْعِلْم النشوئيين وَآخِذًا سِمَتهمْ فِي إِثْبَات مَذْهَبهمْ وَبَيَانه.

وَأَمَّا اَلتطَوُّر اَلشَّكْلِيّ: -

فَجَمَّلَتْهُ: أَنَّ اَلْعَرَبِيَّة كَانَتْ أَوَّلًا لُغَة صَوْتِيَّة تَقُوم عَلَى اَلْحُرُوف فِي بِنْيَة كَلِمِهَا وَفِي أَوَاخِرِهَا "وَقَدْ مَرَّتْ فِي أَدْوَار مُعَرِّفَة فِي اَلصَّوْتِيَّة تَشْهَد لَهَا شَوَاهِد ثُمَّ اِنْتَقَلَتْ إِلَى دَوْر آخَر فَصَارَتْ لُغَة لَفْظِيَّة أَيْ تَقُوم عَلَى اَلْحَرَكَات فِيمَا تَقُوم فِيهِ عَلَى اَلْحُرُوف مِنْ قَبْل.. وَلَمْ تَتَحَرَّر مِنْ اَلصَّوْتِيَّة تَحَرُّرًا مُطْلَقًا بَلْ بَقِيَتْ صَوْتِيَّة فِي نَوَاحٍ غَيْر قَلِيلَة عَلَى أَنَّهَا وَإِنْ لَمْ تُصْبِح لَفْظِيَّة بِكُلّ اَلْمَعْنَى فَقَدْ تَرَكَتْ قَوَانِين أَعَدَّتْهَا لِلتَّحَرُّرِ عَلَى اَلْإِطْلَاق "وَيَبِين هَذَيْنِ اَلدَّوْرَيْنِ مِثْل بَيَانه لِأَدْوَار اَلتَّطَوُّر اَلْمَادِّيّ وَيَرْبُط بَيْن أَزْمَان التطورين وَيَجْعَل هَذَا اَلتَّطَوُّر اَلشَّكْلِيّ مِمَّا تَمَّ فِي حَلَقَات اَلدَّوْر اَلثَّالِث مِنْ أَدْوَار اَلتَّطَوُّر اَلْمَادِّيّ وَيَلْتَمِس اَلشَّوَاهِد وَالْقُرُوض عَلَى نَحْو مَا أَشَرْنَا مُحَاوَلَة أَنْ يَنْتَهِي إِلَى رَبْطه بِالظَّوَاهِرِ اَللُّغَوِيَّة فِي سُلَّم اِرْتِقَائِيّ وَتَسَلْسُل تَصَاعُدِيّ.

وَهُوَ لَا يَقِف عِنْد بَيَان هَذَا اَلتَّطَوُّر لِأَنَّهُ اَلسَّنَة اَلطَّبِيعِيَّة اَلَّتِي خَضَعَتْ لَهَا اَلْعَرَبِيَّة وَقَضَتْ بِهَا طَبَائِع اَلْأَشْيَاء فَهِيَ حَقِيقَة تَعَرُّف بَلْ يَمْضِي إِلَى مَا وَرَاء ذَلِكَ مِنْ اِهْتِدَاء بِهَذَا اَلتَّطَوُّر فِي دَفْع اَلْعَرَبِيَّة اَلْيَوْم إِلَى

اَلسَّيْر اِسْتِئْنَافًا لِتَطَوُّرِهَا اَلَّذِي أُوقِفهُ خُرُوجهَا مِنْ اَلْجَزِيرَة عِنْد اَلْفَتْح اَلْإِسْلَامِيّ كَمَا أَشَرْنَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ قَوْله قَرِيبًا.

مِنْ ظَوَاهِر اَلْفَوْضَى أَوْ اَلِاضْطِرَاب فِي مَادَّتهَا وَصُورَتهَا وَبِهَذَا اَلْهُدَى اَلتَّصَوُّرِيّ يَرَى أَنَّنَا نَسْتَطِيع رَدّ اَلْحَيَاة إِلَى اَلْعَرَبِيَّة وَدَفْعهَا إِلَى اِسْتِكْمَال مَا عَوَّقَتْهَا اَلظُّرُوف عَنْ اِسْتِكْمَاله فَتُقَرِّر اَلْيَوْم اَلنَّتَائج اَلَّتِي دَلَّنَا اَلتَّطَوُّر عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ نَتِيجَة إِلَى تَقْرِيرهَا وَتُبَسِّط رُقْعَة اَلْوَضْع أَمَام اَلْوَاضِع اَلْجَدِيد اَلْيَوْم وَبِهَذَا تَسْتَبْدِل اَلْعَرَبِيَّة بِضُمُورِهَا نَمَاء وَزِيَادَة عَلَى أَنَّهَا فِي تَقْدِير اَلْأُسْتَاذ اَلْعَلَايْلِيّ سَتَنْمُو نُمُوًّا دَاخِلِيًّا ذَاتِيًّا بِمَوَادّ مِنْ كِيَانهَا لَا بِمُعْرِبَات مِنْ غَيْرهَا وَلَا منحوتات مُصْطَنَعَة مَنْ كَلَّمَهَا.. إِلَخْ.

وَإِنَّك لِتُقَدِّر مِنْ هَذَا اَلْإِجْمَال لِفِكْرَة اَلتَّطَوُّر عِنْد "اَلسَّيِّد اَلْعَلَايْلِيّ" سِعَة اَلْفِكْرَة لِمَا يُجْرَى عَلَيْهِ اَلْخِلَاف فِي نَمَاء اَلْعَرَبِيَّة عِنْد أَصْحَاب اَلدِّرَاسَة اَللُّغَوِيَّة أَوْ اَلسُّلْطَة اَللُّغَوِيَّة اَلْمَجْمَعِيَّة.

وَأَنَّهُ يُعْرِض فِي فِكْرَته عَنْ تَطَوُّر اَلْعَرَبِيَّة حُلُولًا لِمَسَائِل لُغَوِيَّة وَنَحْوِيَّة قَدِيمَة لَمْ تَعْرِض هَذَا اَلْعَرْض اَلْعِلْمِيّ اَلرُّوح.. اَلتَّطَوُّر المنزع فِي اَلدِّرَاسَة اَلشَّرْقِيَّة لِلْعَرَبِيَّةِ وَيَنْتَهِي إِلَى نَتَائِج بَعِيدَة اَلْمَدَى.

وَهِيَ نَتَائِج وَقَضَايَا جَدِيرَة بِالْبَحْثِ وَالتَّقْدِير وَالْمُنَاقَشَة وَالْمُقَابَلَة وَلُكْنَا لَا نَسْتَطِيع شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ دُون أَنْ تَتَكَوَّن اَلْفِكْرَة فِي سِعَتهَا وَعَظِيم دعاواها بَيْن يَدَيْ اَلصَّغِير لِتِلْكَ اَلْمُنَاقَشَة وَالْمُقَابَلَة لَهَا وَالتَّقْدِير لِنَتَائِجهَا.. وَهُوَ مَا حرت فِي مَوْقِفِي مِنْهُ وَآخَذَ فِيهِ وَمَا أَدَع

لِأَسْبَاب مُتَعَدِّدَة فَهَمَمْت مِرَارًا بِأَنَّ أَعْرِض وَرَغْبَتِي فِي هَذَا فِكْرَة اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ لِلْعَرَبِيَّةِ قَدْ عَرَضَهَا اَلْمُسْتَشْرِقُونَ فِي كُلِّيَّة اَلْآدَاب بِجَامِعَة اَلْقَاهِرَة مُنْذُ قُرَابَة ثَلَاثِينَ عَامًا وَطَبْع مَا كَتَبُوهُ عَنْهَا كَمَا دَرَسَهَا اَلْجِيل اَلثَّانِي فِي كُلِّيَّة اَلْآدَاب فِطْرِيَّة لُغَوِيَّة وَهِيَ وُجْهَة اَلدَّرْس اَللُّغَوِيّ اَلْجَدِير بِالْمُسْتَوَى اَلْعَقْلِيّ لِلدِّرَاسَةِ اَللُّغَوِيَّة اَلْيَوْم.

وَمَعَ كُلّ هَذَا مِنْ حَيَاة اَلْفِكْرَة اَلتَّطَوُّرِيَّة اَللُّغَوِيَّة بِمِصْر وَمَعَ أَصَالَتهَا اَلْمَنْهَجِيَّة وَمَعَ أَنَّهَا تُقَدِّم حُلُولًا لِلْمُشْكِلَاتِ اَلْكُبْرَى الاء يَتَعَثَّر فِيهَا مَنْ يُحَاوِلُونَ تَنْمِيَة اَلْعَرَبِيَّة وَمَعَ.. وَمَعَ.. إِلَى كَثِير مِمَّا يُقَال هُنَا فَإِنَّ اَلْإِخْصَائِيِّينَ اَلرَّسْمِيِّينَ أَصْحَاب اَلسُّلْطَة اَلتَّشْرِيعِيَّة اَللُّغَوِيَّة اَلْعُلْيَا فِي اَلْمَجْمَع لَمْ يَعْنُوا بِهَذِهِ اَلْفِكْرَة اَلْمُبْهِجَة اَلْأَصْلِيَّة اَلْحَيَوِيَّة وَلَمْ نَرَ فِيمَا وَقَعَ لَنَا مِنْ آثَارهمْ اَلَّتِي نَشَرُوهَا إِلَّا هَذَا اَلَّذِي وَصَفْنَا قَرِيبًا، مِنْ قَوْل لَهُمْ عَرْضِيّ فِي اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ لَا يَنِمّ عَنْ شَيْء مِنْ اَلتَّقْدِير لِأَهَمِّيَّة اَلتَّطَوُّر فِي اَلْمَنْهَج اَللُّغَوِيّ وَالْحَيَاة اَللُّغَوِيَّة وَالْحُلُول اَلَّتِي أَنَّ تَقَدُّم لِتَحْقِيق اِسْتِئْنَاف اَلْعَرَبِيَّة اَلنَّمَاء وَالتَّجَدُّد بَلْ أَنَّ هَؤُلَاءِ اَلرَّسْمِيِّينَ لَمْ يَبْدُ – مِمَّا رَأَيْنَا لَهُمْ أَنَّهُمْ قَدْ وَقَفُوا عِنْد شَيْء مِنْ حَيَاة هَذِهِ اَلْفِكْرَة فِي مِصْر وَالشَّرْق اَلْأَقْرَب نَفْسه مِمَّا قَالَ اَلْمُسْتَشْرِقُونَ فِي اَلْمَعَاهِد وَمِمَّا قَفَّى عَلَى آثَارهمْ فِيهِ أَبْنَاء هَذِهِ اَلْبِلَاد فِي تِلْكَ اَلْمَعَاهِد كَذَلِكَ ثُمَّ مِمَّا نَشَرَ أَمْثَال اَلسَّيِّد اَلْعَلَايْلِيّ كَذَلِكَ كُتَّابًا" مُقَدِّسَة لِدَرْس لُغَة اَلْعَرَب وَكَيْفَ نَضَع اَلْمُعْجَم اَلْجَدِيد" وَهُوَ كَمَا قُلْنَا مَطْبُوع فِي مِصْر مُنْذُ نَحْو عِشْرِينَ عَامًا كَامِلَة –

كَمَا أَنَّهُ لِلسَّيِّدِ اَلْعَلَايْلِيّ كَذَلِكَ كِتَابًا يُسَمِّيه "درسات عَلَى فُنُون اَلْعَرَبِيَّة" يَقُول أَنَّهُ فَرَّغَ فِيهِ لِسَبّك مَا فِي كِتَابه" مُقَدِّمَة لِدَرْس لُغَة اَلْعَرَب وَكَيْفَ وَكَيْفَ نَضَع اَلْمُعْجَم اَلْجَدِيد" بِأُسْلُوب قَاعِدِيّ تَعْلِيمِيّ.. وَقَدْ جَدَّ اَلرَّجُل فِي نَشْر اَلْفِكْرَة اَلتَّطَوُّرِيَّة جَدًّا صَادِقًا بِمَا أَثَارَ حَوْلَهَا مِنْ نَشَاط مُتَّصِل.

وَأَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ أَثَرًا فِيمَا رَغَّبَنِي فِي اَلتَّعَرُّض لِهَذِهِ اَلْفِكْرَة أَنَّ اَلسَّيِّد عَبْد اَللَّه اَلْعَلَايْلِيّ إِنَّمَا قَالَ مَا قَالَ فِي فِكْرَة اَلتَّطَوُّر بَلْ جُهْد فِي سَبِيلهَا مَا جُهْد لِيَنْتَهِيَ مِنْهَا فَوَضْع اَلْمُعْجَم وَضْعًا مُتَجَدِّدًا نَامِيًا لَا وَضْعًا جَامِعًا فَقَطْ وَعَمَل عَلَى هَذَا اَلنَّمَاء اَلدَّاخِلِيّ اَلذَّاتِيّ لِلْعَرَبِيَّةِ وَمُتَابِعَة سَيْرهَا اَلتَّطَوُّرِيّ مِنْ حَيْثُ وَقَفَتْ عِنْد خُرُوجهَا مِنْ اَلْجَزِيرَة اَلْعَرَبِيَّة فَاتِحَة مُهَاجِرَة كَمَا قَدَّمْنَا.

وَفِي عَمَله هَذَا مُحَاوَلَات لُغَوِيَّة فَنِّيَّة خَطِيرَة اَلشَّأْن كَمَا فِيهَا مَعَ ذَلِكَ مُحَاوَلَات عَمَلِيَّة وَمَادِّيَّة لَا تَقُلْ خُطُورَة شَأْن عَنْ اَلْمُحَاوَلَات اَلْفَنِّيَّة اَللُّغَوِيَّة مَهْمَا يَكُنْ نَصِيب هَذِهِ اَلْمُحَاوَلَات مِنْ اَلنَّجَاح اَلْعِلْمِيّ وَاَلَّذِي لَا نُعْرِض لِلْحَدِيثِ عَنْ شَيْء مِنْهُ هُنَا وَكُلّ أُولَئِكَ لَمْ يَبْدُ فِيمَا رَأَيْنَا مِنْ آثَار اَلْإِخْصَائِيِّينَ اَللُّغَوِيِّينَ اَلرَّسْمِيِّينَ مِنْ اَلْمَجْمَعِيِّينَ أَنَّهُمْ بَالَوْهُ أَوْ عَرَجُوا عَلَيْهِ أَوْ أَشَارُوا إِلَى شَيْء مِنْهُ بِرِضَا أَوْ سُخْط وَتَصْحِيح أَوْ إِبْطَال وَهُوَ مَا يَدْعُونِي إِلَى مُتَابَعَة اَللَّفْت بَلْ اَللَّفْت اَلْقَوِيّ لِفِكْرَة اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ فِي ذَاتِهَا وَلِهَذَا اَلْجُهْد اَلتَّطَوُّرِيّ اَلْجَلِيل اَلْمُنَاضِل لِلسَّيِّدِ

اَلْعَلَايْلِيّ مَهْمَا يَكُنْ اَلرَّأْي فِيهِ وَفِي نَتَائِجه.

وَكِدْت لِذَلِكَ أَقِف لِأَفْحَص مَعَالِمِ اَلْفِكْرَة اَلتَّطَوُّرِيَّة فَأَجْعَلهَا تَكْمِلَة ضَرُورِيًّا لِهَذِهِ اَلْمُحَاضَرَات بَعْد اَلَّذِي أَشَرْت إِلَيْهِ مِنْ حَيَاة فِكْرَة اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ فِي مِصْر اَلْحَدِيثَة لَكِنِّي سَأَلْت نَفْسِي.

تَرَى أَيّ أَثَر تَرْجُو لِأَنَّ نُلَخِّص بِالْعَرَبِيَّةِ لِقُرَّاء اَلْعَرَبِيَّة كِتَابًا صَدْر بِالْعَرَبِيَّةِ وَطَبْع وَنَشْر فِي أُمَّهَات اَلْعَرَبِيَّة مِنْ أَقْطَار اَلْعُرُوبَة!! وَلَمْ يَنْشُر فَقَطْ بَلْ بِجُهُود لَافِتَة قَارِعَة مِنْ كُتَّاب يُقَرِّر اَلْكُتَّاب اَلْأَوَّل وَيَسُبّك قَوَاعِده.. وَعَمَل تَطْبِيقِيّ مُعْجَمِي صَدَرَتْ مِنْهُ أَجْزَاء سَارَتْ فِي اَلشَّرْق اَلْعَرَبِيّ مُعْلِنَة عَنْ نَفْس فِي بَيَاض صَفَحَات فِي نِهَايَة هَذِهِ اَلْمُحَاضَرَات يَنْتَهِي إِلَى شَيْء مِنْ اَلْإِغْرَاء بِأَهَمِّيَّة اَلْفِكْرَة أَوْ اَللِّفْت إِلَى ضَرُورَة اَلْعِنَايَة بِهَا؟ لَا أَظُنّ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ يَكُون.

هَذَا وَإِنَّ فِي تَلْخِيص كِتَاب عَرَبِيّ لِأَصْحَاب اَلدِّرَاسَة اَلْعَرَبِيَّة اَلْعُلْيَا لِإِغْرَاء لَهُمْ بِالْكَسَلِ اَلْبَلِيد اَلَّذِي كَانَ فِيمَا اِعْتَقَدَتْ – اَلسَّبَب اَلْأَكْبَر فِي عَدَم اَلِالْتِفَات إِلَى اَلْفِكْرَة اَلتَّطَوُّرِيَّة شَيْئًا مِنْ اَلِالْتِفَات اَلْمُلَائِم لِقِيمَتِهَا اَلْمَنْهَجِيَّة ثُمَّ لِجُهُود اَلرَّجُل اَلَّذِي بَذَلَ فِيهَا مَا وَصَفْنَا.

وَهَكَذَا: بَيَّنَتْ لِمُسْتَمِعِي هَذِهِ اَلْمُحَاضَرَات مِنْ تَفَاصِيل اَلْجُهْد اَلْمَبْذُول فِي بَيَان اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ مَا بَيَّنَتْ فِي غَيْر ضنانة وَلَا تَقْصِير وَلَمْ أَرَ أَنْ تَتَضَمَّن هَذِهِ اَلْمُحَاضَرَات تَلْخِيص فِكْرَة يَحْتَفِظ بِهَا كِتَاب عَرَبِيّ يَجِدُونَهُ فِي مَكْتَبَاتهمْ اَلْعَامَّة وَدَوْر اَلْوَرَّاقَة اَلتِّجَارِيَّة وَيَسْتَطِيعُونَ اَلرُّجُوع

إِلَيْهِ أَنْ أَحَبُّوا أَنْ يَعْرِفُوا مِنْ هَذِهِ اَلْفِكْرَة شَيْئًا!! أَوْ عَلَى اَلْأَقَلّ إِنَّ دَفْعهمْ اَلْحِرْص عَلَى اِجْتِيَاز اَلِامْتِحَان اَلنِّظَامِيّ فِي مَعْهَد اَلدِّرَاسَات اَلْعَرَبِيَّة إِلَى أَنْ يُلِمُّوا مِنْ هَذِهِ اَلْفِكْرَة بِشَيْء يَتَزَوَّدُونَ بِهِ لِهَذِهِ اَللَّحْظَة اَلرَّسْمِيَّة..!!

وَإِنِّي إِذَا أَتْرُك اَلْوَصْف اَلتَّفْصِيلِيّ لِتِلْكَ اَلْفِكْرَة فِي تَطَوُّر اَلْعَرَبِيَّة لِأَرْجُو أَنْ يَعْمَل اَلزَّمَن عَمَله فِي اَلْإِغْرَاء بِهَذَا اَلدَّرْس اَللُّغَوِيّ اَلتَّطَوُّرِيّ وَالِانْتِفَاع فِيهِ بِالدِّرَاسَاتِ اَللُّغَوِيَّة لِغَيْر اَلْعَرَب فِي اَلْعَرَبِيَّة ثُمَّ فِي غَيْرهَا مِنْ سَائِر اَللُّغَات وَتِلْكَ اَلدِّرَاسَات اَلَّتِي تَتَكَامَل وَيُؤَيِّد بَعْضهَا بَعْضًا فِي شَرْح نَوَامِيس ذَلِكَ اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ ووَصْف أَدْوَاره وَخُطُوَاته.

وبأخرة أكتفى بِمَا شَرَحَتْ مِنْ هَذِهِ اَلْفِكْرَة مُشَافَهَة فِي اَلْمُحَاضَرَات وَبِالتَّالِي أُشِيرَ فِي إِجْمَال إِلَى اَلنَّتَائِج اَلَّتِي رَتَّبَهَا اَلسَّيِّد اَلْعَلَايْلِيّ عَلَى مَا قَالَ إِنَّهُ مَعْقُول اَلْعَرَبِيّ وَوُجْهَته فِي اَلسَّيْر بِلُغَتِهِ وَالَّتِي يَرَى أَنْ نُتَابع نَحْنُ اَلْيَوْم تَحْقِيقهَا لِنَصْل بِالْعَرَبِيَّةِ إِلَى اَلِاسْتِقْرَار وَالِاسْتِكْمَال وَالتَّخَلُّص مِنْ ظَوَاهِر اَلْفَوْضَى وَالِاضْطِرَاب فِي مَادَّتهَا وَصُورَتهَا وَبِمَعْرِفَة هَذَا اَلْمَعْقُول اَلْعَرَبِيّ نَسْتَطِيع رَدّ اَلْحَيَاة اَلنَّامِيَة إِلَى اَلْعَرَبِيَّة وَبَسْط رُقْعَة اَلْوَضْع أَمَام اَلْوَاضِع اَلْيَوْم فَتَسْتَبْدِل اَلْعَرَبِيَّة بِضُمُورِهَا نَمَاء وَزِيَادَة دَاخِلِيَّة ذَاتِيَّة مِنْ كِيَانهَا وَمَادَّتهَا لَا بِتَعْرِيب مِنْ كَلِمَات غَيْرهَا وَلَا بِنَحْت مُصْطَنِع مِنْ كَلِمَاتهَا وَإِنَّمَا لِغَايَات نَسْمَع فِي سَبِيلهَا قَوْل كُلّ قَائِل وَرَأْي كُلّ مَنْ يَرْتَئِي وَتِلْكَ اَلنَّتَائِج هِيَ:

– اِخْتِلَاف أَبْوَاب اَلْفِعْل اَلثُّلَاثِيّ مِثْل مِنْ عَدَم اَلِاسْتِقْرَار وَيَظُنّ أَنَّ اَلْعَرَبِيّ قَصْد طَرْد اَلْأَفْعَال اَلْمُضَارَعَة عَلَى اَلْكَسْر دُون تَخَلُّف فَالْمَاضِي يَكُون عَلَى وَزْن فِعْل بِفَتْح اَلْعَيْن مُطْلَقًا إِلَّا لِحَاجَة مَعْنَوِيَّة فَيَنْقُل قِيَاسًا إِلَى بَابَيْ طَرَب وَكَرَم وَهَذَا فِي غَيْر اَلْخُلُقِيّ فَيَكُون مِنْ بَاب فَتْح مُطْلَقًا وَعَلَيْهِ فَكُلّ مَاضٍ بِالْفَتْحِ مُطْلَقًا وَكُلّ مُضَارِع بِالْكَسْرِ مُطْلَقًا وَكُلّ حَلْقِي بِفَتْحِهَا مُطْلَقًا وَكُلّ اِشْتِقَاق مُسْتَقْبَل يُلْزِم هَذَا اَلسَّبِيل وَيَطْرُد عَلَيْهِ.

عَلَى أَنَّهُ لَا يَخْرُق حَرَمه اَلنَّصّ بَلْ يَتَقَيَّد بِمَا مَضَتْ بِهِ اَلْمَعَاجِم إِذَا كَانَ مَحَلّ وِفَاق فَإِنْ اِخْتَلَفَتْ فَالرَّاجِح اَلْكَسْر ص ٨٦١، ٢٩١. مِنْ مُقَدِّمَة لِدَرْس لُغَة اَلْعَرَب.

– اَلْمَصَادِر مِنْ اَلثُّلَاثِيّ بَقِيَتْ قَلِقَة كَذَلِكَ وَكَذَلِكَ اَلْجُمُوح لَمْ تَسْتَقِرّ إِلَّا مِنْ اَلْكَلِمَات غَيْر أَنَّ اَلْعَرَبِيّ أَخَذَ بِصُورَة جِدِّيَّة لِإِقْرَارِهَا ص٤٩١ مِنْ اَلْمُقَدِّمَة مِنْ فَوْضَى هَذِهِ اَلنَّاحِيَة لَا يُنْكِر أَنَّهَا أَخَذَتْ فِي سَيْطَرَة اَلِاشْتِقَاق وَغَلَبَته بِهَذَا اَلنَّحْو وَبَقَاء اَلْمَوَازِين عَلَى فَوَّضَاهَا لَا يَتَنَاسَب مَعَ اَلْمَفَاهِيم اَلْعِلْمِيَّة اَلدَّقِيقَة اَلَّتِي تَضْطَرّنَا لِأَنَّ نُجْمِل دَلَالَة لَازِمَة أَبَدًا لِلْهَيْئَةِ اَلْمِيزَانِيَّة.

وَمِنْ ثَمَّ لَا يَكُون عَنَاء اَلْوَضْع كَبِيرًا كَمَا تَرْتَسِم لِلْمِيزَانِ أَيْضًا صُورَة عِنْد اَلسَّامِع تَكُون عَلَى مِقْدَار مِنْ اَلْمَعْنَى فَعَلَى اَلْوَاضِع اَلْجَدِيد أَنْ يَتَوَفَّر عَلَى تَخْصِيص اَلْمَوَازِين بِمَا يُقَارِب أَنْ يَكُون جَامِعًا لِشَتَّى اَلْمُشْتَقَّات عَلَيْهَا.

تِلْكَ مجملات مُثِيرَة فقَطْ وَلِتَفْصِيلِهَا وَدِقَّتهَا جَمَال تَوَلَّاهُ اَلرَّجُل فِي مُعَاوَدَة وَتَكْرَار وَلَا سَبِيل لِشَيْء مِنْ ذَلِكَ هُنَا وَلَا نَحْنُ نُورِدهُ عَلَى أَنَّهُ نَتِيجَة نِهَائِيَّة لَا نَقْص فِيهَا وَلَا رَدّ كَلَّا بَلْ نُورِدهُ شَاهِدًا عَلَى أَنَّ مُحَاوَلَة فَهْمْ تَطَوُّر اَلْعَرَبِيَّة اَللُّغَوِيّ تَنْتَهِي بِالْبَاحِثِينَ إِلَى نَتَائِج بَعِيدَة وَهَامَّة.. وَأَنَّهُ لَا سَبِيل إِلَى رَدّ اَلْحَيَاة اَلْعَرَبِيَّة وَتَيْسِير اَلنَّمَاء اَلْحَيّ لَهَا إِلَّا إِذَا عَرَفَ كَيْفَ دَبَّتْ اَلْحَيَاة فِي هَذِهِ اَلْعَرَبِيَّة وَكَيْفَ سَارَتْ اَلْحَيَاة بِهَا لِنَعْرِف مِنْ ذَلِكَ كَيْفَ تُتَابِع فِي هذ اَلْحَيَاة.

إِلَامَ اِنْتَهَيْنَا؟ وَمَا اَلْوَحْدَة اَلَّتِي اِلْتَقَتْ فِيهَا هَذِهِ اَلْمُحَاضَرَات اَلْقَلِيلَة فِي ذَلِكَ اَلْمَدَى اَلْقَصِير مِنْ اَلْأَيَّام؟ وَجَوَابًا عَنْ هَذَا نَقُول!

– عَرَضْنَا مُشْكِلَات حَيَاتنَا اَللُّغَوِيَّة وَبَيَّنَّا مَدَى خَطَرهَا وَآثَرْنَا فِي تَشْخِيصهَا اَلطَّرِيقَة اَلْعِلْمِيَّة اَلْإِيجَابِيَّة مِنْ اَلتَّحْلِيل وَالْفَحْص وَرَغَّبْنَا صَادِقِينَ فِي اَلِانْتِفَاع بِتَشْخِيص مَنْ تَصَدِّي لِهَذَا اَلْعِلَاج وَلَاسِيَّمَا اَلْإِخْصَائِيُّونَ اَلرَّسْمِيُّونَ فَعَرَّفْنَا مَا عِنْدهمْ لِهَذَا اَلْمَنْهَج وَأَهَمَّ مَا فِي ذَلِكَ تَقْرِير اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ لِلْعَرَبِيَّةِ فَعَرَضْنَا لِحَيَاة فِكْرَة اَلتَّطَوُّر عِنْد اَلْقُدَمَاء وَالْمُحْدَثَيْنِ وَبَدَا مِنْ ذَلِكَ أَنَّ قَضِيَّة اَلتَّطَوُّر تَحْتَاج إِلَى عِنَايَة كُبْرَى لَمْ تَمْنَح شَيْئًا مِنْهَا فِي اَلْبِيئَات اَلرَّسْمِيَّة وَإِنْ كَانَتْ لَمْ تُحْرَم مِنْهَا فِي اَلْبِيئَات اَلدِّرَاسِيَّة وَالْبِيئَات اَلْخَارِجِيَّة...

– تَكَامُل مِنْ هَذَا كُلّه اَلِاتِّجَاه اَلصَّحِيح إِلَى اَلْخَلْطَة اَلسَّلِيمَة وَالْمَنْهَج اَلْمُحَرّر لِنَمَاء اَللُّغَة اَلْعَرَبِيَّة وَتَخْلِيصهَا مِنْ اَلضُّمُور اَلَّذِي

أُقْعِدهَا وَيُقْعِدهَا عَنْ اَلْوَفَاء بِحَاجَة اَلْحَيَاة وَهُوَ مَنْهَج أَسَاسه لَا بَأْس بِهِ فِي هَذِهِ اَلْمُحَاضَرَات عَلَى قِلَّتهَا وَضِيق وَقْتهَا.

عَلَى أَنَا نُسْرِف فِي اَلتَّفَاؤُل إِذَا ظَنَنَّا أَنَّ هَذَا اَلْقَدْر اَلنَّظَرِيّ يُمْكِن أَنْ تَبْنِي عَلَيْهِ خُطَّة إِيجَابِيَّة عَمَلِيَّة سَرِيعَة يَتَّفِق عَلَيْهَا فِي قَضِيَّة نَمَاء اَلْعَرَبِيَّة فَإِنَّهَا أَجْل مَنْ ذَلِكَ وَأَدَقّ وَالْحَدِيث عِنْدنَا فِيهَا مُنْتَشِر مُتَفَوِّق لَا مَنْهَج لَهُ.

وَقَدْ اِتَّضَحَ مِمَّا أَسْلَفْنَا بَيَانه فِي وَفَاء وَوُضُوح أَنَّ تِلْكَ اَلْخُطَّة لَا تَسْلَم وَلَا تُكْمِل إِلَّا بِدِرَاسَة لُغَوِيَّة صَحِيح لِتَطَوُّر اَلْعَرَبِيَّة وَكُلَّمَا عَمَّقَتْ هَذِهِ اَلدِّرَاسَة اِتَّضَحَتْ مَسَالِك اَلنَّمَاء اَللُّغَوِيّ وَتَهَيَّأَتْ اَلْجُرْأَة اَللَّازِمَة فِي تَقْرِير مَا يَتَقَرَّر فِي هَذَا اَلشَّأْن عَلَى نَحْو مَا رَأَيْنَا فِي نَتَائِج دَرْس ذَلِكَ اَلتَّطَوُّر عِنْد مَنْ عَنَى بِهِ.

فَفِي اَلْحَقّ أَنَّ كُلّ مَا نَرْجُوهُ مِنْ أَثَر لِهَذِهِ اَلْمُحَاضَرَات فِي مُشْكِلَة نَمَاء اَلْعَرَبِيَّة إِنَّمَا هُوَ قُوَّة اَللَّفْت بَلْ اَلدَّفْع إِلَى اَلْإِيمَان بِتَصْحِيح اَلْمَنْهَج اَللُّغَوِيّ، ثُمَّ إِلَى اَلنَّشَاط اَلْجَادّ فِي دَرْس اَلتَّطَوُّر اَللُّغَوِيّ دَرْسًا تُجَنِّد لَهُ اَلْقَوِيّ.

وَكُلَّمَا هَدَى إِلَى اَلْإِيمَان بِالْمَنْهَجِ فَرْد وَاحِد تَوَفُّر جُهْد يَضِيع بَدَّدَا وَعَمَل يَذْهَب سُدَى فِي غَيْر وَجْهه عِنْدَمَا نَخْتَلِف وَنَتَنَاقَش وَنُقَرِّر عَلَى غَيْر أَسَاس مِنْ مَنْهَج مُحَرِّر وَالْأَمَل قَوِيّ فِي أَنْ تَكُون دَعْوَة هَذِهِ اَلْمُحَاضَرَات إِلَى اَلْإِيمَان بِالْمَنْهَجِ قَادِرَة عَلَى كَسْب أَفْرَاد غَيْر قَلِيلِينَ إِنْ شَاءَ اَللَّه.

تَمَّ بِحَمْد اَللَّه

الفهرس